

الجنوب العربي المنسي

الوديان والحضر والبدو

مُزوّد بـ ١٤٦ صورة توضيحية و ٩٦ لوحة فنية

تأليف

هانز هوليفرتيز

ترجمة

محمود أبوسريع سالم

مدرس اللغة الألمانية بجامعة الأزهر

مراجعة

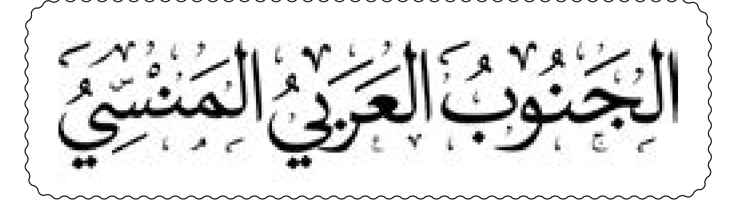
أ.د. عاصم عطية علي حسن

أستاذ الأدب الألماني بجامعة الأزهر

أ.د. محمد بن هاوي باوزير

أستاذ التاريخ بكلية الآداب جامعة عدن

الطبعة الأولى


الجنوب العربي المنسي

الجنوب العربي المنسي

الوديان والحضر والبدو

مزود بـ ١٤٦ صورة توضيحية و ٩٦ لوحة فنية

تأليف

هانز هوليفرتيز

ترجمة

محمود أبوسريع سالم

مدرس اللغة الألمانية بكلية اللغات والترجمة - جامعة الأزهر

مراجعة

أ.د. عاصم عطية علي حسن

أستاذ الأدب الألماني بكلية اللغات والترجمة - جامعة الأزهر

أ.د. محمد بن هادي باوزير

أستاذ التاريخ بكلية الآداب جامعة عدن

الطبعة الأولى ٢٠١٩



طُبع سنة (١٩٣٦) في ألمانيا

لصالح وكالة المعهد البيبليوجرافي بلايبزج



دار الوفاق الحديثة للنشر والتوزيع - مصر

هاتـف وواتس آب: 00201008170225

بريدً إلكتروني: daralwefaqnet@gmail.com

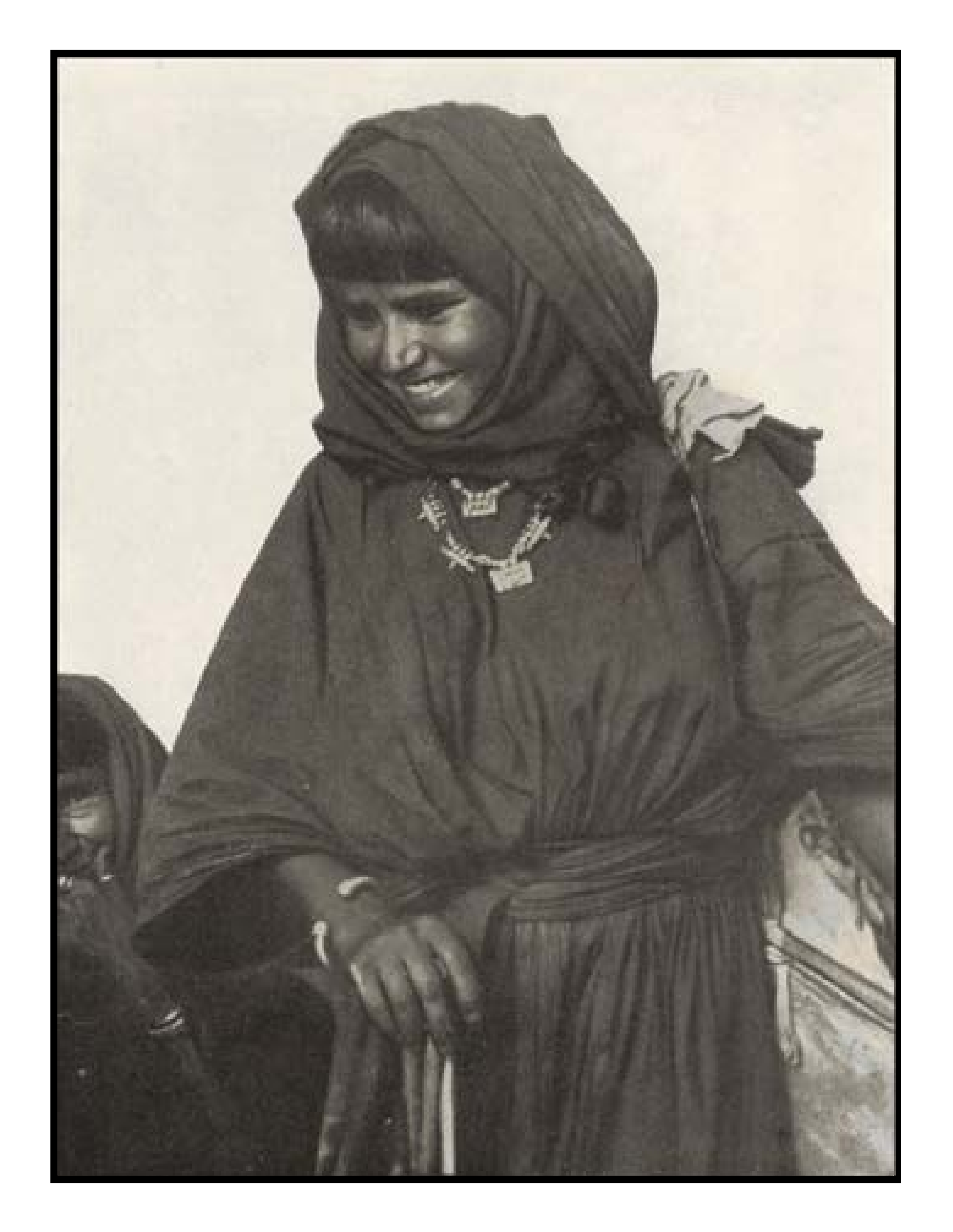
فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة

مقدمة

في مطلع عام ١٩٣٢ عُدت إلى ألمانيا من رحلتي الأولى في بلاد الجنوب العربي، وكنت قد أحضرت كتابًا أطلقت عليه اسم «شيكاغو الصحراء»، وهذا العمل الذي هو بين أيدينا، هو نتاج رحلتي الأولى إلى إقليم حضرموت، وفي هذا الوقت لم تكن الأوضاع مستقرة في الجزيرة العربية، والتي جلبت معها بعض التغيرات إلى البلدان الجنوبية لشبه الجزيرة العربية، فلا يفكر المرء إلا في تلك الحرب الأخيرة التي كانت بين ابن سعود والإمام يحيى ملك اليمن، وأثناء ذلك أُتيحت لي الفرصة لزيارة بلاد الجنوب العربي مرتين، واستطعت تعميق كثير من الانطباعات لزيارتي الأولى، ممّا حملني على معالجة هذا النص، ومكّنني هذا إلى حد كبير في أن أتوسع بشكل ملحوظ في الجزء المتعلق بالصور التي تم توثيقها من قبل شركة (لايتز فيتزلر)، وهي التي تقودنا إلى أي بلد، أفضل من سرد الكلمات، والذي ينظر إليه الكثير منا وبحق على أنه يقع بعيدًا، وأنه بلد يختلف بشكل جوهري في طبيعته وناسه ومساكنهم عن البلدان الأخرى الواقعة شمال شبه الجزيرة العربية.

برلين - سبتمبر ١٩٣٦ **هانز هوليفرتيز**



الفتاة البدوية



قصر السلطان بالشحر



الشوارع في جدة



صيادين بسمك التونة



هكذا يحمل المرء (حمالة) السمك



على شاطئ المكلا



أطفال حضرموت



لعب أطفال حضرموت من الطين



بردعة (سرج الجمل)



تغيير العملة (النقود)



تجار الخردة في مكلا

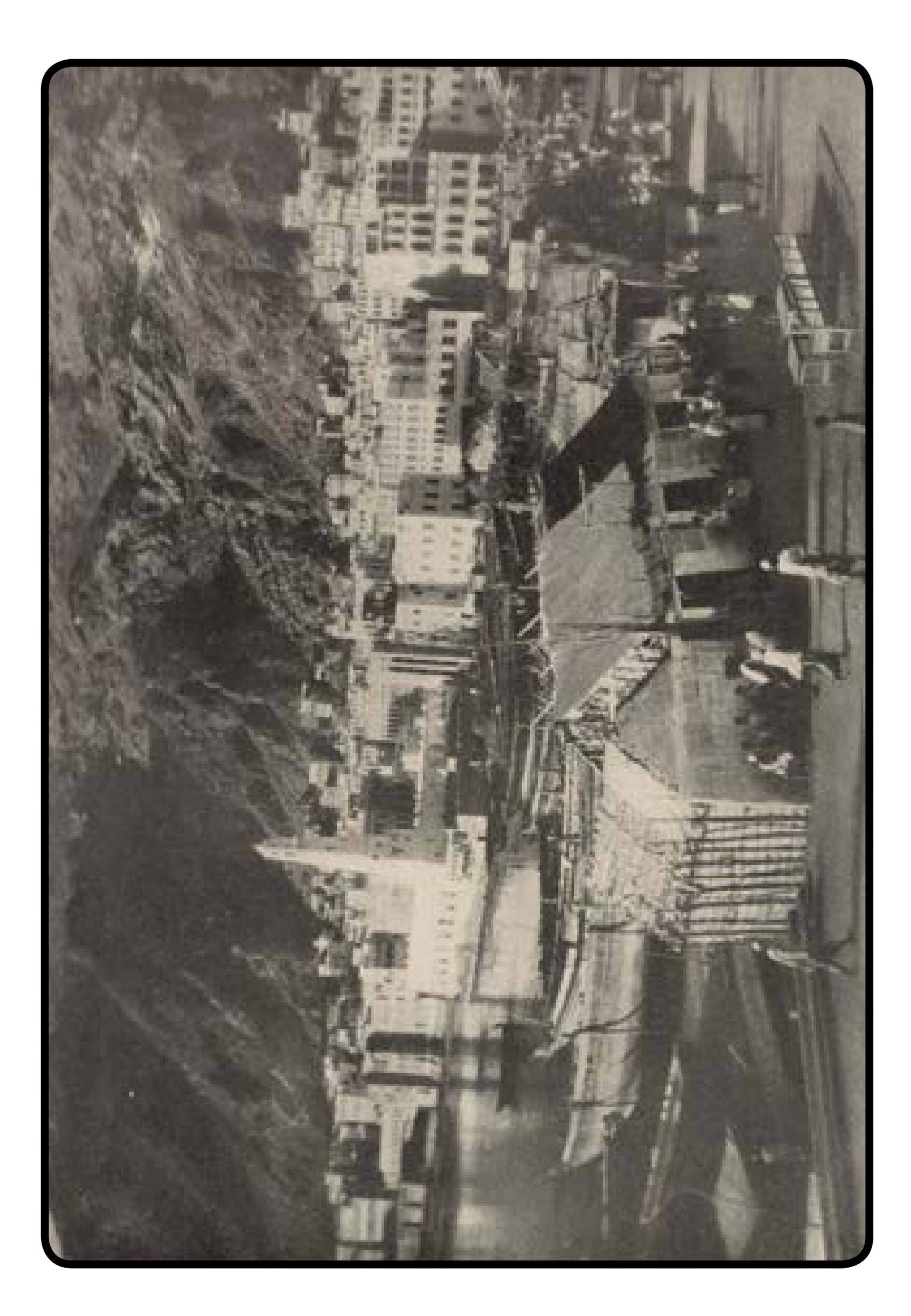




الصياد في البحر



أماكن تجفيف السمك في مكلا



المكلا

نظرة عن الشرق

هذا الكتاب يعد كتابا من كتب الثقافات الأخيرة ذات الألغاز على وجه الأرض، التي لم تُعرَّف بعد من قبل المدنية المتنامية.

ويقودنا هذا الكتاب إلى مكان خيالي ومخيف، محاط بالصحاري في جنوب شبه الجزيرة العربية الكبرى.

فهو عبارة عن معايشة لقبائل بدوية وحشية وسلاطين، وكذا عائلات نبلاء عربية عتيقة، فهم شعب قلما نفهمه نحن الأوربيين، فهو يسلك طريقًا غير الذي تسلكه الشعوب المتحضرة (المتمدينة) على سائر أرضنا، لذلك ينشدون هم ألا تؤول حياتهم إلى الأسوأ مثلنا، كما إنه شعب غني جدًّا بالتراث الثقافي القديم، مثل شعب الهند وشرق آسيا، فبلاد العرب التى هي أكبر سبعة أضعاف من الإمبراطورية الألمانية، والتي تغطيها صحاري شاسعة غير مستكشفة جزئيا، فهي البلد الأكثر كثافة سكانية على وجه الأرض، وعُرفت المنطقة العربية تاريخيًّا منذ ثلاثة آلاف عام، وخاصة بأقاليمها الجنوبية، التى ظلت لفترة طويلة غير مستكشفة ومغلقة، وهي منطقة محرمة لا تزال ثقافتها على غرار العصور الوسطى إلى اليوم.

إن كل حضارة قديمة تعود إلى عصر قوم سبأ ومعين تُعتبر وكأنها ذات لغز (مليئة بالغموض).

ويتمتع البشر أيضًا بالغموض، فهم متمسكون بالموروث منذ قرون، وظلت عاداتهم الحياتية دائما على حالها، ولا يزالون حتى اليوم يسافرون بالإبل في سائر

طرق القوافل القديمة عامًا بعد عام، والمسارات هي نفس المسارات التي تستخدمها قبائل سبأ المتعاقبة والتجار الرومانيون والحبشيون والقبائل البدوية الغاصبة.

وقد أبقت جنوب الجزيرة العربية -وهي الأكثر غموضًا في جميع البلاد العربية- على مسافة بعيدة من أي تأثير أجنبي، ومنعت وبحق تغلغل الأوروبيين حيثما كان ذلك ممكنًا. ولم تكن البلاد الجنوبية المطلة على المحيطات العربية بلدًا موحدًا، بل مملكةً، وحفنة من السلطنات، وبعض الدول الصغيرة التي لم أكن أعرف وجودها أكثر من أي شخص آخر في ذلك الوقت.

ولكن قبل أن نتجه إلى جبال الجنوب العربي سالكين طرق القوافل، أردنا أن نلقي نظرة سريعة على الأجزاء الشمالية من شبه الجزيرة العربية، والتي وجب علينا أن نمر منها بكامل طولها قبل أن نصل إلى نقطة انطلاق رحلتي الداخلية.

عند غروب الشمس سنغادر أثينا، أي بيرايوس، وهو ميناء اليونان، حيث تظهر جبال هيمتو في سالاميس وأجانيطس بألوانها الرقيقة بشكل لا يصدق، وتظهر القمة الأبعد باللون البنفسجي الغامق، وأمامها سلسلة باللون الأحمر الدموي تقريبا، والتي تتلألأ في التلال في ضوء المساء مثل الكوارتز الوردي، لكن سرعان ما تتلاشى لعبة الألوان الفريدة من نوعها، وتنتشر سماء مرصعة بالنجوم فوق الجزر اليونانية، وكأنها فتنت بليل الجنوب بكامل روعته.

وهناك على متن السفينة - باخرة يونانية صغيرة تسمى «أتيكا» - مزيج معتاد من الركاب ممّن نرغب في حل لغز موطنهم وأعمارهم ومهنهم، وإذا ما كانوا يعتبرون أنه ليس من الضروري أن يَكشفوا في أقرب وقت ممكن لزملائهم المسافرين عن كل تفاصيل حياتهم ويوضحوا الغرض من رحلتهم؛ فمعظمهم من اليونانيين المهاجرين الذين يبحثون عن منزل جديد في مصر أو الحبشة، وأحد المهندسين كان قد حصل على وظيفة جيدة في السويس بإدارة القناة، وهو مسافر مع زوجته

وخمسة أطفال. وهناك عالم كيميائي، من مواليد اليونان، كان قد درس في ألمانيا، يتبع أخاه إلى الحبشة، ويريد أن يؤسس كيانًا لنفسه هناك. وأخيرا يونانيون طردهم الإنجليز من قبرص، وتمّ حرمانهم من الجواز اليوناني في أثينا، حتى أصبحوا الآن دون جنسية، وقد سمحت لهم مصر بالعبور، لكنهم ما زالوا لا يعرفون لأنفسم مكانًا يمكنهم أن يستقروا فيه ذات يوم. لا بد أنه شعورغريب عندما تبدأ رحلة دون أن تعلم إلى أين أنت ذاهب، إلا أن اليونانيين جميعم تحملوا هذه المصائب باعتبارهم شرقيين بلا مبالاة، وأنا أتساءل: هل سمعت أنا عن أحد يشكو من ذلك من قبل...؟ لا أعتقد ذلك.

بشكل عام، يا له من شعب غريب هؤلاء الإغريقيين، ولكونهم شعبًا يعيش في جزيرة في نهاية قارتنا، فهم يفهمون كيفية استعمار بلدان شرق البحرالأبيض المتوسط بطريقة تدعو للتفكير. بالإضافة إلى إنجلترا وفرنسا وإيطاليا، فقد اجتذبت الحياة الاقتصادية في بلاد الشام نحو مليون شخص من اليونانيين، الذين كانوا لا يريدون شيئا أكثر من اتصالهم بمساكنهم في اليونان. وهؤلاء الإغريقيون اليونانيون يبنون من الأسفل إلى الأعلى، فهم يخترقون كافة أنواع التجارة تدريجيًّا مع الناس القليلين في معركة بلا كلل، وذات يوم سوف تأخذهم أوروبا على محمل الجد، إذا لم يدرك المرء ذلك الآن تدريجيًّا أنه يتعامل هنا مع شعب هادف للغاية وعنيد! ولكن مَنْ هذا الذي سيكون قادرًا على العمل جنبًا إلى جنب مع مواطنين في مثل هذه الحالة، وفي مثل هذه البساطة المادية والثقافية، لا لشيء إلا من أجل الربح؟ إنهم الصينيون على أكثر تقدير. إنّ تساهلهم ولامبالاتهم وتوفيرهم لايساعدهم على تحقيق طموحهم فحسب، بل أيضًا يساعدهم على تحقيق نجاحات عظيمة في الشرق.

وإذا ما سلكت شوارع الإسكندرية فسوف تجد في كل منعطف المحلات والمقاهي والصحف اليونانية، وإذا كنت قادمًا إلى قرية ريفية صغيرة، فسوف ترى أحد هؤلاء اليونانيين أصحاب الشعر الأسود يجلس أمام المتجر العام، حتى في المناطق النائية في الصحراء حيث لا يكاد يشتم فيها رائحة ربح، ويأتي عدد قليل من الفقراء اليونانيين إلى هناك منهكين، ومن دون مال، ومعهم فقط عدد قليل من الأقفاص، وسرعان ما يقومون بفتح متجر، ومن ثم تنشأ مستوطنة، ويكسبون. وحقا أنهم لايقتصرون على الشرق الأدنى فقط، بل يستمرون في الذهاب إلى شرق أفريقيا، فلقد كانوا يبيعون أنفسهم هناك في وقت الحرب بسعر زهيد جدا للألمان، حيث كانوا يريدون أن يظفروا ببعض المال من ممتلكاتهم وإثراء أنفسهم من خلال ما تحصلوا عليه من البيع الأخير.

لقد أتيحت لي الفرصة لمراقبة مهارة ومثابرة هؤلاء الأطفال، الذين قد عُلّقت لهم سلة بها بعض الأغراض مثل (الشوكولاته)، أو السجائر، أو اللب المفضل في رقبتهم، ليتمكنوا من تقديم بضاعتهم، وكان ذلك قبل رحيل باخرة يونانية صغيرة قادمة من سلانيك، إذ كانت السفينة مزدحمة بشكل كبير، والكل كان يندفع مع وجود الكثير من الضوضاء من أجل الحصول على مقعد.

ووسط هذه الحشود ظهر بعضٌ من الباعة هنا وهناك، كانوا يمرون متنقلين بإلحاح من شخص لآخر، حتى يعثروا في النهاية على مشتر - ربما كانت الرغبة هنا قليلة؛ بل إن الأمر لم يقف عند ذلك، بل وصل إلى أن يعنف كل واحد منهم بعباراته على راكب معين، ويلح في إقناعه إلى أن يُعطيه ويشتري منه شيئا، ويحدث هذا في كل صغيرة وكبيرة. إن اليونانيين يعملون بوعي ومثابرة فائقة ليس فقط في بلدهم، بل أيضا في جميع أنحاء الشرق، فهم ينجزون بذلك عملا ثقافيا لا يستهان به دون أن يكونوا على علم.

تعال وانظر بنفسك إلى مدن اليونان! فلقد نشأت المباني ذات الأبعاد الأمريكية من أنقاض الشوارع الشرقية المنزوية، وقد صمم المعماريون الألمانيون والإنجليزيون مباني من ستة إلى سبعة طوابق، وتمتد هناك طرق ممهدة (مستقيمة) عبر مدينة أثينا ذات المليون نسمة وسلانيك عاصمة ثيساليا، سالونيك القديمة الواقعة على الخليج الثيرمي.

وقد شهدت هذه المدينة تغيرات كبيرة في العقود الأخيرة، فالأتراك والبلغار والفرنسيون كانوا سادة لهم حتى تم ضمها بعد الحرب العالمية الثانية إلى الوطن الأم، ويسعى اليونانيون الآن للقضاء على أي ذكرى للسيادة التركية بالقوة، وقد نجا حوالي ثلاثين مسجدًا من قصف البلغار والحريق الكبير في عام ١٩١٧. - حيث لا يوجد اليوم سوى مئذنة واحدة، إلا أنها أيضا قد تمّ إزالة قمتها بالفعل، وبناءً على ذلك ينبغي على من يريد أن يعايش عبق هذا الماضي الذي يشير إلى المجد التركي القديم أن يسارع بالسفر إلى هناك، خشية ألا يجد أية قرية من الاثنتي عشرة، والتي بنيت وفقا للنموذج (الألماني) المعتمد بدون ملمح خاص.

لقد وفقت في الوصول من بيرايوس إلى الإسكندرية عن طريق أقصر وأسرع عبر البحر الأبيض المتوسط،، ورغم أن هذه البواخر اليونانية لا يعتمد عليها، إلا إنها رخيصة، وهذا أيضا يعد ذا قيمة.

إن الرسو في الإسكندرية وعبور الجمارك المصرية كل مرة يعني الكفاح، خاصة عندما يكون المرء مثقلًا بأمتعة غير مألوفة، مثل جهاز التسجيل الصوتي ومعدات التصوير- أما عني فقد خضت تجربتي في هذا الشأن قبل عام، عندما سافرت عبر مصر في رحلة إلى فلسطين والعراق، وجب عليَّ أن أتحلَّى بالصبر لأيام حتى يتم تسلُّمي للأمتعة أخيرًا، وهذا يتأتى بعد جهود دائبة في مكتب الجمارك بالقاهرة.

وفي بورسعيد، ورغم التأخير وصلت إلى الباخرة الألمانية «فولفسبورغ»، وهي باخرة شحن بضائع تابعة للخطوط الهانزية تمر برحلتها في الخليج الفارسي على بعض موانئ ساحل البحر الأحمر -في رحلة استغرقت عشرة أيام عبر البحر الأحمر- ويحدث هذا أيضا في عدن، في حين أن سفن جميع شركات النقل البحري الألمانية الأخرى التي خططت للبقاء في عدن، لا تلامس هذا الميناء إلا وهي عائدة.

وتقف الباخرة «فولفسبرج» في ميناء بورسعيد أمام المرسى وتتزود بالوقود، ويتم تحميل الفحم على العوامات الكبيرة المربعة، وسرعان ما يزدحم متن السفينة بأجسام متدثرة داخل ثياب رثة، لا تكفي لتغطية هذه الأجسام، ويضعون حمولتهم المتربّة السوداء سلَّة وراء سلة في حلق الباخرة الذي لا يسبرغوره، وتتحرك مجموعة من عمال التحميل الذين يتصببهم العرق وهباب الفحم على الألواح المتمايلة من ساعة إلى ساعة تحت وطأة شمس الجنوب الحارقة من العوامة إلى فتحات مستودع الفحم في السفينة «فولفسبورغ»، حيث تخرج من أنوفهم سحب هائلة رغوية من غبارالفحم الأسود، كما يتم إمداد هؤلاء العتالين بالماء من القارب أثناء عبورهم، لأن السوائل تتبخر بسرعة من الجسم أثناء العمل الشاق تحت حرارة الشمس الحارقة، ويجب استبدالها كلما كان ذلك ممكنا، وهذا يتطلب نشاطًا زائدًا للقلب. ولقد تم توظيف عمّال كانوا قادرين على شرب تسعة إلى عشرة لترات من السوائل يوميا، كما كان الحال عند بناء السد العالي للنيل في أسوان.

وعبرنا قناة السويس التي يبلغ طولها (١٥٧) مائة وسبعة وخمسون كم، فهو انطباع لا يُنسى لذلك الذي يعايشه للمرة الأولى، يا لها من تجربةٍ فريدة من نوعها، وستظل كذلك يحبها المرء دائما عند المرور نهارا أو ليلا، فهنا يمكن للمرء أن يستشعر للمرة الأولى ذلك الهواء الساخن الجاف للصحراء، الذي تحبُّ أن يكون هكذا ساخنا دائما، فهكذا يمكن للمرء بسهولة وحرية أن يعتقد حقا، أنه انتقل

إلى عالم آخر، كما تصطف الكثبان الرملية بجانب بعضها في تراصف لطيف وفي تدرجات للون الأصفر والأحمر وتمضي إلى آفاق لا تنتهي من الطبيعة العربية.

وتقع فلسطين خلف هذه الكثبان، بؤرة الأحداث التي لا تهدأ أبدًا في شمال العرب.

ويقول العرب «فلسطين دولة عربية، فالعرب كانوا هنا منذ فترة طويلة قبل اليهود»

إلا أنّ اللورد بلفور كان له رأي آخر، فلقد وعدهم، أي اليهود، بتمكينهم من تأسيس وطن قوميّ في موطنهم القديم فلسطين، وقد جلبت نهاية الحرب العالمية هذا القرار، وبالمثل فإن الـ (٧٠٠٠٠٠) سبعمائة ألف عربي، الذين يعيشون في فلسطين، يعتبرون البلد موطنهم القوميّ أيضا، فإقامة موطن قوميّ داخل موطن قومي آخر تعني نشوب حرب، ولقد تزايد الاضطراب في فلسطين بوتيرة متصاعدة حتى يومنا هذا، وما زال لا يمكن توقع حل يرضي الطرفين، وكثيرًا ما حاولت المفوضية الإنجليزية جاهدة في تسوية هذه النزاعات الأبدية.

وتظل هناك ذكرى وحيدة للشعب اليهودي من تاريخهم القديم، ألا وهي ما تبقى من سور المعبد القديم لأورشاليم، التي اشتكى في شأنها اليوم وأمس ومن عام إلى عام شعب بأكمله بفقدان مملكة سليمان، طالما أن المكعَّبات الحجرية الكبيرة موجودة وسط مدينة القدس، ولم يكن لهم أيضا حتى ضريح للصلاة، فهذا السور يخص العرب، ولقد سُمح لليهود أن يقيموا صلواتهم فقط في هذه الزاوية المختبئة، غير أنه لا يُسمح لليهود بإجراء أي تعديلات في السور، ولا حتى دق مسمار واحد فيه، ولا إقامة أي ملحقات يحتاجونها لعباداتهم المقدَّسة هناك، ومنذ أن تم انتهاك هذا الحق الذي أيقظ غيرة المسلمين، فلم يعد يُسمح لليهود بالراحة.

وحدث هذا في يوم الغفران في خريف عام (١٩٢٨)، وبناء على رغبة أحد الحاخامات أُقيم جدار على الطراز الأسباني في حائط المبكى، يفصل بين الرجال

والنساء أثناء الصلاة كما في الكنيس (المعبد). فلما علم بذلك مفتي (شيخ) مسجد عمر، رئيس رجال الدين الإسلامي، أمر بسرعة إزالة هذا الجدار، هذا بخلاف أنه هدد اليهود بالرجم بالحجارة عن طريق مائتي من العتّالين العرب، وعلى الفورتحركت الشرطة الإنجليزية نتيجة لذلك، وأزالت هذا الحاجز ممّا أدَّى إلى مزيد من الاضطرابات في فلسطين، وسرعان ما سالت الدماء، ومنذ ذلك الحين اشتعلت الثورات مرة أخرى، ولم تخمد بعد حتى وقتنا هذا.

وهناك اختلافات دينية أقل من الاختلافات السياسية والثقافية بين الإسرائيلين والقطاع العربي المهدد بالاستقلالية، وهذا ما تبحث عنه الروح اليهودية دائما لتصل إلى مكانها الحساس، تكريما لموروثهم الديني، وأصبح على الحكومة الإنجليزية مهمة ثقيلة لحلها، إثر انطباع اضطرابات العرب الشديدة في الفترة الأخيرة، والذين يعارضون الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وقبلت إنجلترا وبود موقفا عربيا واضحا عام (١٩٣٠) مما صعّبت من هجرة اليهود إلى فلسطين، إلَّا أنّ أعداد المهاجرين من اليهود في الآونة الأخيرة قد تزايد بشكل كبير، مما جعل ثورات العرب ليست ضد اليهود فحسب، بل صارت ضد الإدارةً الإنجليزية أيضا. وسوف يزول الخطر الحقيقي لإنجلترا إذا ما اتحد العرب وآل ذلك إلى حركة مفادها التركيز في تكوين قوة، ومن ثم ستشكل هذه الوحدة خطرًا على الدول الأخرى.

التحولات في الجزيرة العربية

فلما تجاوزنا خليج السويس كنا قد أبحرنا داخل منطقة مصبات البحر الأحمر، حيث واجهنا تغيرًا كاملا في الجو المحيط بنا، وحلّت درجات الرطوبة الشديدة غير المحتملة محل هواء الصحراء الجاف النقي، وكانت احتمالية التعفن والصدأ إحدى الآثار الجلية لارتفاع معدلات الرطوبة؛ فها نحن الآن في وسط مستعمرات بحرية من الشعب المرجانية التي نعاني المشاق في تفاديها، إذ إنها لا تكاد تُرى، فهي لا تبني شكلها الفني البديع فوق سطح البحر، يعلوها حزام من الزبد الأبيض المتلاحم يكاد يخفيها، لذا فقد أضحت هذه الشُّعَب خطرا على رحلتنا البحرية، ولكننا نحس بتواجدها وكذا المسارات السياحية القريبة من الساحل، أما الخطوط الملاحية فلا خطر عليها، حيث يكاد يخلو الساحل العربي من الفنارات والمعالم الاسترشادية، ولا يظهر للرائي من بعيد إلا بعض الأضواء المتلألئة، تشع من مدن جدة ومكة والحديدة، فالمعالم التي يهتدي بها البحارة هنا ليست قريبة بما يكفي من الساحل. إلا أن الكثير من الأشرعة البيضاء تظهر في كل مكان وسط وبين علامات الزبد الفضية، إنها أشرعة لسفنٍ عربية.

تسللت سفينتا (وولف برج) ببطء وحذر بين الأشرعة المتراصة إلى أن رست في مياه هادئة محتمية من الأمواج بسلسلة من الشعب المرجانية، ومن هذه البقعة أخذ وميضٌ خافت لأضواء الشريط الساحلي العربي، الذي يتراءى لنا عن بعد، إلا أننا لا زلنا بعيدين كثيرا عنه، وبتدقيق النظر يمكن أن نلحظ مجموعة من أضواء متلألئة يعلوها ضوء ساطع، هذه هي مدينة جدة.

رست سفينتنا يوما ونصف يوم أمام هذه المدينة، الأمر الذي كان كافيًا لزيارة الميناء الأهم في الأراضي السعودية، إنه ميناء جدة، إذ تعد جدة المدينة الساحلية والميناء الرئيس لمملكة ابن سعود، والتي لم يكن مسموحًا لغير المسلمين دخولها إلا بتصريح خاص من الملك، ففي جدة وكالات للدول الأجنبية، على العكس من بلدان الجنوب، وقد سعى الملك إلى تأسيسها لتكون مقرًّا لمفاوضاته في الشئون الخارجية، كما تمّ تشييد القصر الملكي أيضًا في مدينة جدة، بغرض تسهيل إدارة شؤون المملكة، ولم يكن مسموحًا إلا لعدد قليل من الأوربيين بدخول الرياض عاصمة المملكة السعودية قلب جزيرة العرب.

كما إنه من المؤكد أن الحدود الأوروبية اعترتها كثير من التغيرات بعد انتهاء الحرب العالمية، كما تمت آنذاك تحولات ضخمة ومنفردة في شبه الجزيرة العربية لم نلاحظها إلا بالقدر القليل.

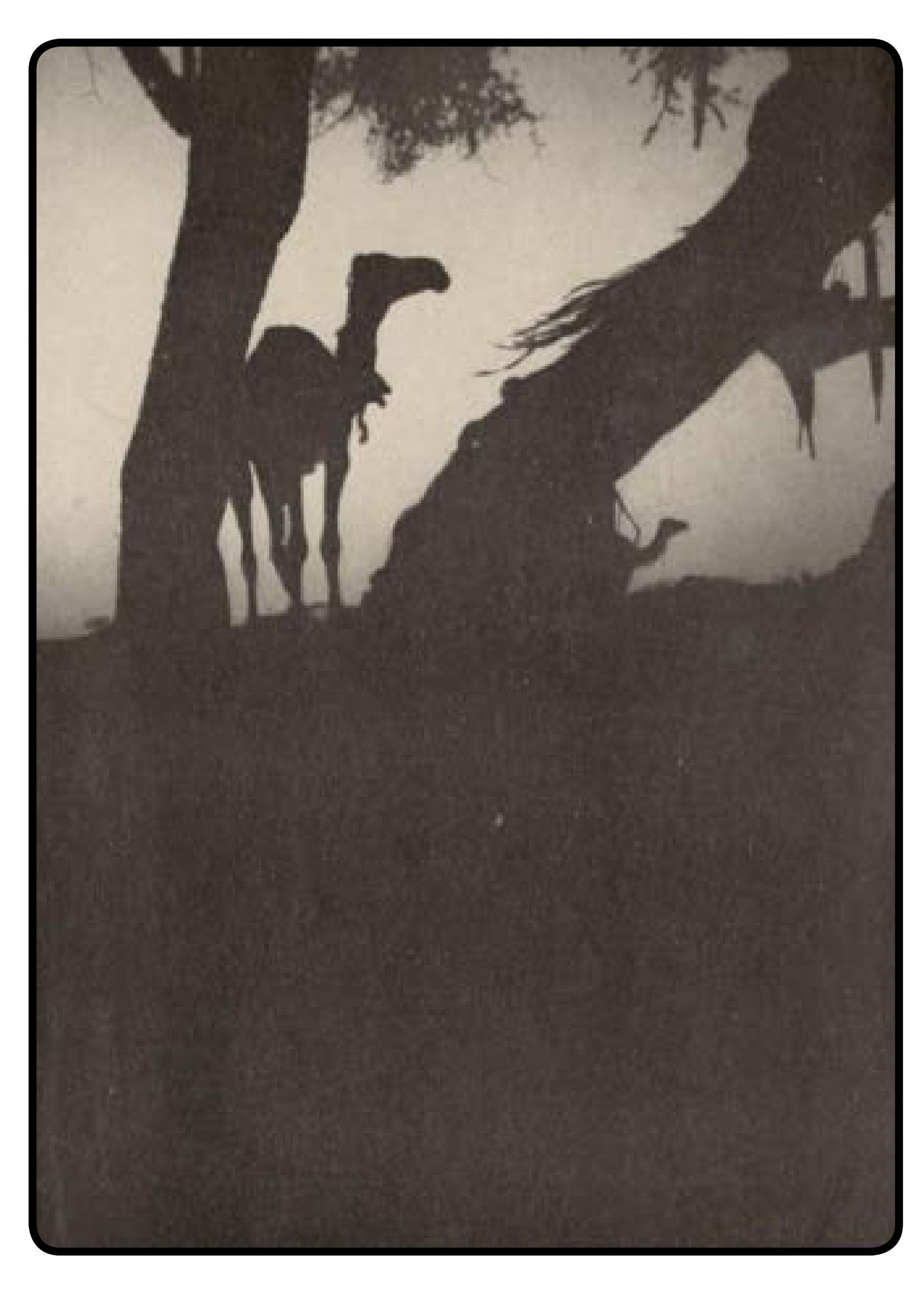
وفي وقت ما قبل الحرب، قامت الإمبراطورية العثمانية بتوحيد بلاد الجزيرة العربية، والتي لم تكن لها حتى ذلك الحين حدودٌ مرسومة ومحددة، لكن ما كان محددا ومؤكدا أنها كانت جزءًا تابعا لتركيا القديمة، كما تمثلت المنطقة المستقلة عن تركيا فقط في الجزء الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة العربية، حيث تقع سلاسل اليمن الجبلية، إذ إن إمام المنطقة المستقلة كان على علاقة وطيدة بسلطان قسطنطين آنذاك وتم منحه هذه المنطقة، لكن سرعان ما أخذت جزيرة العرب في الانقسام إلى دول مستقلة، حيث خضعت دول النطاق الشمالي لجزيرة العرب، كسوريا وفلسطين إما للحماية أو الانتداب الفرنسي أو البريطاني، كما تم ضم الأردن لفلسطين تحت الحماية البريطانية، والتي كان يحكمها آنذاك الأمير عبدالله بن الشريف حسين، والذي كان مواليًا للإنجليز في الحرب العالمية، وحكم البلاد منذ عام ١٩٢١، أما العراق المسماة ببلاد الرافدين فقد احتلت مكانةً خاصة، وحكمها الملك فيصل في

الفترة ما بين عامي ١٩٢١- ١٩٣٣، الابن الثاني للشريف حسين، وقد تمّ تنصيبه بإرادةٍ إنجليزية خالصة، لتصبح البلاد تحت التأثير الإنجليزي، وفي عام ١٩٣٢ أصبح عضوًا بعصبة الأمم، وبعد وفاته في الخارج خلَفه ابنه في حكم البلاد.

وكان ممن سعى لتولية الملك فيصل على العراق سيدة تدعى (ميس بل) التي كانت تطوع الأحداث السياسية في العراق لصالح إنجلترا.

أقامت (ميس بل) منذ عام ١٩١٦ لفترات طويلة في جزيرة العرب، وقامت بالعديد من السفاري والرحلات الاستكشافية بصحبة البدو الرحالة إلى مناطق مجهولة، وكانت خلال رحلاتها تولي اهتمامًا بالغا لكل شيء تمر عليه، مثل العقيد الأعلى لورنس، وبالغت أيضًا في وصف التفاصيل الدقيقة، والتي ربما لا يلحظها الآخرون، ساعدها في ذلك إجادتها التامّة للغة العربية، وبصرف النظر عن (بيلي ولورانس)، فكانت (ميس بيل) الشخصية الأكثر نشاطا سياسيا للإنجليز في جزيرة العرب.

وقد كانت خبيرة بمجريات الأمور في القطاع الشمالي من جزيرة العرب، كما كانت تعرف العديد من شيوخ القبائل العربية، وكانت شخصية قادرة على تمييز عدوها من صديقها.



المساء في الجنوب العربي



استراحة القوافل



الصعود من الساحل إلى المرتفعات



السير إلى (الجول)



قوافل الجمال



البدو السيباني يغادر أماكن التجمع



استراحة البدو



التحية في الصحراء



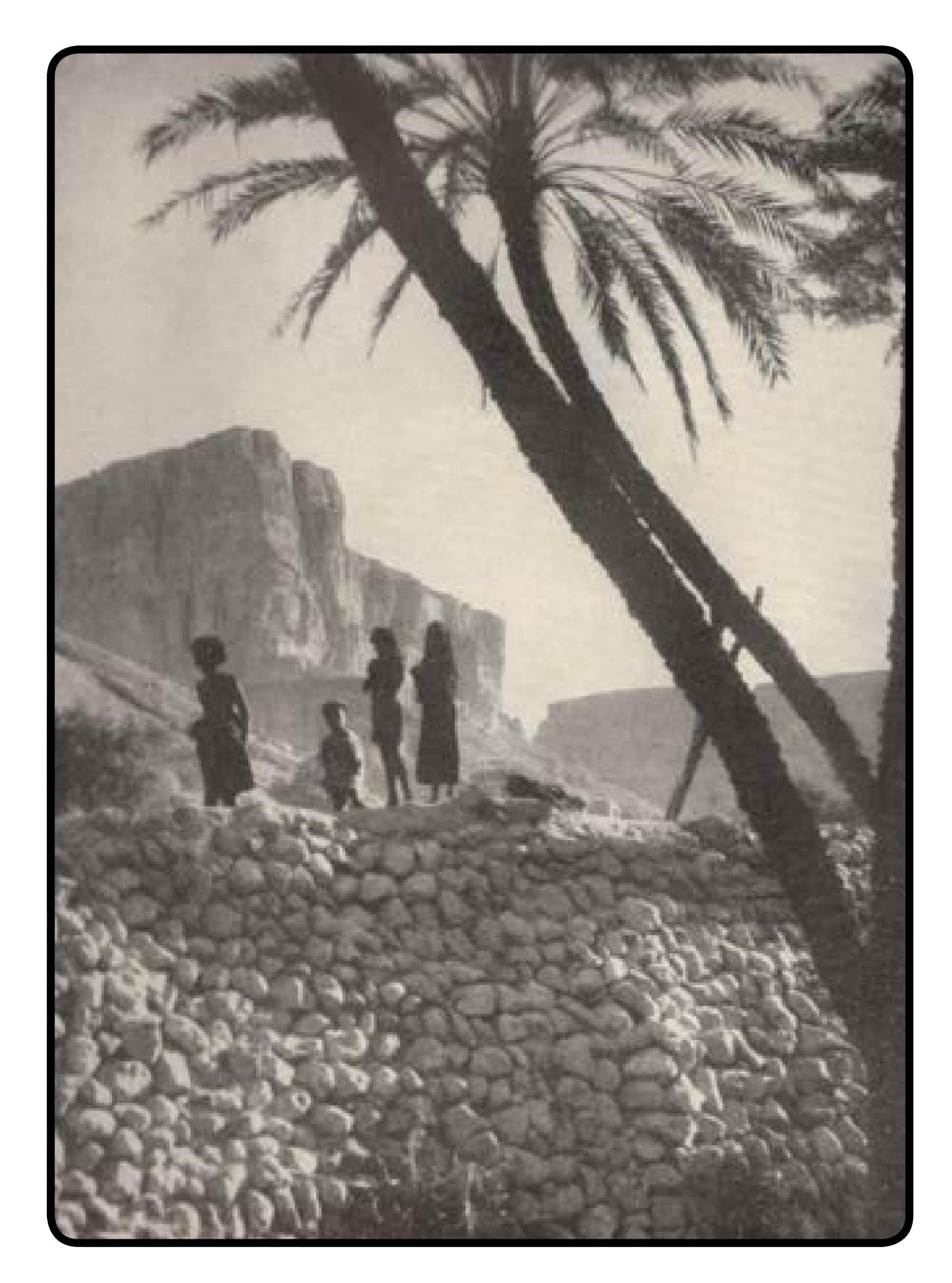
ذبح لحم الضأن



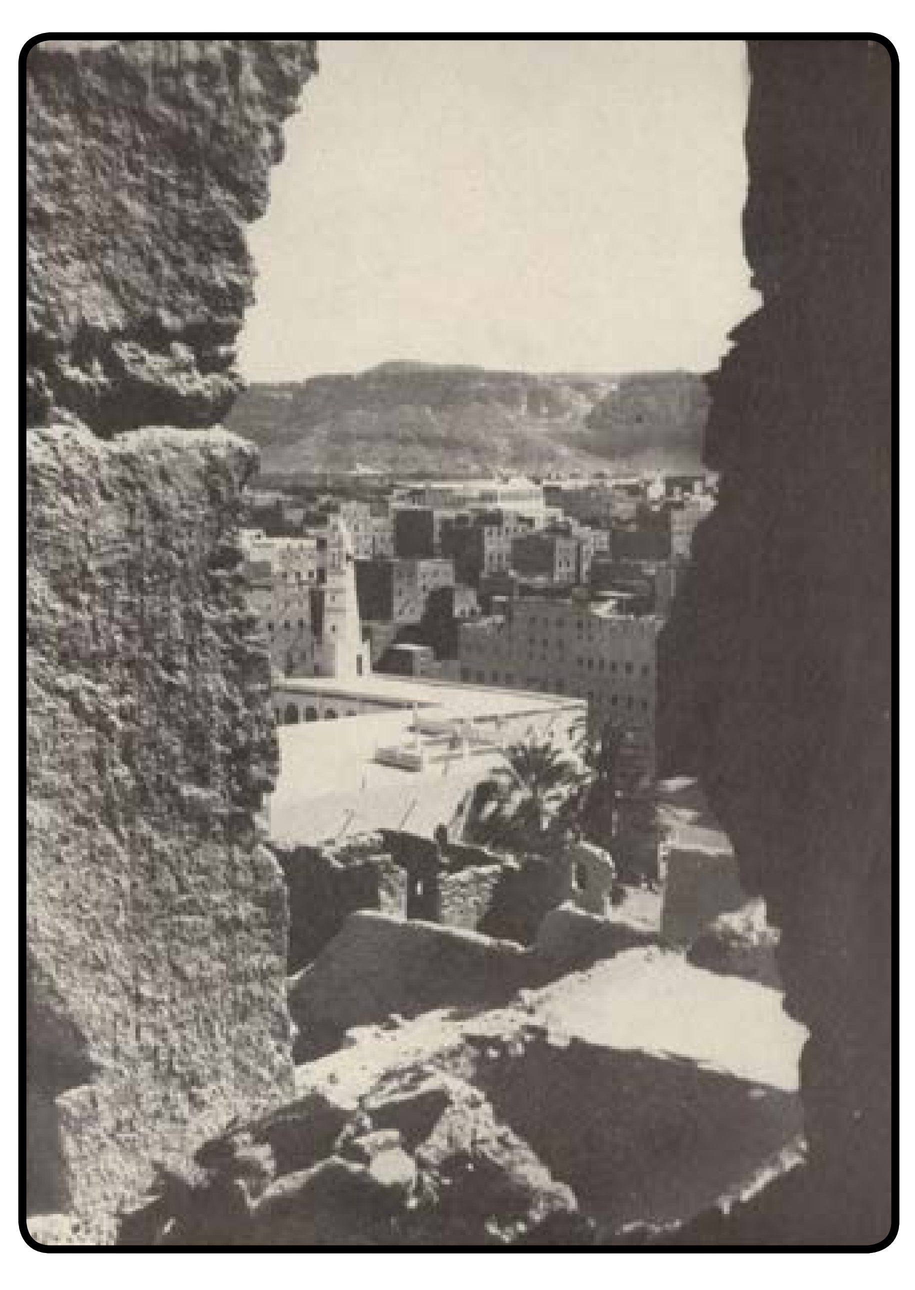
البدو أثناء تقطيع لحم الضأن



الشواء على الفحم



في وادي حضرموت



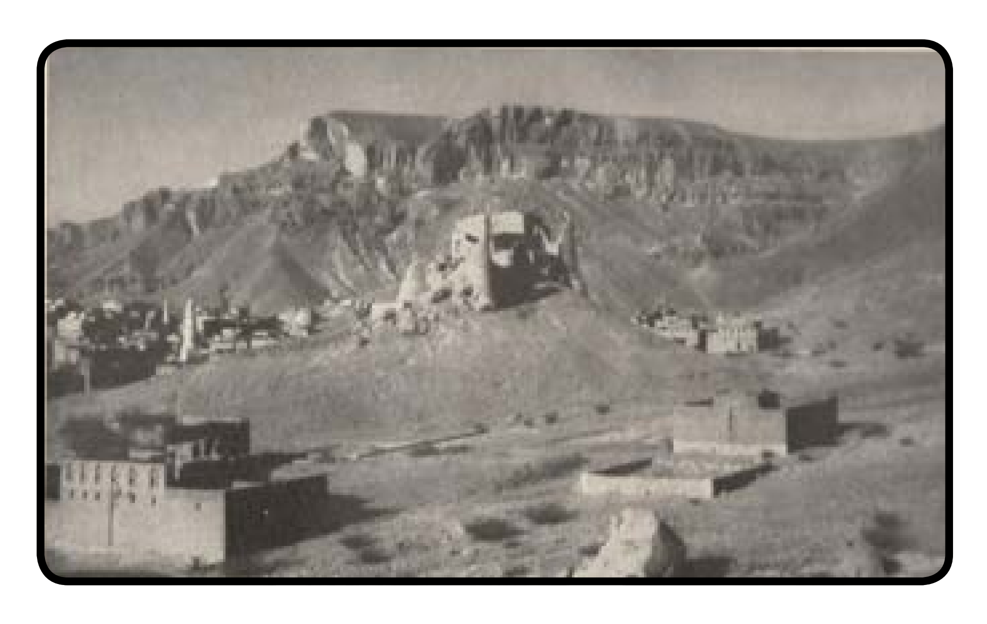
تريم



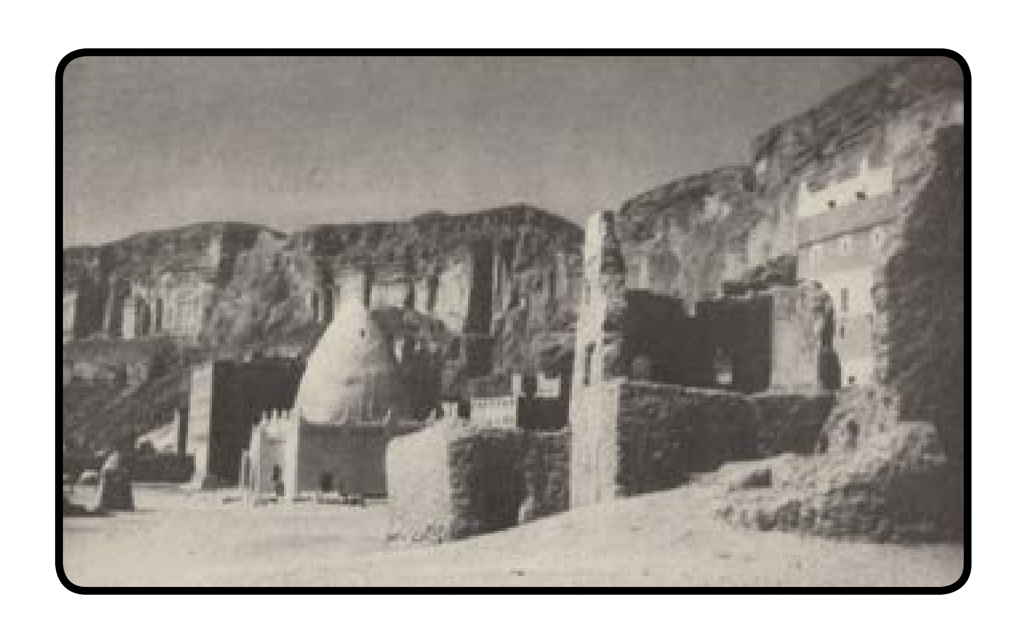
أماكن الدفن (القبور) في حُرْيضة



طرق الجير في تريم



القلاع القديمة في تريم



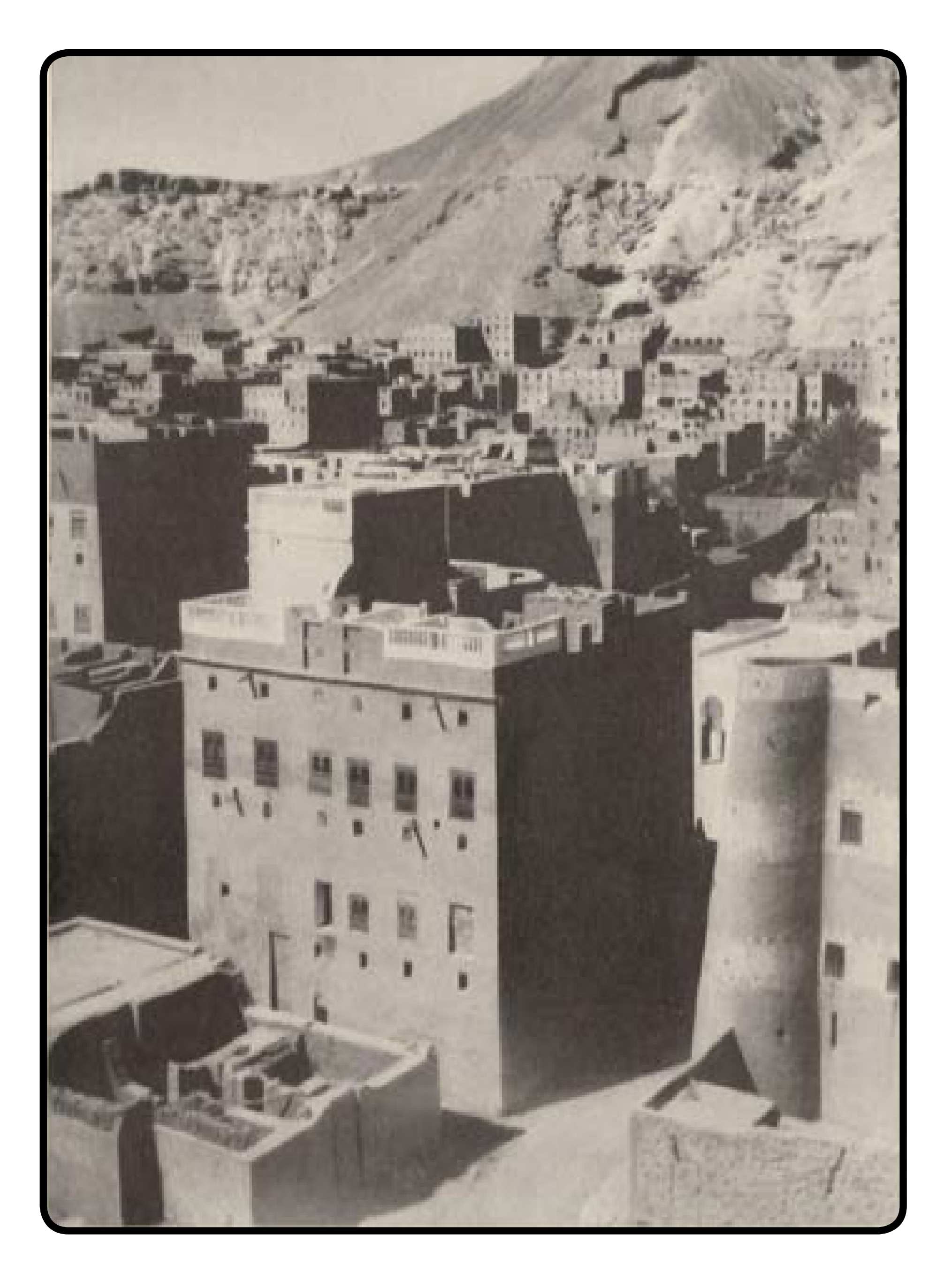
المباني السكنية (الطينية) على جدران الوادي



في ضواحي تريم



الضواحي



تريم



جري الجمال



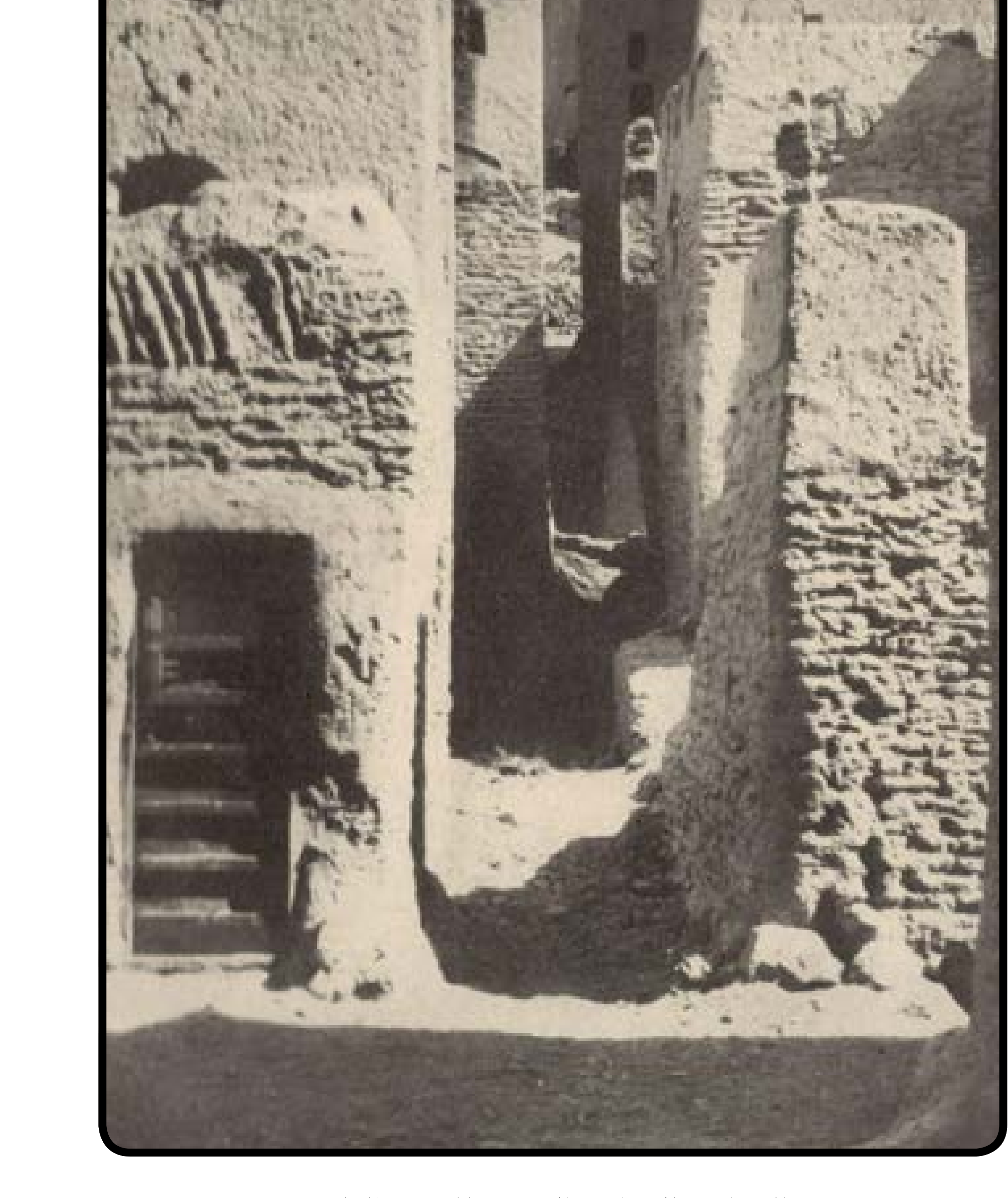
استراحة الجمال



أثناء الحرث



استراحة الغداء في الوادي



الشوارع (الحواري) الضيقة المبنية بالطين

وبذلك غدت (ميس بل) شخصًا لا غنى عنه في مكتب الشؤون الخارجية، وأصبحت اليد العليا للحاكم الأعلى ببغداد، وبفضل كونها عميلة سياسية استثنائية، استطاعت أن تكون همزة الوصل بين الإنجليز في العراق والقبائل العربية هناك، ويرجع لتأثيرها الفضل في تنصيب فيصل ملكًا على العراق، واستمرت في تسخير إمكانياتها لخدمة المكتب الإنجليزي للشؤون الخارجية حتى عام ١٩٢٦، إلى أن أنهكتها الجهود المضنية والحرارة الشديدة لصيف ذلك العام بالجزيرة العربية، فلاقت حتفها ووافتها المنية في بغداد لنفس العام.

ونلحظ بذلك أنه قد تغير وجه الجزيرة العربية كثيرا، فقد أخذت الإمبراطورية العثمانية في الضعف والوهن إبان الحرب العالمية، بينما خرجت بريطانيا من الحرب في أوج قوتها، فأرادت ألا تلعب الدور التركي في المنطقة فحسب، بل تفرض هيمنتها وسيطرتها مستقبلا على سائر بلاد جزيرة العرب، إلا أن رقعة بمثل هذا الامتداد والاتساع كان صعبًا السيطرة عليها، ومن الجدير بالذكر أنّ اتصال إنجلترا أثناء الحرب العالمية بشمال الجزيرة العربية، بالإضافة إلى ضيق الوقت، كانا قد أشغل إنجلترا فعليًّا عن الأجزاء الأخري من شبه الجزيرة العربية، ممّا أتاح الفرصة أمام عبدالعزيز بن سعود، لتقوية جبهته وفرض نفوذه وسيطرته بالتدريج على قلب الجزيرة العربية.

واتخذ ابن سعود مدينة الرياض، التي تقع في وسط شبه الجزيرة العربية عاصمةً لمملكته الناشئة ومقرًّا لحكمه الوليد، واعتُبر واحدًا من أبرز الشخصيات السياسية في مجتمع ذلك الوقت، وتعد قصة وصوله إلي الحكم نوعًا من أنواع المغامرات.

وقبل قرن ونصف كان كثير من الأمراء من أقرباء ابن سعود ومن آل سعود يملكون إقطاعيات ويحكمونها بشكل مباشر، ويقتطعون لأنفسهم مناطق صغيرة يحكمونها، وكان من تاريخ الصراعات التي احتدمت آنذاك أن أسرة ابن رشيد،

وهم خلفاء سلطان نجد، كانوا قد سيطروا على مقاليد الحكم في المنطقة، وقاموا بنفي بقية أفراد آل سعود إلى الكويت، وكان من بين هؤلاء الأمراء المنفيين أحد أبناء عبدالعزيز بن سعود، والذي قام في سن الرابعة والعشرين بدخول الرياض خفية، واستطاع أن يتسلل ليلاً إلى قلب المدينة، فقتل الأمير الذي ولاه ابن رشيد، ونصَّب نفسه ملكًا على نجد، وسرعان ما نمت قوته، وأخذت دولته في الظهور، حتى استطاع عام ١٩٢٥ أن يُحكم قبضته على أرض الحجاز، وبذلك ضمّت مملكته ما يزيد عن ثلثي مساحة الجزيرة العربية، وبذلك أصبح الحاكم الأقوى في بلاد العرب، نظرًا لأن مملكته كانت تضم أقدس بقاع الأرض وأقدس بلاد العالم الإسلامي، وهي مكة والمدينة.

أمّا الشريف حسين الحاكم السابق للمدن المقدسة، فقد كان يحلُم بتأسيس إمبراطورية عظمى، وهذا ما دفعه لمساعدة الحلفاء في الحرب العالمية، لكن حلمه هذا تبدد، وباءت خططه بالفشل، لاسيما بعد أن اعترفت إنجلترا بآل سعود.

سعت إنجلترا بعد الحرب إلى خلق مناخ في شبه الجزيرة العربية يتسم بتوازن القوى في المنطقة، ولذلك فقد عينت الشريف حسين آنذاك حاكمًا علي بلاد الحجاز، فكان الأنسب بالنسبة للإنجليز، وإن كان غير محبوب من قِبل العرب، وبعد النجاحات التي حققها ابن سعود في المنطقة، كان صعبًا على إنجلترا أن تواصل مساعدتها ومساندتها للشريف حسين، الذي ظلّ على عداءٍ دائم وخصومةٍ مستمرة مع عدوه اللدود ابن سعود، فقد بدأت طبول الحرب بين الملكين تدق، حيث بدأ الصراع حول الواحات المتفرقة في المنطقة، وهُزم الشريف شرَّ هزيمةٍ، ولم يلق أية مساعدة من قبل الإنجليز، فاضطر للفرار إلى ولده عبدالله في الأردن، نفاه الإنجليز بعدها إلى جزيرة قبرص، حتى مات هناك متأثرا بحزنه وحسرته.

وبوفاة الملك فيصل حاكم العراق، لم يبق لشبه الجزيرة العربية سوى حاكمين آخرين، بالإضافة إلى ابن سعود، هما: (عبدالله ملك الأردن) (والإمام يحيى حاكم اليمن).

ولمّا نشبت صراعات حول الحدود بين الإمام يحيى وملك السعودية على منطقة عسير الحدودية، واضطرت إنجلترا إلى التوسط لوقف النزاع، الذي يمكن أن يتطور من منطلق الخصومات القائمة بين كلا الأميرين، فقدمت اقتراحًا يقضي بعدم هجوم طرف على الآخر، مماثلا للذي كان بين ابن سعود والأمير عبدالله ملك الأردن، كما عُقدت المفاوضات والمباحثات بين الإمام يحيى ومندوب المملكة السعودية في العاصمة اليمنية صنعاء، إلا أنها لم تُسفر عن شيء سوى الحرب بين البلدين، التي بدأت نهاية شهر مارس ١٩٣٤.

وكان النصر على المنطقة الحدودية من نصيب ابن سعود، حيث نجح في محاصرة القوات اليمنية تماما، وسقطت بعض القبائل اليمنية التي احتمت بالوهابيين، إلا أن الإمام يحيى كان خصمًا عنيدًا، لا يمكن إثناؤه وتابع شراء الأسلحة والتجهيزات العسكرية من مصر وإيطاليا، وبينما كانت القوات السعودية قادرة على هزيمة اليمنيين على الأراضي المستوية، تكبّدت الكثير من العناء والخسائر في المناطق الجبلية الوعرة؛ فاليمن معروفة بالسلاسل الجبلية، والتي يبلغ ارتفاع بعض قِممها إلى قرابة ثلاثة آلاف متر، فكان قلب ووسط الدولة محميًّا كفاية بالحوائط والحواجز والتحصينات الجبلية.

رغم ذلك كان الإمام يحيى في وضع أكثر حرجًا، كلما واصلت القوات السعودية تقدمها، فلجأ إلى مراسلة دول العالم الإسلامي، للتدخل بمنع ابن سعود من متابعة التقدم، وأعلن في ذات الوقت بقاءه على رأس القوات للدفاع عن العاصمة صنعاء، حتى آخر قطرة دم.

إلا أن الحرب الدائرة بين الطرفين، كانت قد أخذت منحًى غير منتظر، فقد سارعت فرنسا وإنجلترا وبريطانيا بإرسال قواتها إلي الحديدة، لحماية الأجانب المتواجدين هناك، وبنفس الحجة، استقدمت إنجلترا سربًا من طائرتها المقاتلة الموجودة في عدن إلى الحديدة، بالإضافة إلى فرقةٍ بوليسة قد وصلت من عدن، لمساندة قوات الشرطة بالحديدة.

وبهذا الانتصار الساحق لابن سعود على غريمه إمام اليمن، مما جعل إنجلترا في موقف صعب، فقد أضحى ابن سعود تقريبًا الحاكم الوحيد في شبه الجزيرة العربية، في الوقت الذي لاقت إنجلترا مضايقات ليست في المنطقة الحدودية لعدن فقط، وكان مندوب ابن سعود في لندن، قد أعلن عدم المساس بعدن، الكائنة تحت الحماية البريطانية، شريطة ضم اليمن إلى الإمبراطورية الوهابية.

كان ابن سعود من ناحية أخرى مدركًا تمامًا لحجم الخطر الناجم عن تدخل الدول الأوروبية في الحرب، فأرسل مذكرة سلمت للدول المعنية بهذا الشأن، مفادها أن الصراع سيندلع بين دولتين إسلاميتين، مؤكدًا أنه ليس لدولة مسيحية الحق في الانخراط في الحرب العربية (المحمدية) بأي حالٍ من الأحوال.

وبدأت نار الحرب المشتعلة بين الأطراف العربية تخبو شيئًا فشيئا، والتي بدا أنها قد تطول كثيرًا، لاسيما بعد تصاعد الأحداث وبعد التدخل العسكري لابن سعود في بلاد اليمن، إلى أن تمّت اتفاقية الطائف للسلام والأخوة العربية عام ١٩٣٤ بين اليمن والسعودية، ومن ثمّ أصبح أعداء الأمس أصدقاء اليوم. وتذكر المرء أخيرًا، أنه طالما يجمعهم دين واحد ورب واحد، فعليهم أن يعيشوا معًا في سلام مستقبلي دائم، وأن يكونوا يدًا واحدة في وجه التكتلات والهجمات الخارجية، لكن اليمن ظلت في الحقيقة شبه تابعٍ لإمبراطورية آل سعود في شبه الجزيرة العربية السعودية.

أُمليت اتفاقية الطائف على الإمام يحيى، وكان عليه أن يقبل بها، رغم بعض الإجحاف في بنودها.

وطالب ابن سعود بعد ذلك بأنه على القوات اليمنية الانسحاب من منطقة عسير الحدودية، والتي سبق لها أن استسلمت للقوات السعودية ولم يلق الإمام أدنى سرور من ناحيتها، ومن الجدير بالذكر أنها كانت منذ زمن الأدارسة، تُدار من قِبل ثلاثة أمراء أدارسة، كان ينصبون العداء للإمام، وهم يترنحون هنا وهناك، وقاموا بالتمرد ضده، وإعلان الولاء لابن سعود، إلا أن الأمر لم يطل، حتى ضيّقت السعودية عليهم الخناق، وضاقوا ذرعًا بهذا الاضطهاد، ومن ثمّ لجأوا إلى اليمن من جديد، طالبين الحماية من عدوهم القديم الملك يحيى، إلا أنه بموجب الاتفاقية الموقعة بين السعودية واليمن، كان على ملك اليمن تسليم هؤلاء الخونة إلى الحكومة السعودية، الأمر الذي لم يَسَع الإمام يحيى رفضه، كما نصّت الاتفاقية على إجلاء القوات السعودية من الحديدة، وإعادتها إلى اليمن مقابل حصول السعودية على نجران، التي كان قد استولى عليها الأمير أحمد نجل الإمام يحيى قبل عام تقريبًا، وقد عايشتُ مراسم احتفال النصر هذه بنفسي في صنعاء.

فكون أنه كان هناك تأثير غير عربي خلف معاهدة (اتفاقية) السلام فهذا أمر لا يمكن القبول به، حيث لم يكن هناك وقت هذه الإجراءات الأمنية الأوروبية في الحديدة إلا قاطن إنجليزي واحد وثلاثة إيطاليين، ولم يكن هناك فرنسيون على الإطلاق، وهذا الذي تم الوصول إليه من تلك اللحظة هو بالتالي بمثابة فصل واضح ما بين الجزيرة العربية السعودية واليمن.

وكان هذا الاتفاق بمثابة ترسيم واضح للحدود بين البلدين، وهكذا أخذت أهمية ابن سعود ونفوذه في المنطقة في التزايد والتصاعد، خصوصًا بسعيه إلى إحياء فكرة القومية العربية والوحدة الإسلامية، وكلما ذُكرت الفكرة، ذُكر ابن سعود،

رغم بعض نداءات التشكيك، وحازت شخصيته نقدًا أو تأييدًا على اهتمامٍ إعلامي كبير، لاسيما في بلدان العالم العربي والإسلامي، كما أكّد هو بنفسه أكثر من مرة، أن هذه الفكرة كانت تميمة حظّه، وأنه لم يكن أبدًا يسعى لأن يكون الحاكم الأعلى والملك الأوحد على أراضي جزيرة العرب، كما يدّعي البعض، وإنّما كان مطمحه الوحيد هو توحيد الجزيرة العربية، وأنه سعيد بما حققه في سبيل ذلك، وبما أنجزه بغية تحقيق هذه الغاية، وفي سبيل الوصول لهذا الهدف؛ ولهذا كثرت مساعي السعودية لتحسين العلاقات مع جيرانها، وحل الخلافات بالطرق السلميّة، وتوطيد أواصر الصداقة والأخوة بين دول المنطقة على حد سواء، وكان من أبرز الأحداث السياسية اللاحقة المتعلقة بهذا الشأن إبرام اتفاقية عام ١٩٣٦ بين العراق والسعودية، والتي تمّ توقيعها في العاصمة العراقية بغداد، وكان من أهم أهدافها تعزيز التعاون المشترك بين البلدين، وحل النزاعات بينهما بالطرق الودية كما حدث سابقًا مع دول أخرى كاليمن، وهذا كل ما قيل عنه.

الآن ننتقل إلى الحديث إلى محور اهتمام هذا الكتاب، فنتحول إلى الجزء الجنوبي من الجزيرة العربية، حيث تقع حضرموت، تلك المنطقة ذات التضاريس الجبلية الوعرة.

عند سلطان المكلا

عن طريق الصدفة تعرّفت على السلطان عمر بن عوض القعيطي[1]، الحاكم لمقاطعتي المكلا والشحر بحضرموت المطلتين على المحيط الهندي، وحدث ذلك في شهر يوليو من عام ١٩٣١، وكنت قد ذهبت مرة أخرى إلى مكتب وزارة الخارجية في برلين، لكي أستعلم عن العلاقات بالمنطقة الجنوبية لشبه الجزيرة العربية، وهناك علمت أن سلطان المكلا قد قام برحلة إلى أوروبا، نزل فيها بفندق «أدلون» لمدة يومين.

وقال لي رجلٌ: اذهب إليه، فإن هذا السلطان سيعطيك أفضل ما تحتاج إليه من معلومات.

ولقد حظِيَت خططي على اهتمام من جانب السلطان، لذا قدّم لي دعوة أنا وصديقي (يان بوموريسكي) إلى ساحة قصره، وهنا كانت بداية رحلتي إلى جنوب العرب، ولم يكن لدي تصريح مباشر لزيارة المناطق الريفية لجنوب العرب، لذلك دخل سلطان المكلا في اتصال مباشر مع حكام الممالك العربية المستقلة، واستطاع أن يتوسط لي بدخول هذه المناطق.

وتقابلت مرة أخرى مع السلطان في عدن، الجزيرة الصغيرة للثقافة الإنجليزية الواقعة على المحيط الهندي، وعلى باخرةٍ صغيرة خاصة لأحد الهنود الأثرياء المحترمين، تدعى «كويسه دنشو» أبحرنا إلى المكلا، وكان لهذا التاجر الحق في

---

(١) لقد توفي السلطان عمر في مطلع عام ١٩٣٦، وسُلّمت سلطنته لابن أخيه من بعده. (المؤلف).

المرور الساحلي بأسطوله الصغير من عدن إلى الموانئ اليمنية العربية والشحر والمكلا والصومال، وكذا إلى الأماكن الصغيرة الواقعة على السواحل الشرقية بأفريقيا حتى جزيرة زنجبار، لأنه يشارك هو وباخرتان آخرتان في منافسة بشركة «البس».

وفي عدن يوجد مستعمرة كبيرة لتجار هنود، نظرًا لأنها ميناء حر، وأرض مواتية للتجارة، وعما إذا كانت أنها تُعتبر المدينة الأدفأ على وجه الأرض، فهذا ليس صحيحا، حيث إن موانئ البحر الأحمر أكثر دفئا، وذات جو رطب لا يحتمل، على العكس من ذلك فإن رياح نسيم البحر منعشة وتهب حاملة نسبة ضئيلة من الرطوبة، فالمناخ صحي وخالٍ من الملاريا.

وعلى غرار مدينة بومباي يوجد في عدن أيضا أبراج الصمت وكذلك أبراج الموتى الفارسيين، وفيها تُقدم جثث الموتى للنسور لكي تأكل لحومها، ولاحظ ذلك الأجانب الذين قاموا بزيارة قصيرة إلى أقصى شرق عدن يسترعي انتباههم بالكاد هذا المشهد، وتقع إحدى هذه الأبراج التي يحرسها الكلاب المتوحشة على قِمّة تلّة مرتفعة، وعندما يُتوفّى أحد الفارسيين، يوضع على سفح الجبل عند تشييع جثمانه كلبان، أحدهما أبيض اللون والآخر أسود اللون، راكضين على جرف منحدر، فإن وصل الكلب الأبيض أولاً، دلّ ذلك على قبول موته في السماء (أي دخول الجنة)، وأمّا إذا وصل الكلب الأسود أولًا، فهو إلى الجحيم.

وتحاصر المدينة سلسلة جبلية، وفرجة واسعة -تبدو خلالها السماء الزرقاء كعين هائلة- تُمثّل حلقة الوصل بين قلب المدينة ومرفأ «ستيمر بوينت»[1]، الذي ترسو فيه باخرتنا الصغيرة «فيلهو». وعلى الفور نُقلت أمتعة السلطان من حقائب وصناديق بلا عدد وكذلك سيارة جديدة تحت إشراف خَدَمِه الهنود، كما تواجد على ظهر الباخرة ركاب السطح، وهم حشد كبير من العرب، بينهم أناس بالغو الثراء، وكانوا يمثّلون عائقًا مستمرًّا، لعملية الشحن المثيرة، وكانوا يحتشدون إمّا

(١) ميناء التواهي.

على سطح السفينة أو في جوفها، حيثما وجدوا مكانًا، آخذين معهم زادهم، إذ كانوا لا يحتاجون إلا النار وماءً للشرب، أمّا سطح الدرجة الأولى، فقد قُسّم بقماش الشراع إلى قسمين: النصف الأول خُصّص للسلطان، والثاني لنا، إذ لا يمكن لأحد أن يحتمل البقاء داخل الكابينة الضيقة تحت وطأة الحرارة الاستوائية، غير أنهم كانوا قد جهزوا لنا السطح أيضا، فوضعوا للسلطان مضجعًا كبيرًا مفروشًا بالحرير، ولنا مضاجع مريحة قابلة للطيّ.

وبدأت رحلتنا، التي استغرقت يومين إلى المكلا في صباح غرة أكتوبر، برفقة السلطان وأتباعه على متن سفينة -كنّا تواجدنا فيها نحن والمسافرون الآخرون منذ المساء- ومررنا بمرتفعات رأس الكلب الواقعة على السواحل الجنوبية العربية المنحدرة، التي عُرفت فيما بعد بصخرة الجزيرة الوعرة، جزيرة العصافير، الغير معروفة على الخريطة، وشاهدنا البيوت ومزارع النخيل لمدينة بروم الصغيرة، حتى وصلنا إلى مبتغانا (المكلا) في صباح اليوم الثالث.

وتقع المكلا على أحد الخلجان الساحرة، بالقرب من الجدار الصخري الأسود لجبل الكور؛ فهي مدينة بيضاء مشرقة غاية في الجمال، يُزينها الكثير من الأبنية والأبراج المرتفعة، فهي مدخل لإقليم حضرموت.

مكلا اليوم لديها احتفال كبير، إذ يرجع السلطان من رحلة طويلة، ونحن ضيوفه، ولم نُغادر السفينة بعد، حتى شاهدنا الأعلام المُزينة ساطعة على مرسى المكلا تحت هذه الشمس الاستوائية، وسرعان ما اقترب منا زورق صغيرٌ يحمل أناسًا ذوي هيئات مخيفة مع زوجاتهم (حورياتهم)، وتسلّقوا عبر الممر الضيق على متن السفينة كالقرود، وحيّوا سلطانهم بأصوات مرتفعة، كما استقبل الوزراء وأبناؤهم السلطان الذي كان يرتدي رداء مطعما بالذهب على جسر المرفأ، وصعدنا جميعا الزورق الذي أبحر وكان مفروشا بسجاجيد فخمة قاصدًا اليابسة، وعند مكان

النزول في الميناء العريض اجتمع عدد هائل من الناس، منهم مَن هو من سكان البدو شبه العاريين، ومنهم مَن هو من سكان الجبل ذو الشعر الطويل المجعد، وذو البشرة السوداء -وكل من هو طاعن في السن حتّى سن السادسة من الصبيان يحمل خنجره المُزخرف والمُنحني في الحزام- وقام الجنود بإرجاع هذا الحشد إلى الخلف، حيث كان مندفعا بكثافة حتى جدران أرض الميناء، ولم يتجرّأ أحد منا على أن يخطو خطوة واحدة إلى الأمام من هول هذا المشهد المبهر، ومن العدد الهائل الجامح من الناس.

وبدأت مراسم الاحتفال لاستقبال السلطان بفرقةٍ موسيقية تعزف بصوت عالٍ مثير، وكذا مارشات عسكرية تركية، وكان الموسيقيون بزي موحد أحمر بطرابيش حمراء، وقلّل السلطان من عدد موكب جنوده، الذي كان يتواجد من بينهم أيضا الزنوج، فهؤلاء هم جنوده (قواته)، قوامهم حوالي خمس مئة رجل بعضهم من العبيد.

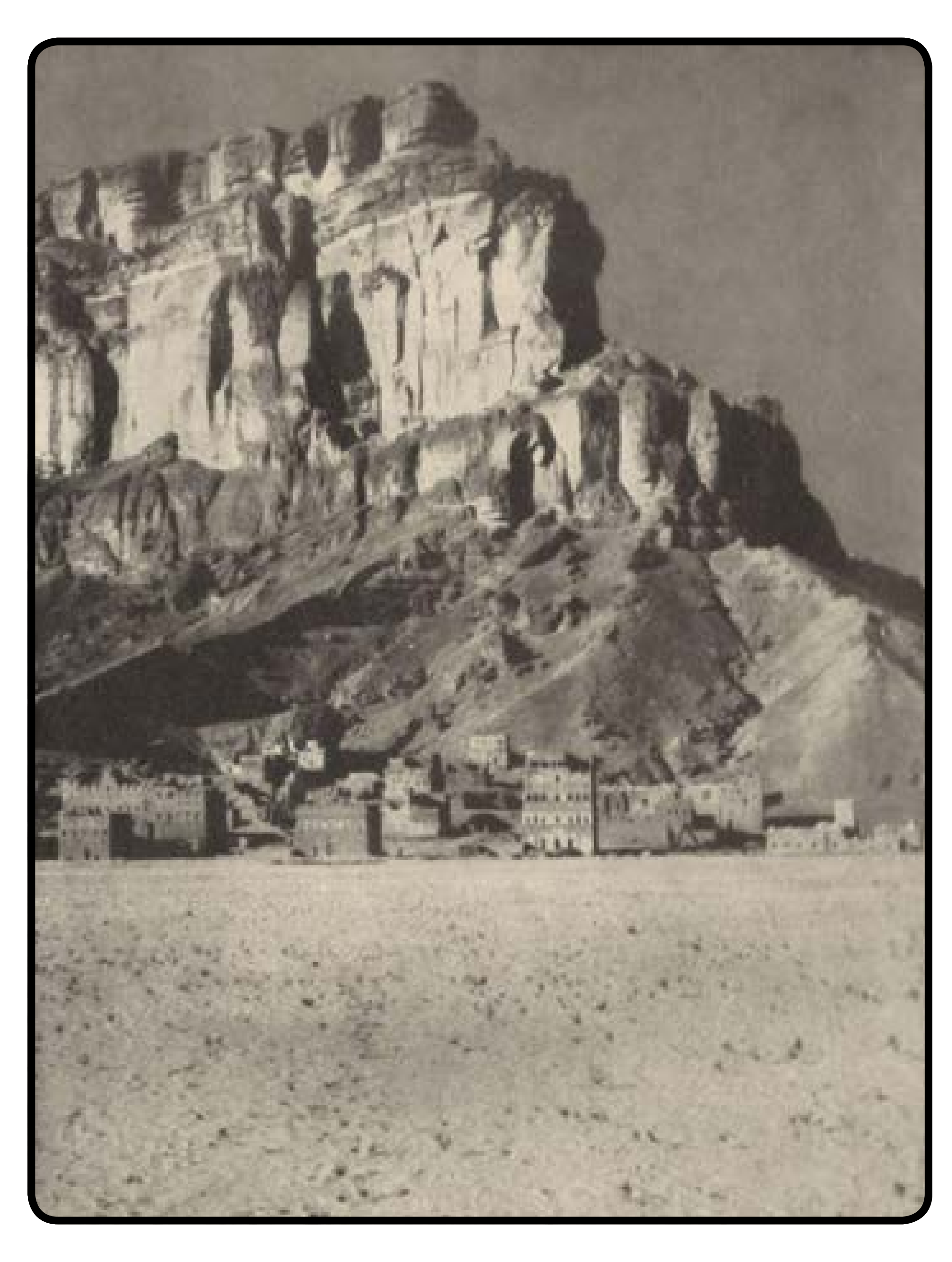
لا تزال مسألة الرقيق -من الذكور والإناث- مألوفة حتى وقتنا هذا في سواحل الجنوب العربي، فسكان المناطق الساحلية في اليمن والحجاز يغلب عليهم العرق الأسود بصورة كبيرة. زوارق من المدفعية الإنجليزية تتعقب تجار العبيد، والبواخر التي تقبض على أحد مراكب تجارة العبيد تحصل على مكافأة كبيرة، لكن التجار العرب لم يرتدعوا، إذ يحاولون دائما وأبدا جلب هذه البضاعة السوداء الرائجة الغالية بطرق خفية من أفريقيا إلى الجزيرة العربية، دوس[١] هو الاسم الذي يطلقونه على المراكب الشراعية العربية التي يعبرون بها إلى الساحل العربي، خصوصا في فترة اشتداد العواصف التي تبدا في أواخر الخريف، وعند مداهمة أحد صيادي

---

(١) قد يكون هذا الاسم مأخوذا من قبيلة (دوس) اليمينة. (المترجم).

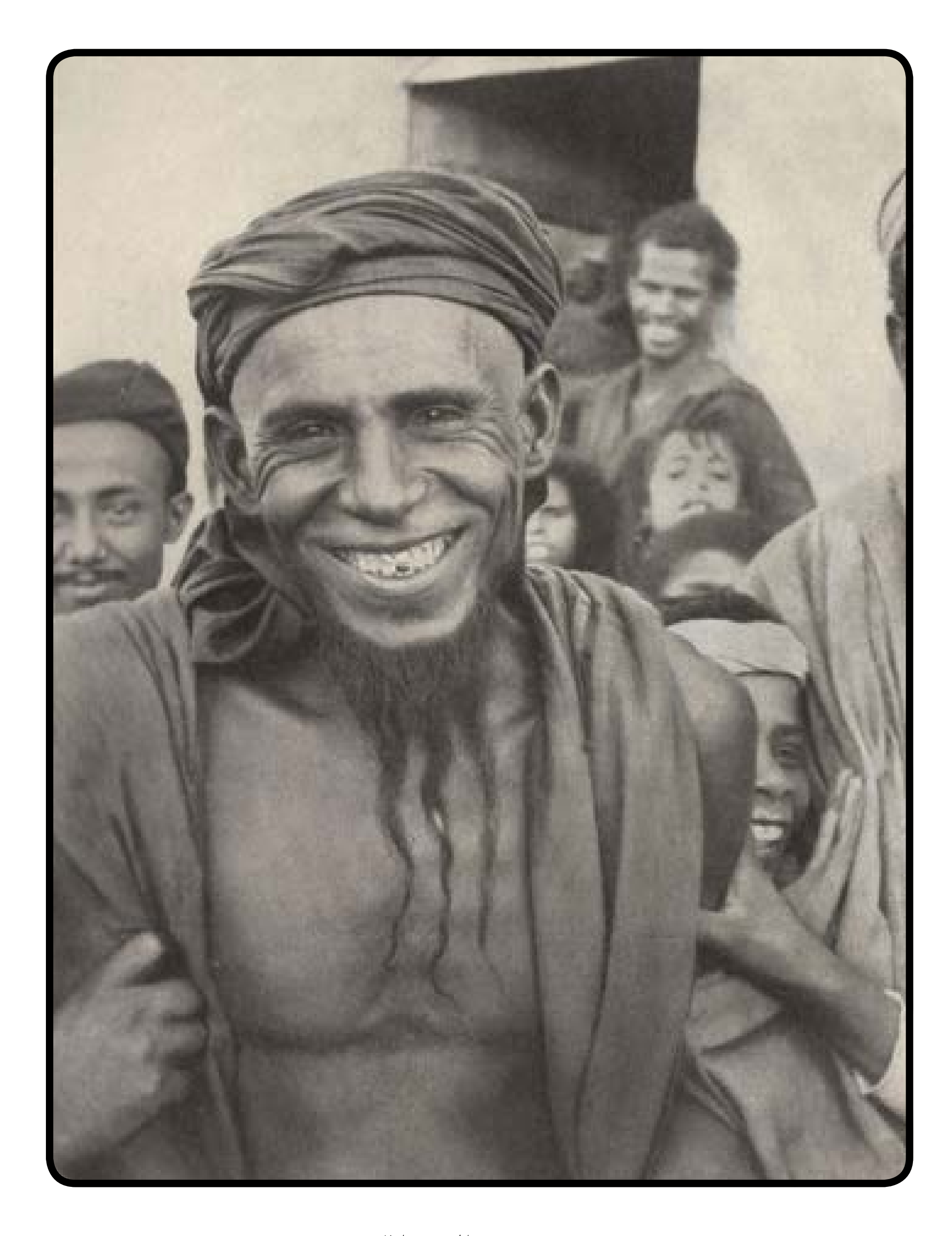
العبيد فإنه يتخلص من حمولته بسهولة، فيقذف بها حية من على ظهر المركب لتسقط من الفور فريسة لأسماك القرش، وأما إذا ما ضبطت شحنة من السود، فغالبا ما تتعذر إعادة هؤلاء الذين ولدوا في قرى متباعدة وقبائل مختلفة إلى مواطنهم، لأنهم أنفسهم لا يستطيعون أن يبينوا أين يوجد موطنهم بالضبط (بسبب الفوضى المتواجدة في موطنهم).

وتتراوح أسعار العبيد من خمسين إلى تسعمائة مارك، فالصوماليون والحبشيون تبلغ أسعارهم خمسمائة مارك، ويأتي النوبيون في المرتبة الأعلى سعرًا، فمن أجلهم يدفع المرء تسعمائة مارك. وفي العموم يُعامل العبد معاملة حسنة، حيث يحصل على المأكل والمسكن، وعليه أن يُلبّي أعمال سيده، وقد يُكافأ بعضهم بمناصب فخرية (شرفية) خاصة، فيحظوا بالثقة لدى سيدهم ووزراء السلطان، وقد يتبع ذلك أن يصبحوا أحرارًا.

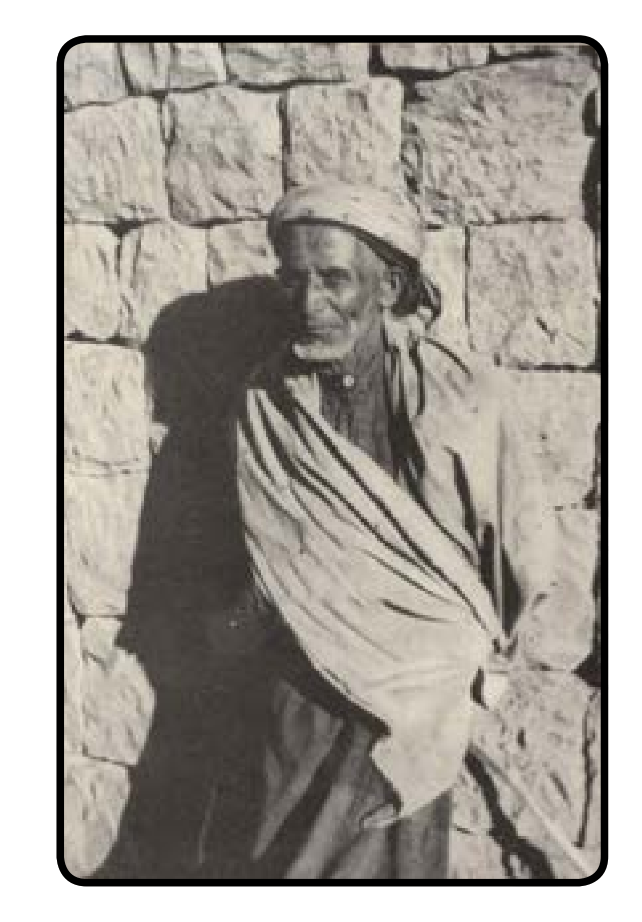


انحدار جدار الوادي في حضرموت

بدوي من الحوطة

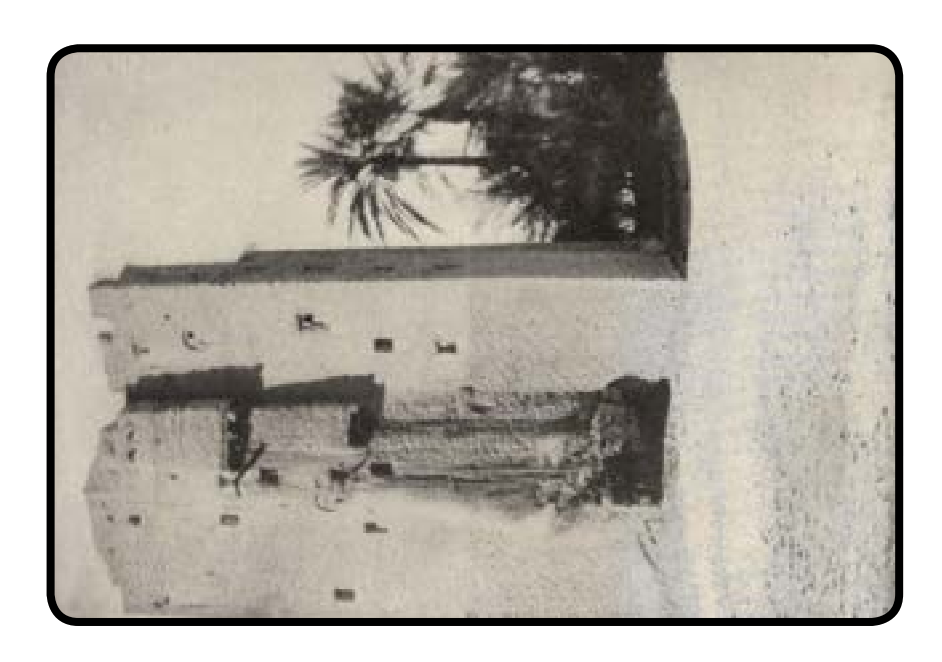


بدوي من الحوطة





بدويان من مرتفعات اليمن



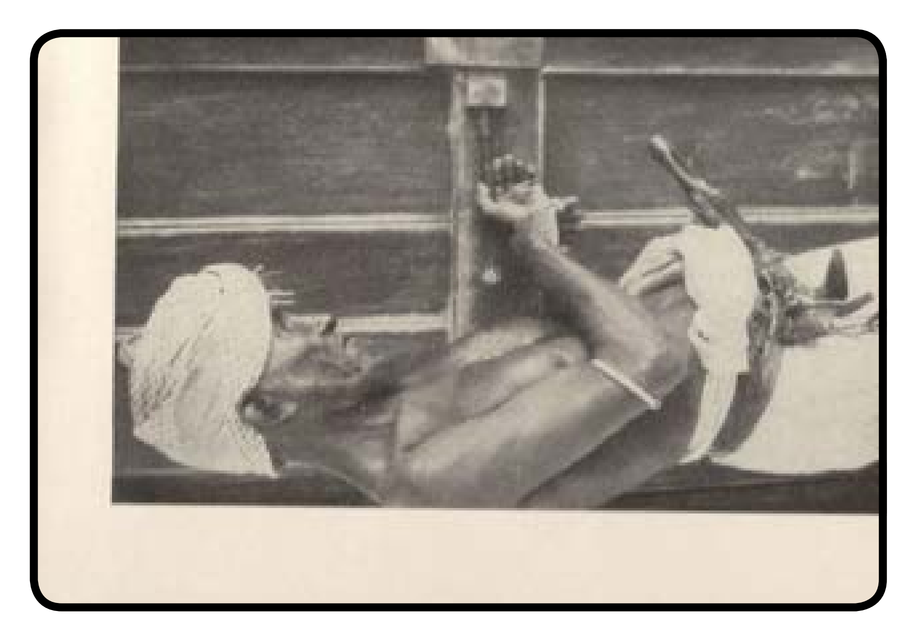
المباني الطينية بنظام الصرف الصحي



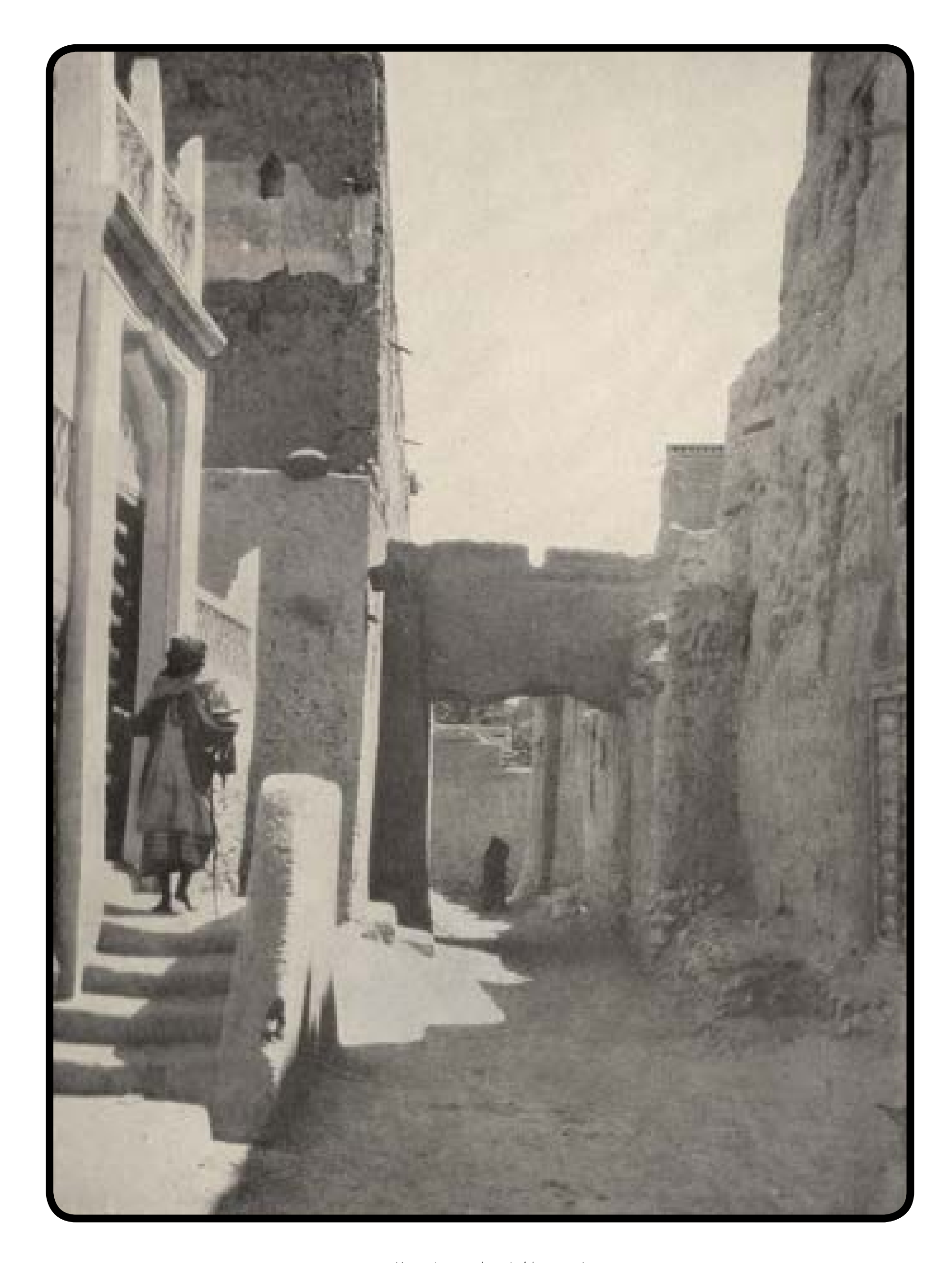
مدخل أحد قصور حضرموت



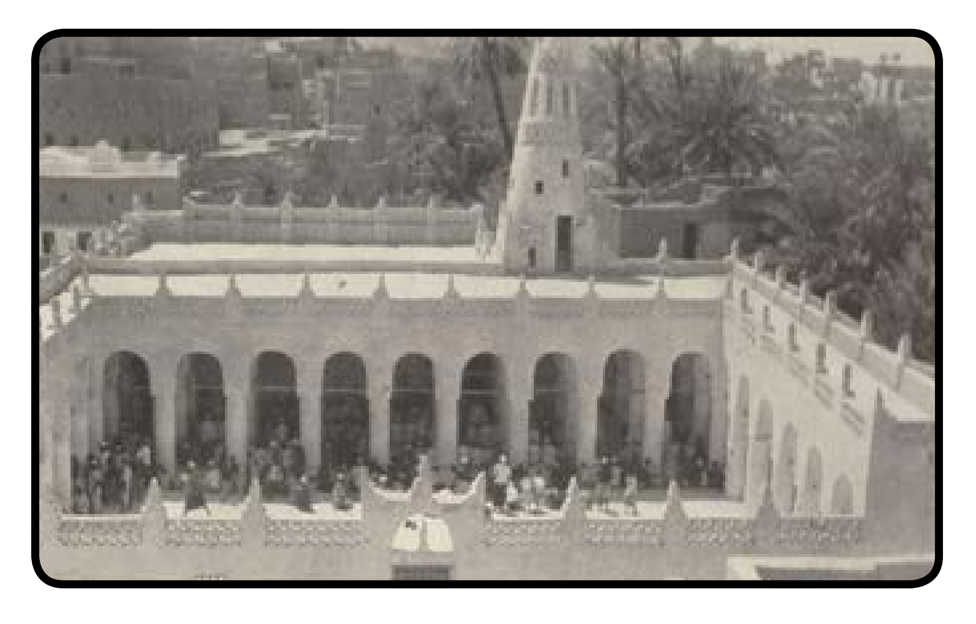
أشكال أبواب البيوت في حضرموت



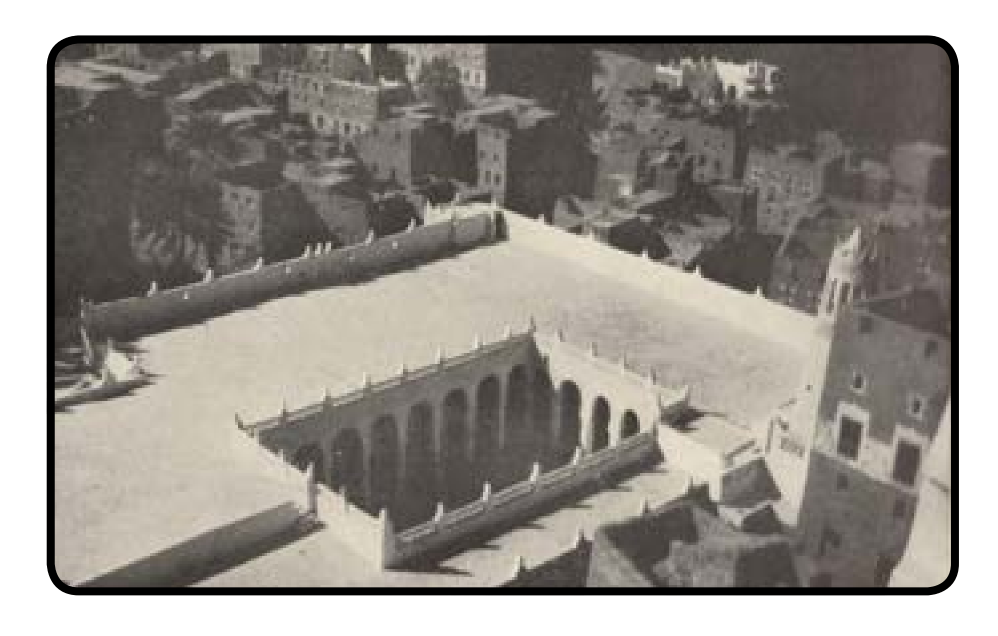
أشكال الأقفال في أبواب البيوت



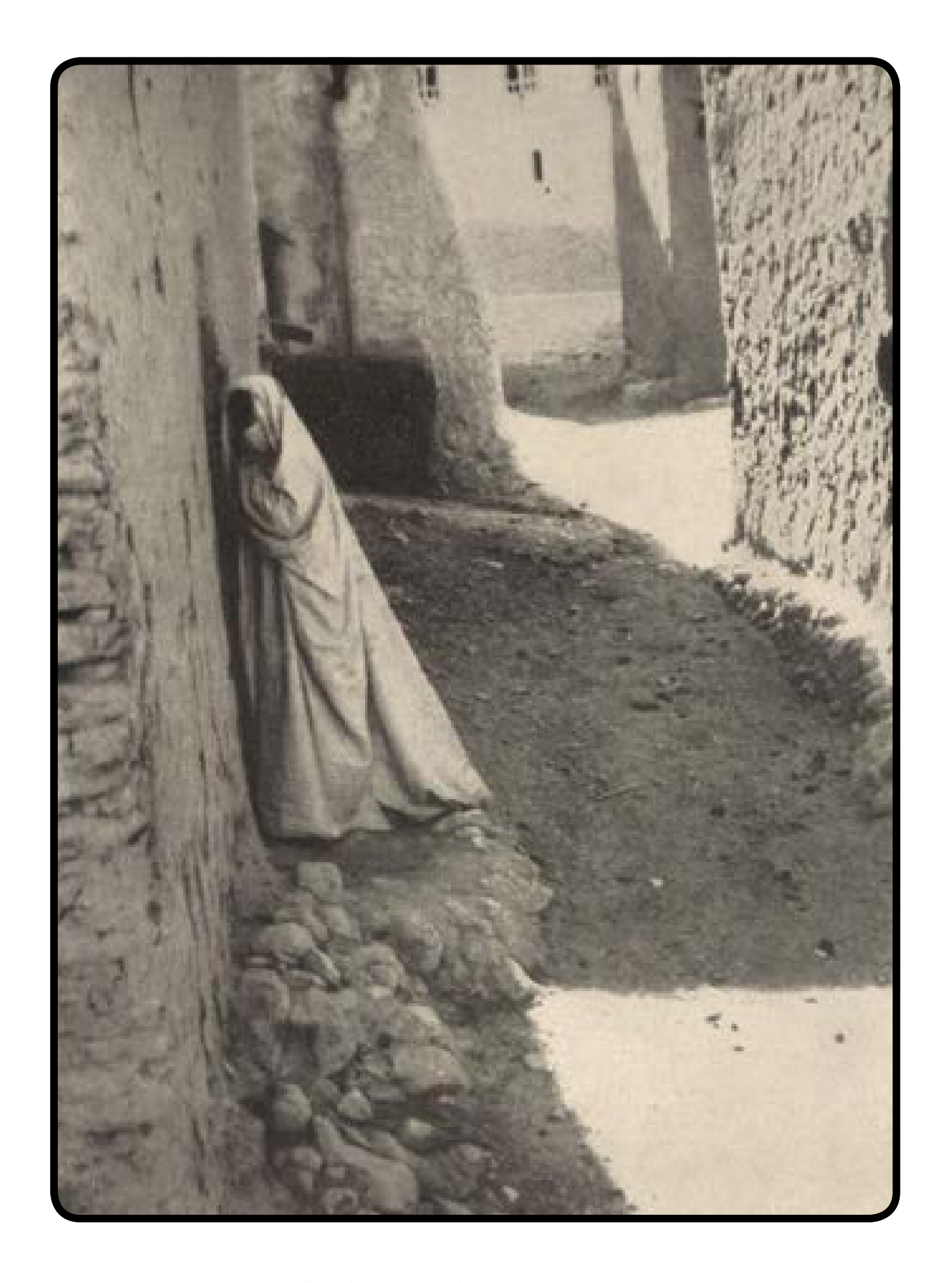
مشهد الشوارع في تريم



في مسجد آل قعيط



مسجد سيئون



حضرموت المدينة الفاضلة (النبيلة)

وتتواصل الاحتفالات في المكلا بعد ذلك.

وقام الأمراء والسادة والوزراء وشيوخ البلد بتحية السلطان مرة أخرى أمام أعين الجميع تحية خاصة بجنوب العرب، واندفعوا بسرعة البرق واحدًا تلو الآخر من الخلف إلى الأمام، منحنين بالجزء العلوي من الجسد أمام السلطان، متشابكي الأيدي مهللين بأصوات عالية، لكن سرعان ما سحبوا أيديهم عن بعضهم البعض. وترجع هذه التشريفة باليد إلى إيمانهم بأنهم أتباع محمد مباشرة، فيُشتم منهم جميعًا سادة ونبلاء رائحة القداسة.

وأثناء احتفال الدخول إلى المدينة تتغنّى النساء على أسقف المنازل بأنشودة نادرة، وكأنها زغاريد عالية النبرة، كما لو كان المرء في حفل زفاف يسمع في سائر المنطقة العربية كلها، ويهتف الجميع لسلطانه عمر بن عوض القعيطي، وهو على رأس موكبٍ فاخر، أثناء مروره بشوارع المدينة الضيقة حتى يصل إلى ساحة قصره.

ولقد تمّ تشييد قصر السلطان -الذي صمّم خطط بنائه بنفسه- والذي يقع مباشرة على البحر، على طريقة الطراز الهندي، وفي قاعة الزيارات المفروشة بالسجاد الفاخر يوجد العديد من الكراسي الأوروبية ذات الذراعين، لكن وفقًا للعادات والتقاليد القديمة يتناول المرء الطعام على الأرض وعلى حصيرٍ من القش، حيث يوضع الكثير من الأرز واللحوم وجوز الطيب والدجاج والسمك والخبز، وقبل أن يدخل الضيوف إلى حجرة المائدة يجلس السلطان في منتصف الحجرة على الأرض، ويطلب منا أن نجلس بجواره، ويُقطع السلطان اللحم بيده، ويضع لكلٍّ قطعة لحم في طبقه، وعلى الآخرين القيام بخدمة أنفسهم، حيث لا يوجد شوك وسكين، ويتناول المرء الطعام بيده اليمنى، وبمرور الوقت نتعلم أيضا الخدع العجيبة، وفيها أن يقوم المرء بتشكيل زرات رائعة من الأرز وإضافات متنوعة أخرى دون أن تلتهب أصابع اليد، ويحدث هذا بشكل سريع، فبمجرد أن

يَشرع المرء في الأكل، يقوم العرب ببلع كميات كبيرة جدًّا من الطعام، ناظرا حوله باحثا عن المساعدة: ماذا يصنع الآخرون إذا ما أشار السلطان برفع الطعام وانتهاء الوجبة، ومن ثمّ تندفع الحاشية ذات العدد الهائل إلى الأرض وتأكل ما تبقى منهم، وهو ليس بالقليل.

أما عنا فقد حصلنا من السلطان على قصر ليكون تحت تصرفنا تماما؛ فهو كبير حقا، أبيض اللون وأسطوري الشكل، تتوسطه حديقة جميلة محفوفة بشجر الموز والنخيل، كذلك لا ينقصه الخدم والجنود أيضا، فالسلطان الحقيقي (الحكيم) هو الذي لا يترك ضيوفه بمفردهم، فهناك جنود أمام مدخل الحديقة، وجنود أمام المنزل أيضا، يقدّمون التحية لنا في كل مرة نمر فيها عليهم، وفي نفس الوقت سخّر لنا جنودًا يحرسوننا ويوقظوننا، لأن حضور الأوروبيين يُمثّل نُدرة كبيرة لهذه المدينة، والاهتمام الذي يُثيره المرء عند الخروج، غالبًا ما يضعه في موقف صعب.

لقد مكثنا ثمانية أيام حقا في هذه المدينة، عيد يتبعه آخر، وزيارات من السادة والأمراء والوزراء لا تنتهي، هذا بالإضافة إلى أن سادة القوم وأشرافهم، ذوي الوجاهة والعراقة من سلالة الأمراء في جنوب العرب يرجع نسبهم إلى النبى محمد مباشرة. وتُعتبر عائلة السيد آل الكاف الأكبر والأغنى في جنوب العرب بالكامل، فسادة الكاف هم السكان الأصليون لأجزاء من حضرموت، التي تقع تحت تأثير كبير تحت الإدارة العليا الإنجليزية، كما إنهم يمتلكون شركات كبيرة في سنغافوره وجاوا ذات أموال طائلة تزيد عن مليون جنيه استرليني، بالإضافة إلى قصور رائعة في مكلا والشحر، واستطاعوا هم بمفردهم أن يساعدونا في دخول المناطق الريفية المغلقة، التي كنا نعتقد أننا لن ننجح أبدا في الوصول إليها.

قصة بلد مجهول

الآن ننتقل إلى محور حديث هذا الكتاب، وهو الجزء الجنوبي من الجزيرة العربية، الذي يقع تحت الاحتلال الإنجليزي، وهو يضم بالتحديد حضرموت، والمناطق المجاورة لها في الآونة الأخيرة التابعة لمحمية عدن، وتبدأ مناطق الاحتلال الإنجليزي من منطقة رأس مراد قبالة جزيرة بريم (المعروفة بجزيرة ميون) عند نقطة التصاق جزيرة العرب بأفريقيا، وتمتد هذه المنطقة من جهة الشرق حتي رأس ضربة عليّ، التي تقع على ساحل البخور في وسط الساحل الجنوبي العربي على بحر الهند، والتي تتبع مباشرة لدولة عمان، الواقعة أيضًا تحت الحماية الإنجليزية.

وتُعد عدن أول بؤرة وطأها الإنجليز، وحدث ذلك في عام ١٨٣٩، واستطاع كابتن هينز أن يحتل عدن، وأصبح المقيم (الحاكم) الأول بها، وبالتدريج بنى علاقات أخوة وصداقة بين الإنجليزيين وأمراء قبائل الريف، واكتسب ولاء خمسين من قادة القبائل البدوية الريفية لإنجلترا، ويجدر بالذكر أنه من الصعب جدًّا السفر إلى مثل هذه المناطق بصورة يومية، فرؤساء القبائل لا يتحلون بالقوة التي تجعلهم قادرين على أن يمنعوا قبائلهم من السطو والنهب، ومع ذلك كانت توجد بعض القبائل التي تمثل عداءً لإنجلترا مثل البوريك والكارب، لا يستطيع أحد من الإنجليز التسلل إلى أرضهم إلَّا بشق الأنفس.

ويعد سلطان لحج وكذا سلطان المكلا من أكبر التابعين لإنجلترا، فسلطان لحج الذي اصطدمت سلطنته مباشرة بسلطنة عدن يعتبر إلى حدٍّ ما الحاكم الأعلى

للقبائل البدوية للحواشب والزوبيدين، وتتحلى دولته الصغيرة بقدرٍ لا بأس به من الحرية في الداخل، وهو الآمر الناهي لزعماء القبائل، كما مثّلت دولته حصنًا لإنجلترا ضد القبائل التي ما زالت مقلقةً نوعًا ما مثل يافا.

وتُسمّى مملكة الشحر والمكلا بمملكة السلطان عمر بن عوض.

كما تُعد الشحر والمكلا أهم الموانى بين عدن والخليج الفارسي، التي أخذت من خلالهما هذه الإمبراطورية الصغيرة اسمها، وانضمت مكلا إلى الجزء الشرقي للمحمية كأول دولة للإنجليز، وجغرافيًّا لا تنتمي إلى الأراضي الأصلية لحضرموت، فهي عبارة عن شريط ساحلي ضيق لهذه الأرض، ولم تكن آنذاك منطقة الحكم المدمجة بين دول الداخل وإمبراطورية سلطان مكلا موجودة، لكن سرعان ما نشأت علاقة سياسية بينهما ولكن فقط من أجل الحماية.

كما أن تاريخ هذا البلد المستوطن من قبل العرب ليس بقديم.

ويرجع تأسيس إمارة المكلا إلى عام ١٦٢٥، على يد النقيب أحمد بن محجم الكسادي، أحد سلاطين القبائل اليافعية، التي كانت تسكن الأراضي الجبلية شمال عدن، وحكم هذا السلطان القرى ما بين بروم ومكلا وبعض الأقاليم في الداخل، عدا مدينة الشحر، والتي كانت تُدار من قِبل القبائل البدوية المختلفة، لكنها دخلت تباعًا بعد ذلك إلى هناك. وفي مطلع عام ١٨٦٦ استولى السلطان غالب بن محسن الكثيري على الشحر، وطرد الحاكم الأخير لِما يُسمّي بقبائل حمير، الذي يدعى بعليّ بن ناجي، والذي تُوفي فيما بعد في لحج عن عمرٍ يناهز مئة وعشرين عامًا. ولم تَنعم الدولة الكثيرية بحكمها سوى ستة أشهر على الرغم من أنها كانت تلعب دورًا كبيرًا في جنوب العرب، حيث اتّحدت الدولة القعيطية، التي يرجع أصلها إلى القبائل اليافعية مع السلطان النقيب صالح الكساديّ من المكلا ضد الشحر، والتي غزوها أواخر عام ١٨٦٧، ومنذ ذلك الحين أصبحت تحت إمرة الحاكم القعيطي.

ولقد احتدم الصراع الدائم بين المكلا والشحر، ودخل الحلفاء السابقون في

خصومةٍ طويلة، انسحب على أثرها فاتح الشحر إلى حيدر أباد في الهند، الذي عمِل فيها سابقًا برتبة حكمدار ضمن كتيبة النظام التابع لملك الهند، وهناك قد اكتسب ثروات هائلة، حيث لقبه أتباعه بالسلطان الأوحد من بعده، ولقد كان طلب الحصول على قرضٍ، الذي وافق عليه الحكمدار النقيب، ولم يستطع أحدٌ أن يُسدّده، دافعًا لنشوب حرب - من أجل الأرض والماء -ولم تُحقق الدولة القعيطية في بدايتها أية نجاحات رغم مواردها الكبيرة، لذلك لجأوا إلى الحماية البريطانية، التي حاولت من جانبها الوساطة فقط، لكنها قُوبلت بالرفض من قِبل السلطان النقيب. وفي عام ١٨٨١ استطاعت أوّل سفينةٍ حربية إنجليزية أن تُجبره على الاستسلام، ممّا دفعه إلى أن يهاجر هو وحاشيته وحريمه إلى زنجبار، ولم يكن ذلك بالعدد القليل.

ولا زالت هناك في زنجبار حتى اليوم مستوطنة كبيرة من جنوب العرب، والتي لها علاقات تجارية مع الوطن الأم[١].

وسرعان ما فتح القعيطيون بروم بعد الاستيلاء على مكلا، والتي وفّرت مع مرور الوقت ميناء آمنا للسفن في جنوب غرب مونسموز، وكذلك فتحوا سلسلة من الأقاليم الصغيرة، التي كانت تُحكم من قِبل أفراد الأسرة المالكة، الذين يحملون جميعًا لقب حكمدار، ومنذ ذلك الحين ضمّتهم إنجلترا تحت لوائها، ووفرت لهم الأمن والحماية من حملات الشعوب الأجنبية الأخرى، وفوق ذلك يتقاضون رواتبهم، ومع ذلك كان لا يستطيع أحد من البريطانيين وكذا من الأوروبيين في ولايتي الشحر والمكلا أن يسمح ولو لمرة واحدة برحلةٍ طويلة خارج البلاد، فالسلطان هناك يحكم بحريةٍ كما يحلُو له، لأن سلطته قوية جدًّا، حيث يتوجّب على زعماء قبائل الريف أن يهبطوا ببضائعهم التي يستوردونها من الخارج في مكلا أو الشحر، فهي بذلك لا يمكن أن تتعفن أبدًا.

(١) ليو هرش: حضرموت، لايدن (١٨٩٧). (المؤلف).

ولقد حاول عدد قليل من الأوروبيين، أن يتسلّلوا إلى السواحل الجنوبية العربية على المحيط الهندي في المناطق الريفية، وكانت أُولى هذه المحاولات من البرتغاليين، الذين قاموا بجولاتٍ استكشافية إلى الهند وإلى المملكة العربية السعودية، واستولوا على جميع السواحل من عدن إلى مسقط، وكذلك أيضًا بلاد المَهَرةِ الغامضة، التي انضمت إلى الشحر ومكلا من جهة الشرق، ولغتها الخاصة هي اللغة المهرية وليست اللغة العربية، والتي يرجع أصلها إلى عصر أهل معين، ولقد أرسى البرتغاليون أسطولًا عسكريًا على جميع السواحل، وأقاموا الحصون، التي ظلّت إلى اليوم للعرب، مثل حصن الكافر أو حصن الفرنجي، مما أدّى ذلك إلى قيام الحروب مع قبائل حمير، وظلّوا طيلة خمسة وثلاثين عامًا في جنوب العرب، إلى أن طُردوا مع بداية القرن السادس عشر، كما تمّ تدمير الأسطول المكون من عشرين سفينة الذي استعاد كسب الأرض المفقودة نتيجةً لإعصارٍ شديد.

ولم يتمكّن أحد من البرتغاليين أن يدخل إلى ريف حضرموت، وعن إمكانية الوصول إلى هذه الأرض الوعرة كتب مالتزن[١]: إنه لمن الصعوبة بمكان أن ينجح أحد في دخول هذه البلد حتى ولو كان متخفيا، ولم يكن من السهل أن تذهب إلى مكة، لكن مع اختلاط الشعوب التي تتجمع سنويا هناك في موسم الحج، تجعل عملية تَخفّي أو تنكر المتسلل أسهل تنفيذًا عنها في حضرموت، حيث لا يسافر أحد ليست أصوله من هذه المحافظة، ويرجع هذا للتطرف والتعصب الشديد، الذي ربما يكون أعظم مما يحدث في مكة.

ويمثل كل من الأوروبي والمسيحي في البلاد العربية المطلة على المحيط بجانب كل ما هو من أصول مسلمة في هذه المحافظات ظهورا غريبا، ولا يتواجد الأوروبي والمسيحي فقط في البلاد العربية المطلة على المحيط، ولكن أيضًا كل ما

(١) مالتزن: رحلة إلى جنوب العرب، براون شفيج (١٨٧٣). (المؤلف).

هو من أصولٍ مسلمة في هذه المحافظات يُمثّل ظهورًا غريبًا، لدرجة أنه يصبح من المستحيل تقريبًا أن تجد سببًا مقنعًا للدخول إلى هناك، كما لو أن الجدار الصيني (سور الصين العظيم) انتقل داخل هذه البلد، مما يضمن لها أنها ليست بحاجةٍ ملموسة للحراسة الصارمة.

وكان أدولف فريد[1] صاحب أُولى المحاولات الجادة والناجحة في نفس الوقت في تسلل واختراق حضرموت، والذي استطاع أن يتواجد هناك بحجّة زيارة قبر النبي هود عليه السلام، وبدأت رحلته في عام ١٨٤٣، تنكّر فيها على أنه مصري من بروم والمكلا، وسُمّي عبدهود، وعمِل أيضًا كجاسوسٍ سياسي لنائب السلطان المصري السابق محمد عليّ، نظرًا لأنه عاش فترة طويلة في مصر وأتقن اللهجة المصرية، ومن ثمّ قادته رحلته -التي لم يصل فيها إلى قبر النبي هود- إلى مضيق وادي دوعن، وهناك حدثت نهاية غير متوقعة حيث تم حبسه عن طريق سلطان خريبة، وتعرّف عليه شخص ما، وأراد إعدامه، إلا أن شفاعة أحد شرفاء العرب أطلقت سراحه، واستطاع أن يرجع إلى مكلا بعد تسليم أمتعته.

وغدت رحلته التي لا تُنسى دربًا لكل الرحالة اللاحقين، لكنها لم تلقَ اهتمامًا كبيرًا في موطنه ألمانيا، وبعد قرابة نصف قرن من الزمان قام أحد الأوروبيين مرة أخرى بمحاولةٍ ناجحة في الولوج إلى حضرموت، وقد نجح ليو هرش في عام ١٨٩٣ في القيام برحلة استغرقت ستة أشهر، أودت به إلى المناطق الساحلية أولا، وفيها استطاع أن يدخل حضرموت، وشبام، وسيؤون، وتريم، وتبِعه في نفس العام أيضًا السيد بنت وزوجته، اللذان وصلا من شبام إلى المكلا.

ثمّ تبع ذلك وقت طويل حتي قامت محاولة أخرى جديدة تم فيها اختراق مرتفعات جنوب العرب المغلقة، ومع انتهاء الحرب، وكون عدن وجهة جوية،

(١) فريد: رحلة إلى حضرموت، براون شفيج ١٨٧٣. (المؤلف).

واهتمام شخص من الجانب الإنجليزي مرة أخرى بحضرموت، وصل ليو فيرنر عام ١٩١٩ ومعه بعض الطيارين الإنجليز أمثال بوسكاوين وفان دير مويلن وفسمان، وقاموا بتصوير جوي رائع من الوديان العظيمة في حضرموت ووادي دوعن، ثمّ بعد ذلك واصلت رحلتي الأولى إلى حضرموت عام ١٩٣١.

وسلك جميع الرحالة الذين دخلوا البلد من قبلي طريقهم من المكلا إمّا عن طريق وادي دوعن أو وادي بن عليّ أو عن طريق أودية أخرى مشابهة، وجميعهم دائمًا نجحوا مرة أخرى في العودة إلى المكلا من خلال طرق برية. وبدأت رحلتي الشخصية داخل الشحر، وسلكت فيها طريقًا من الساحل حتى المدن الداخلية، التي لم يدخلها قبلي أي من الأوروبيين قط.

- إذن ما هي حضرموت الآن؟

من الناحية الجغرافية: إن حضرموت منطقة صغيرة جدًّا نسبيًّا، فهي لا تمتد عبر المناطق الساحلية من عدن إلى عمان، كما هو مُوضح على معظم الخرائط، لكن اتصال الوديان بالمرتفعات والوادي الكبير يُعرف بحضرموت. وفيما بعد سمى المرء الوادي والمنطقة القريبة له بحضرموت، ولكن يُفضّل ألا يشمل ذلك بلاد المهرة وكذلك بلاد قبائل العوالق، حتى إن سكان البلد أنفسهم يُبقون هذه المناطق منفصلة تمامًا عن بعضها البعض، ومن الناحية السياسية: تُعتبر حضرموت تحت إمرة الكثيريين، أمّا المكلا والمناطق التابعة لها فتقع تحت إمرة القعيطيين كمناطق منفصلة.

أما من الناحية الجغرافية فيتخيلها الإنسان كالآتي:

ترتفع بدءا من الساحل بمسافة ذات سلسلة جبلية شديدة الانحدار على ارتفاع أكثر من ألفي متر، هذه السلاسل الجبلية ينخفض منها هضبة واسعة تدريجيا إلى الداخل، ويكون الجرف المنحدر للوادي الرئيس وادي حضرموت، الذي يقع

على ارتفاع حوالي سبعمائة متر، ومن الداخل ترتفع الجبال إلى هضبة أخرى، يصل ارتفاعها إلى ألف متر تقريبًا، والتي تجري في شكل العديد من الأودية إلى الصحراء العربية الداخلية الكبيرة.

ويعرض وادي حضرموت والأودية الجانبية له مئات الأمتار من الجدران الصخرية العمودية المائلة، فهى تعتبر أودية جافة ضخمة لأنهار قديمة، وترجع هذه الشقوق إلى عصور ما قبل التاريخ، في وقت كانت الجزيرة العربية بلدًا غنيًّا بالمياه. وسرعان ما يصطدم المرء فقط في هذه الأودية بالمياه الجوفية، التي أصبحت اليوم سببًا في وجود الشعوب والمدن، ووادي حضرموت العظيم هو أحد هذه الشقوق الضخمة، حيث يبلغ عرضه حوالي عشرة كيلو مترات، وطوله حوالي مائة وخمسين كيلو مترًا - ويعد الحد الأدنى بالنسبة للمسافات الضخمة بالجزيرة العربية، ويجدر بالذكر أن مسقط تبلغ حوالي ألفي كيلو مترًا.

ويمتد وادي حضرموت غربًا من هينن، وينتهي بحصن دوبان المسيلة، ومنه سُمّي فيما بعد بوادي المسيلة[١].

ويعرف القدماء حضرموت حق المعرفة، فكانت تذكر بلفظة (حذامارت) الإنجيل، وهي أرض الصموغ (اللبان)، وعاصمتها الرئيسية كانت سابوته، التي تُعرف حاليًا بشبوة[٢].

ولكن هل كانت هناك في العصور القديمة أمّة كبيرة حقا اسمها حضرموت؟ هذا ما لا يمكن تحديده من التقارير المتاحة، لكن على أية حال كان الاسم معروفًا، إلا أن المرء لا يكاد يتصور تحت هذا الاسم مملكة قائمة لها حدود معروفة، وإنما لا بد

(١) طبقا للمعلومات من السيد (انجرامس) أحد الضباط السياسين في عدن، الذي قام برحلة لا تنسي عام ١٩٣٥ إلى حضرموت، ونجح في دخول الساحل عبر وادي المسيلة. (المؤلف).
(٢) انظر هيلفرتز: أسرار عن شبوة، برلين ١٩٣٥. (المؤلف).

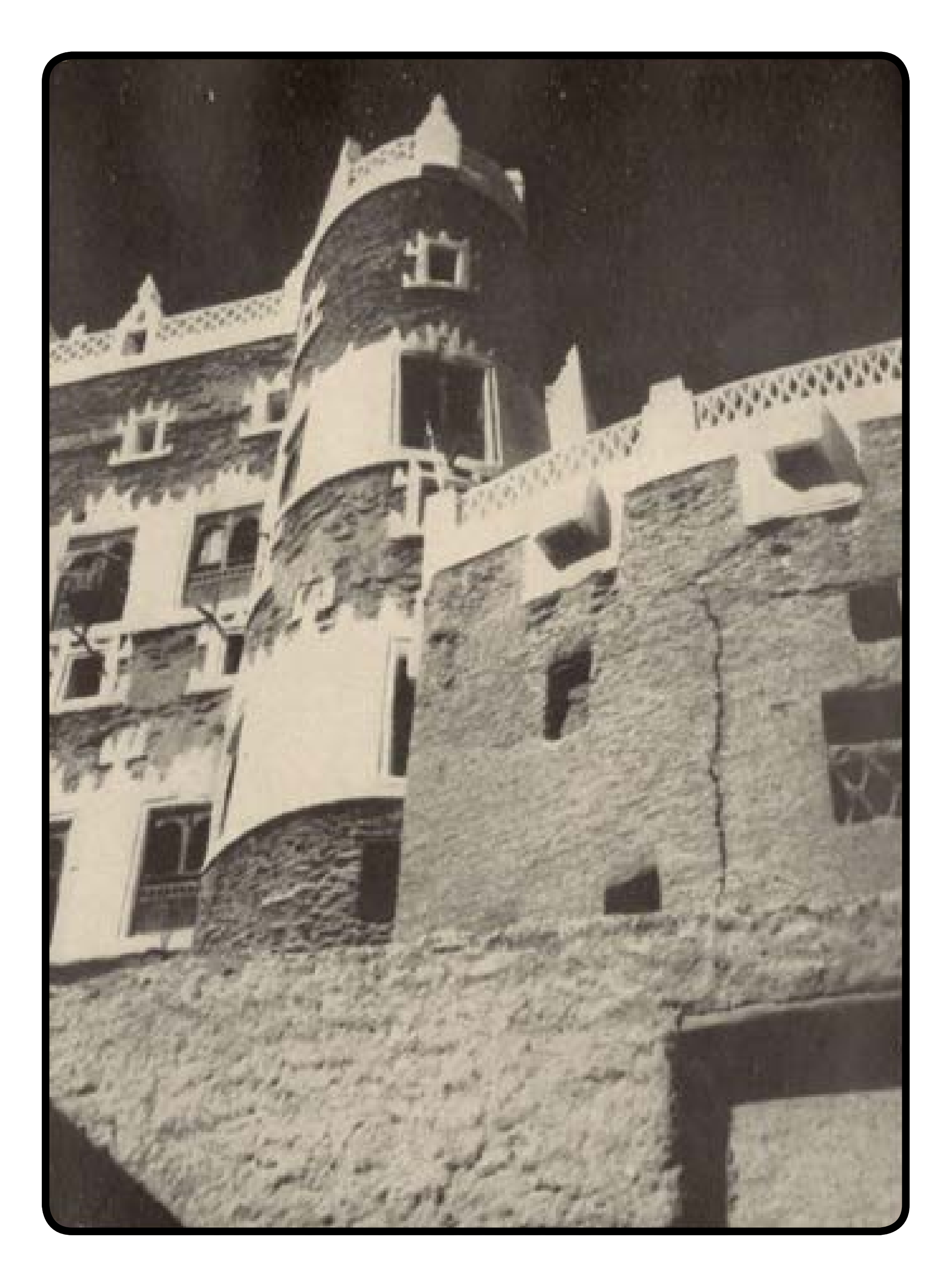
له من أن يُسلم بأن هذا الاسم تُعرف به الشعوب القديمة، والشعوب اللاحقة أيضًا، وما يرتبط بها من كل نتاجٍ ذي قيمة، وكذلك الصناع المهرة من أرباب الحرف، فهو يُطلق على الأرض التي ينشأ فيها كل هذا.

ولا تزال أشجار اللبان تنمو إلى الآن في جبال ووديان حضرموت، إلا أن المحصول كله مخصص للاحتياجات الخاصة، فأماكن التصدير الرئيسية في الجنوب العربي تمتد الآن من جهة الشرق، حيث وجود مساحات شاسعة من أشجار اللبان بالقرب من مدينة ظفار، كما أنّ الطرقات التي كانت مشهورة في العصور القديمة والتي كانت تسلكها القوافل محمّلة من جنوب الجزيرة العربية إلى ساحل البحر الأحمر، قد فقدت منذ زمن طويل أهميتها السابقة.

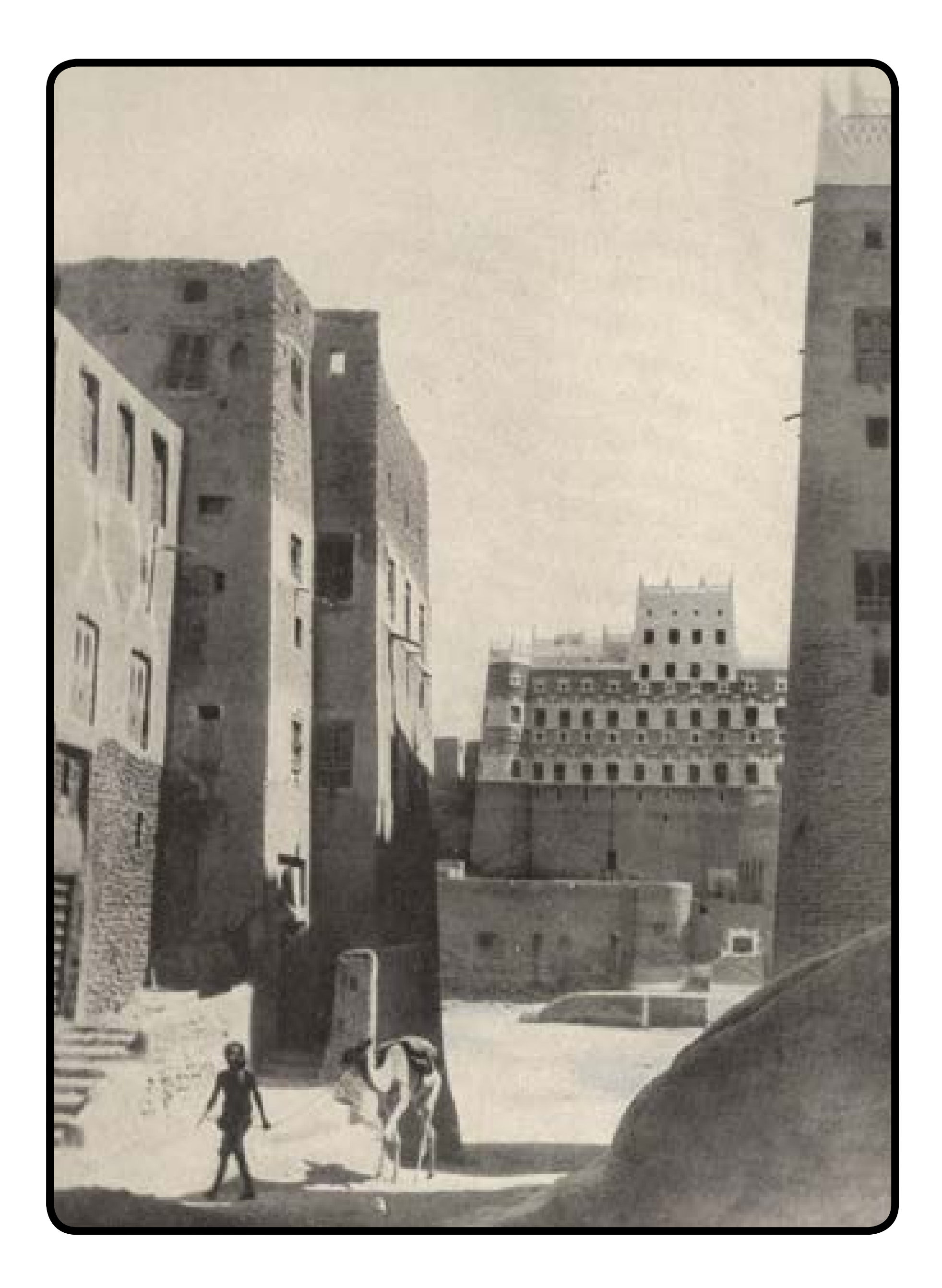
وعما إذا كان اسم حضرموت مرتبطًا بكونها غنية باللبان من قديم، فهذا موضع شكّ؛ فمن ناحية يُطلق اسم حضرموت على «ساحة الموت»، لكننا لا نعزو هذا إلى الحديث عن كونها أرض شؤم، كما لا يستطيع أحد اليوم أن يصف هذه الأرض بأنها أرض عقيم (غير خصبة)، بل العكس هو الأرجح؛ فيمكننا أن نقبل بأن لفظة حضرموت العربية تحمل في طيّاتها معنى الحضر والحاضرة، بمعنى «منطقة التمدن وأرض العمران»، على عكس البادية التي هى «منطقة الصحاري والمراعي»[1]. وعلى أية حال فإنّ هذا التفسير هو الأقرب إلى الصواب من ذلك الذي يريد أن يجعل من مرتفعات الجنوب العربي أرضا للموت.

---

(١) ليو هرش: حضرموت. (المؤلف).



واجهة مزينة بالجص (بالجبس) في قصر السلطان بسيئون



قصر السلطان في سيئون



قصر سلطان سيئون



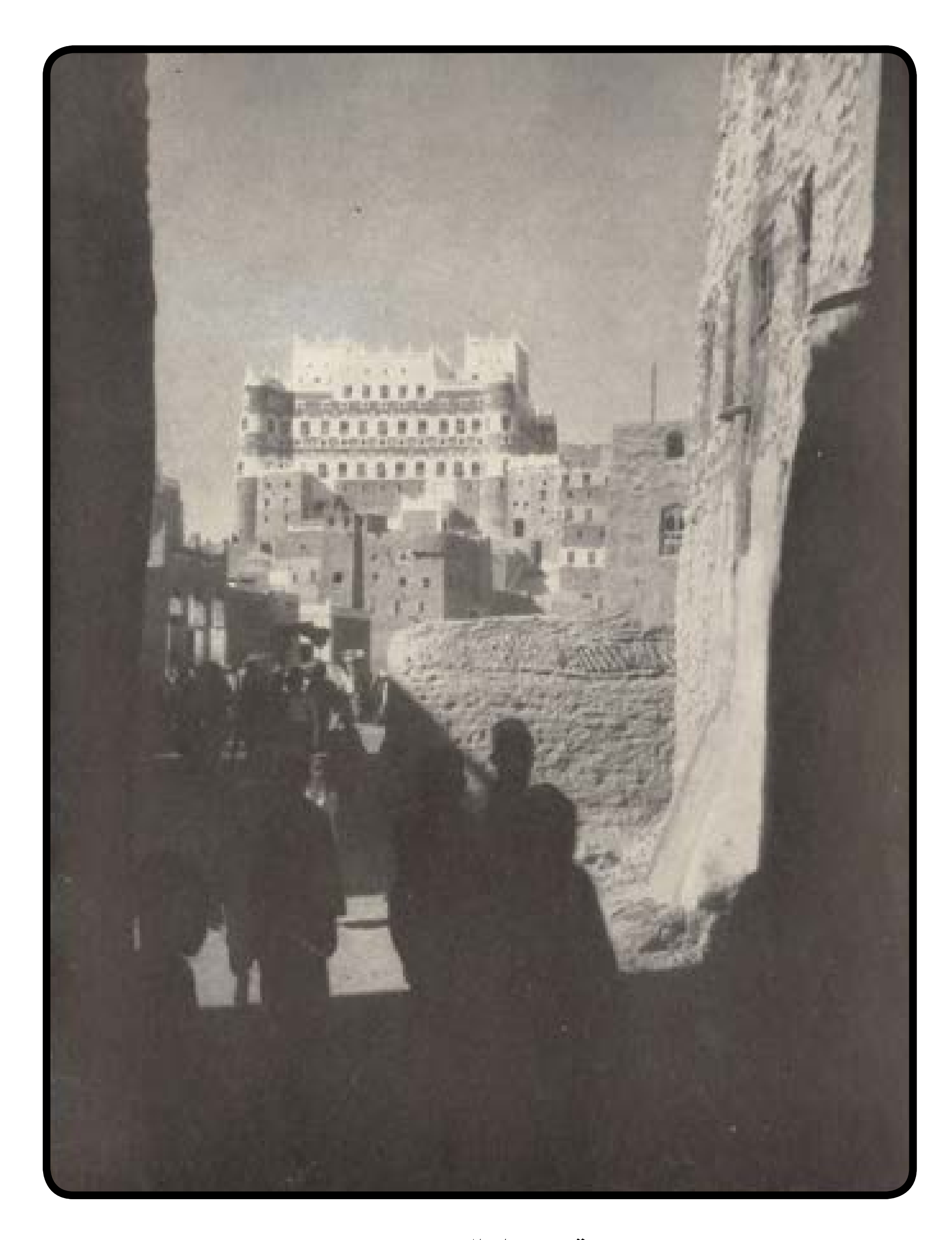
قصر سطان تريم بسيئون



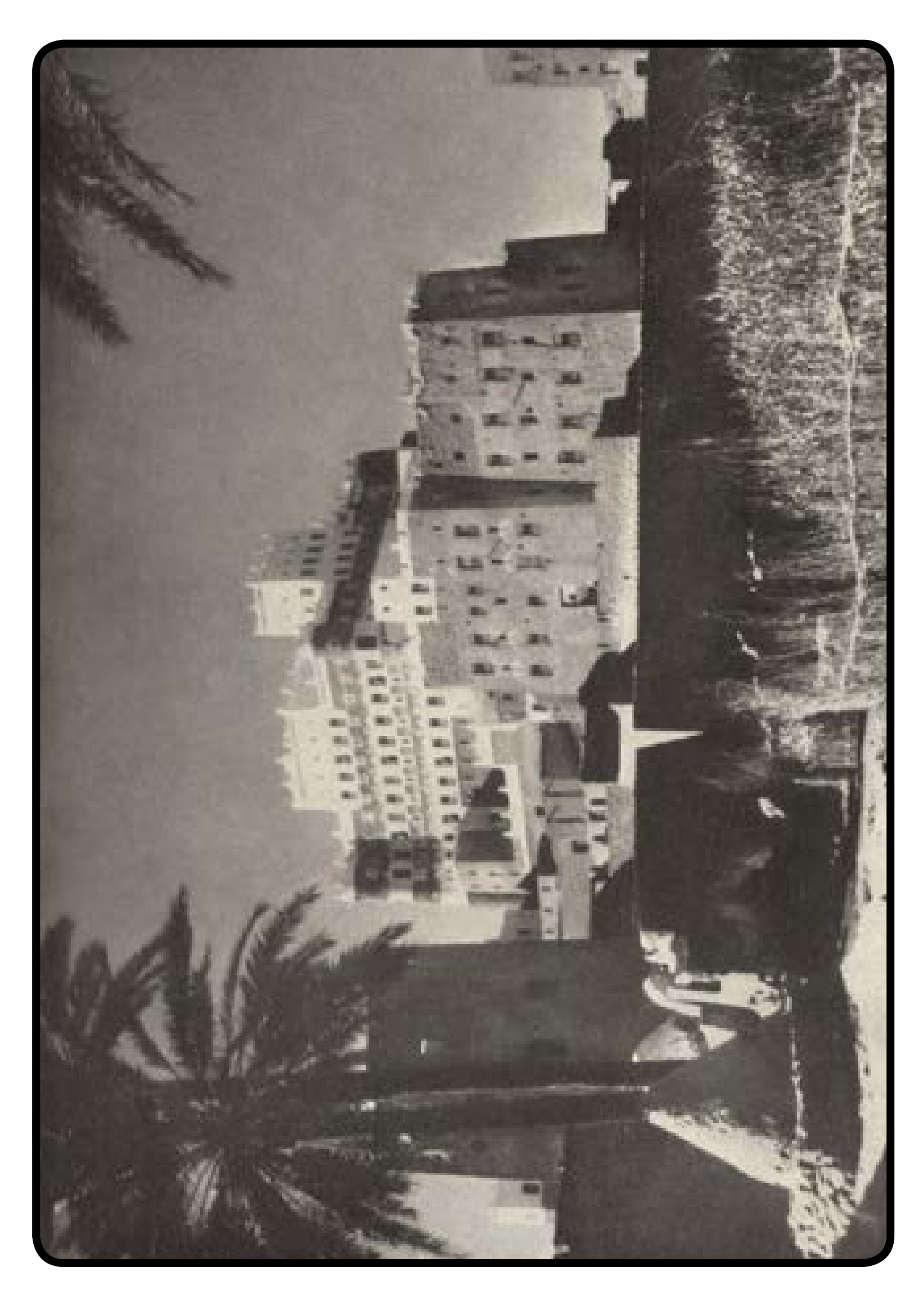
(دَمُّون) بتريم



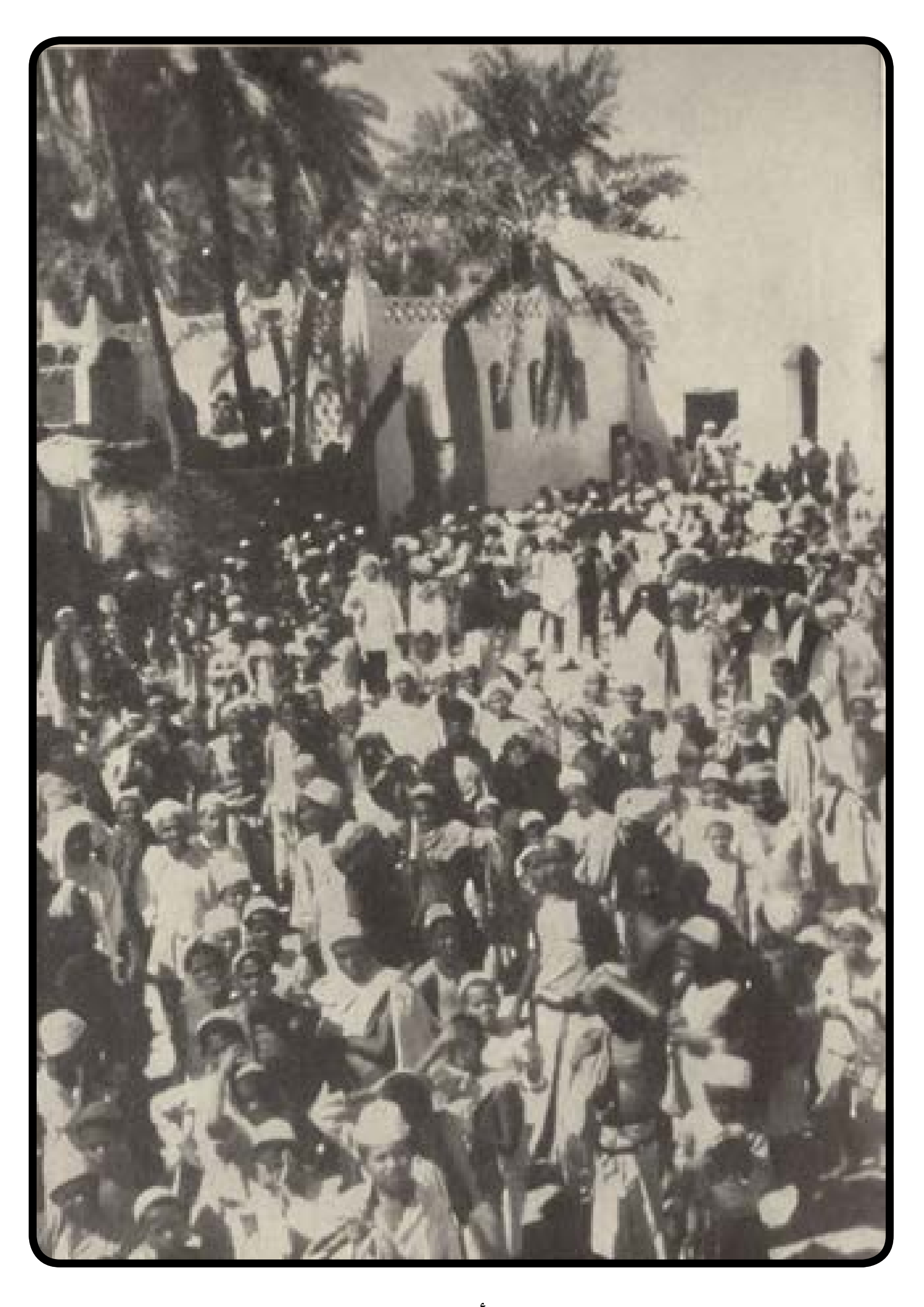
قصر سلطان سيئون



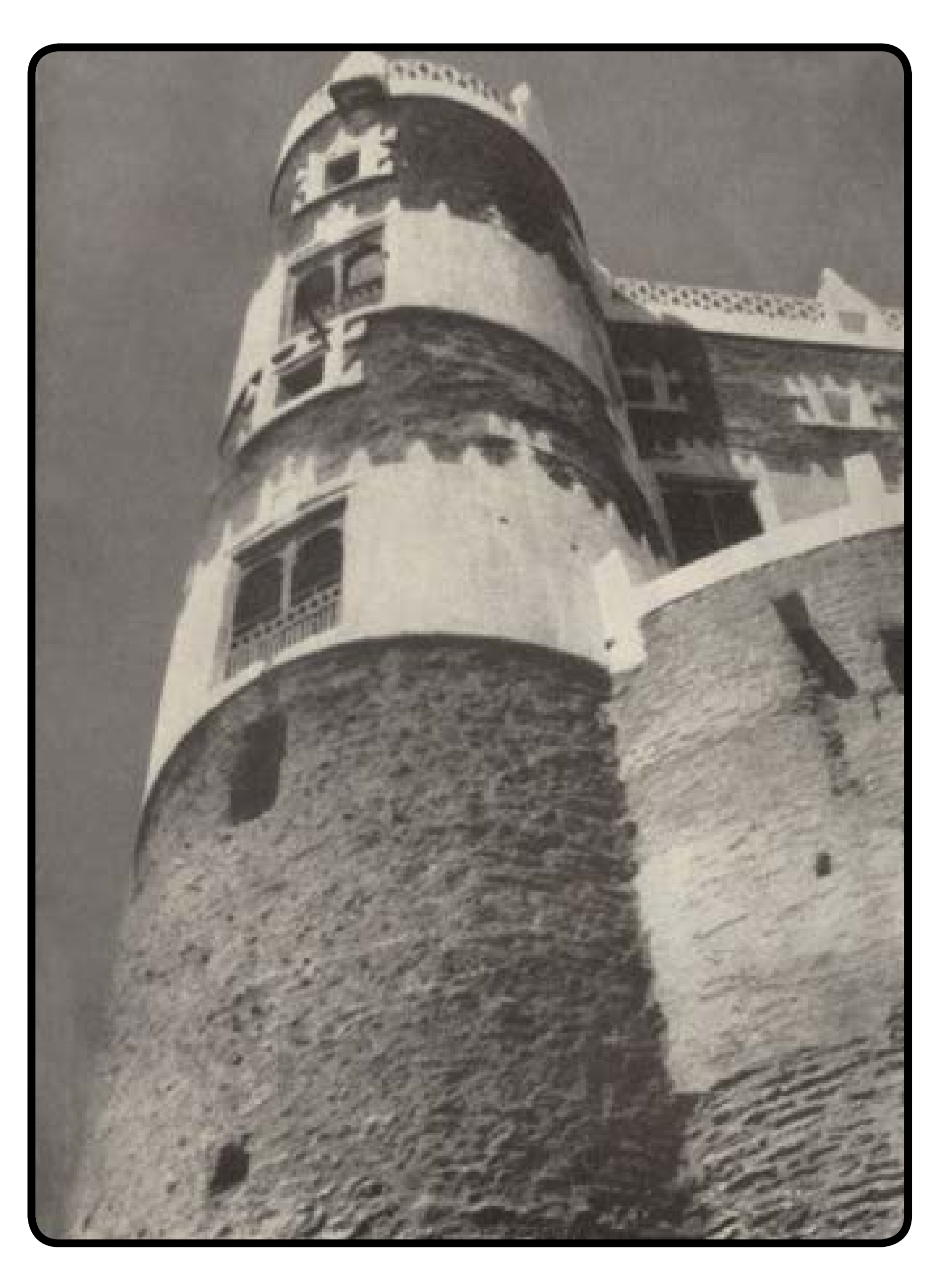
قصر سلطان سيئون



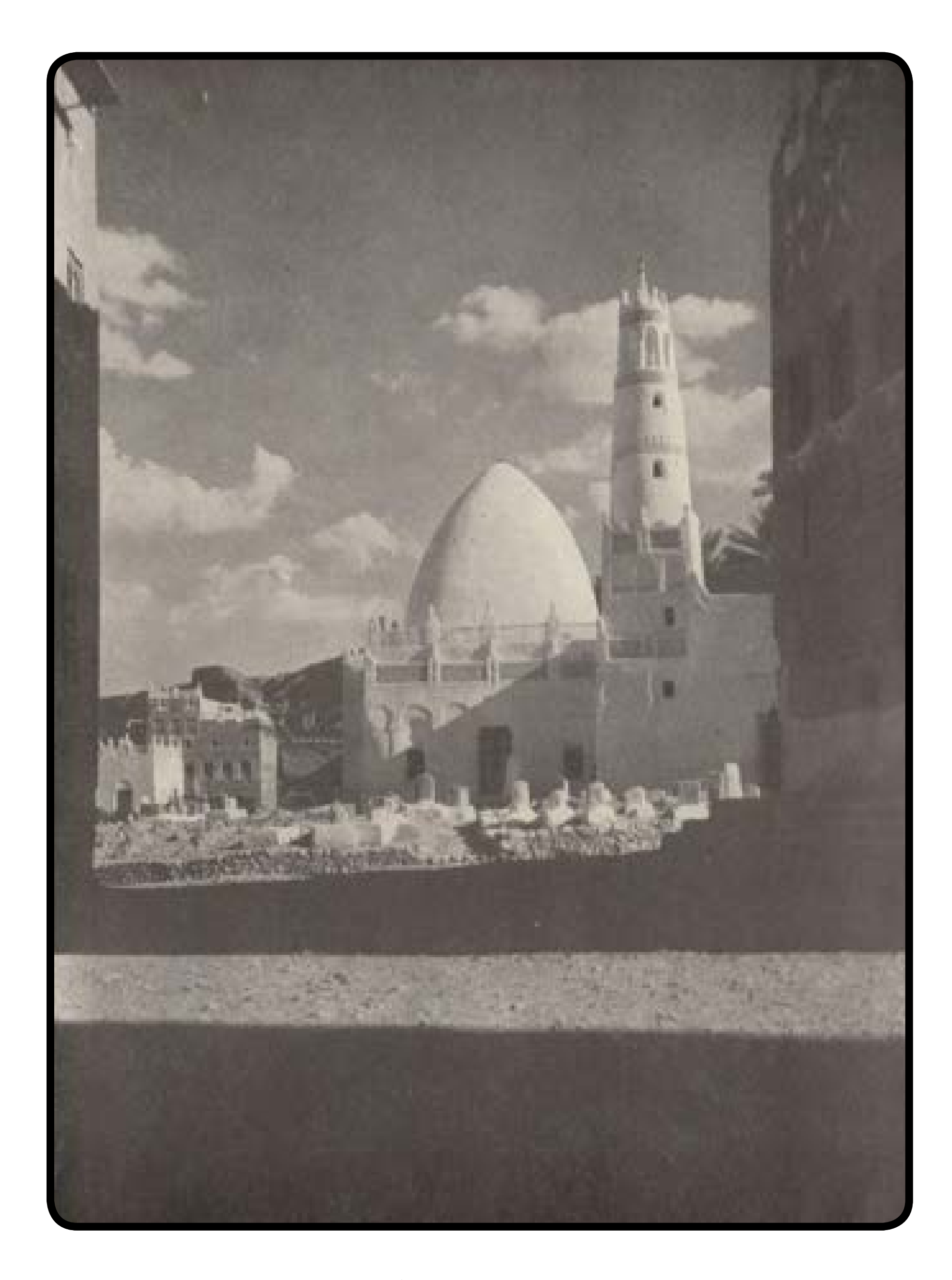
قصر سلطان سيئون



من الجامع الأكبر في سيئون



زاوية برج أحد القصور



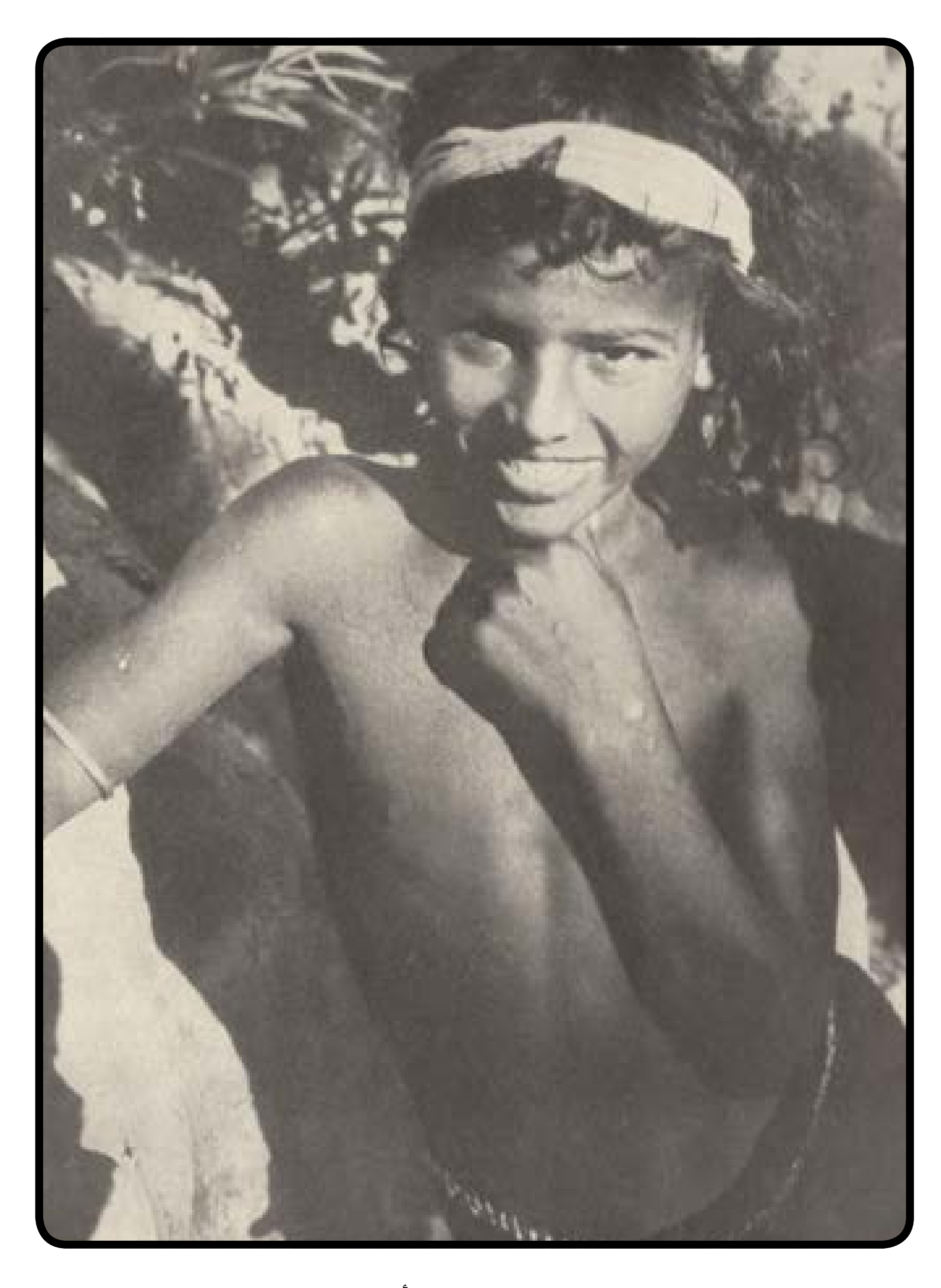
مسجد بسيئون



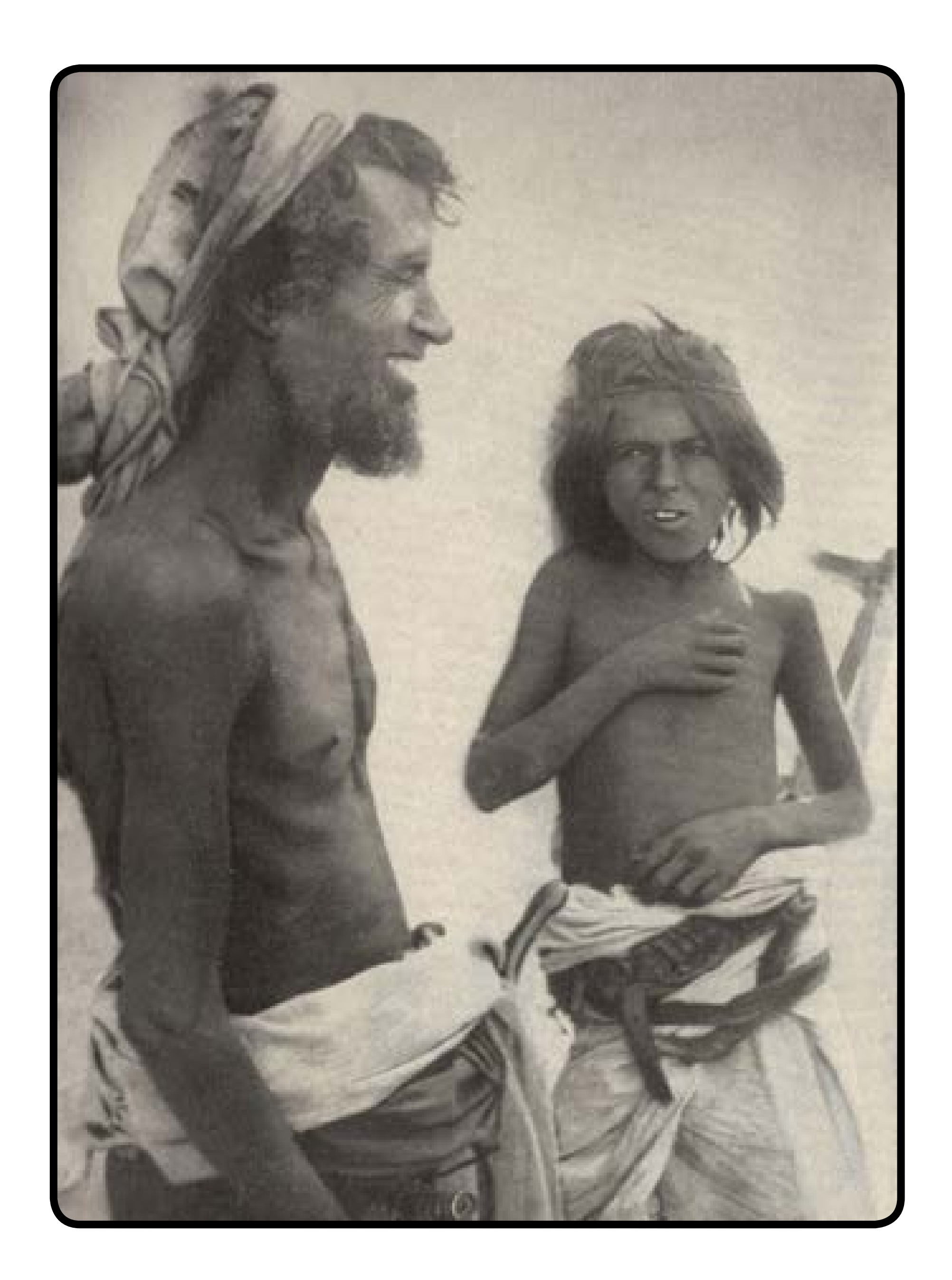
الفتاة البدوية من (بني العجيلي)



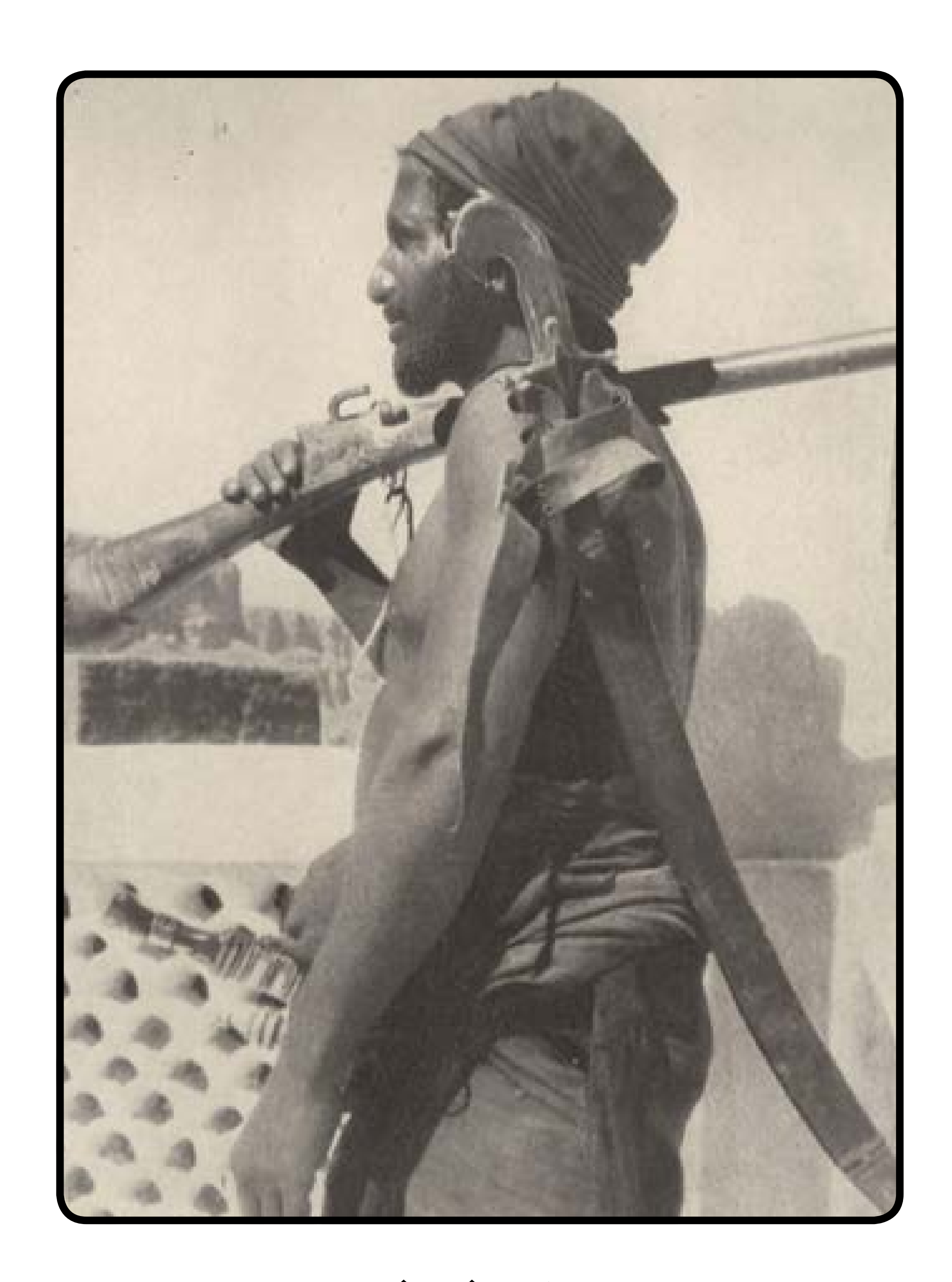
الفلاحة في حضرموت



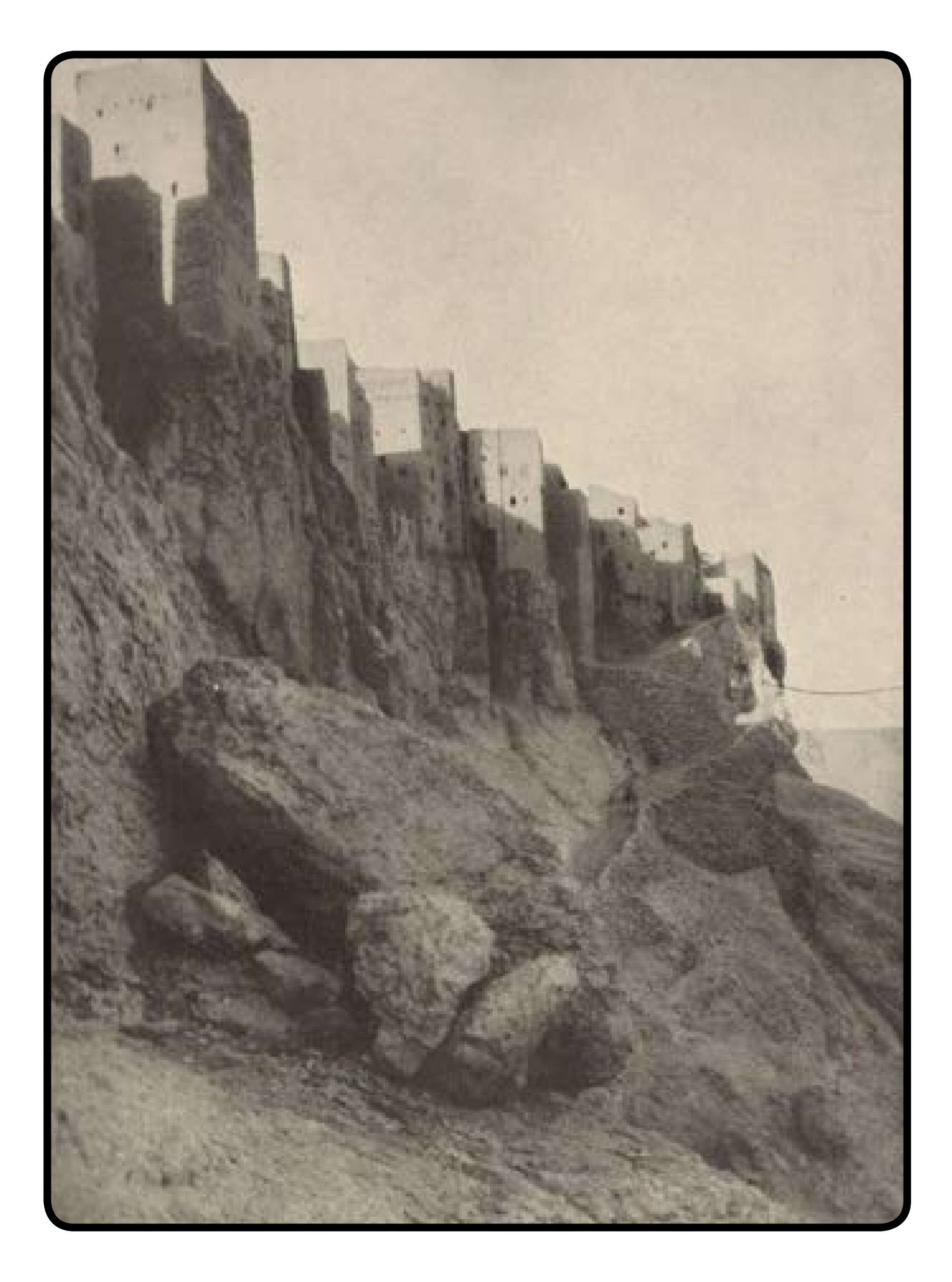
شباب البدو من (بدو المعدي) أو (قبائل المعدي)



البدوي السيباني



بدوي من دوعن



الهجرين

حول الأرواح الطيبة والشريرة

يُدعى خادمنا محمدًا، وهو منوطٌ بفعل الكثير لنا، كما أن له تابعًا اسمه سعد، مكلفٌ بفعل أشياء أكثر لنا، خاصةً عندما استخدمناه مؤخرًا في رحلتنا الداخلية.

ومحمدٌ من أبوين ذوي أصولٍ عرقيةٍ مختلفةٍ، فأبوه هندي وأمه عربية، ويقوم على خدمة السلطان، والذي جعله تحت تصرفنا أثناء فترة إقامتنا في المكلا؛ فعمله على خدمة السلطان، بالإضافة إلى أنه ذكي ومكارٌ، فقد استفاد من مكانته تلك في عمله الشخصي، فلا يقوم إلا بالأمور الضرورية، كأن يقوم قدر استطاعته بإعداد زياراتٍ ذات مستوى رفيع لنا، لأنه يتوجب علينا في مثل هذه الزيارات تقديم الوجبات (الطعام)، التي تعود بالنفع على محمد، حيث يقوم بدعوة زائريه الخاصين إلى أشهى الوجبات في غرفةٍ (منعزلة) نائيةٍ بالقصر.

وقد أبدى محمدٌ ولعًا شديدًا بالسجائر، لدرجة أنه كان يشحذها[1] في كل يومٍ وعلى مدار الساعة؛ كما أنه يتنعم (يستمتع) بالأناناس الذي يطلبه من السلطان، وذلك بالطبع بداعي أننا كأجانب لا يمكننا العيش دون أناناس؛ هذا بالإضافة إلى حبه الشديد لقيادة السيارات.

وهوعادةً ما يتوجه في الصباح إذا ما أيقظناه -فكان يرقد محمد على الأرض، ملفوفًا في وشاحٍ بالقرب منا، وذلك لخوفه الشديد من الفئران- إلى راعيه الكبير، ليحدد موعدًا للسير بسيارة السلطان.

(١) بمعنى الشحاتة أو التسول. (المترجم).

ثم يبدو مجددًا لدينا بوجه يشع من السعادة، مادحًا ولمدة ساعة تأثيره وفطنته وشجاعته، ثم يطلب منا –وبشكلٍ مفاجئٍ– قميصًا جديدًا.

وغالبًا ما يحالفه الحظ، ليس مع القميص الجديد، بل مع قيادة السيارة، أي إنه يُسمح له بالقيادة بنفسه، ولأن الجنود يحبون أحيانًا التغيير حقًّا، ولاسيما الجنود المنوطين بحراستنا، لذا فإنه من الضروري حقًّا، أن يرافقنا العديد منهم، بالطبع من أجل حمايتنا – ويتوجب على محمد البقاء في المنزل حيث لم يعد هناك مكانٌ شاغرٌ له.

محمدٌ المسكين! يجلس عكر المزاج في أحد الأركان هازًّا رأسه وهو يتمتم قائلاً: حسنًا محمد، حسنًا محمد! وقد جال بخاطره بالفعل وبشكلٍ مفاجئ: الشيطان، الشيطان فقط هو من يمكنه عمل هذه الخدعة معي.

حيث أحضر إناءً به بخور، فأوقده ثم وضعه تحت الملابس، حيث يرتدي بعضًا منها الآن، وكذلك تحت الإبط، وذلك لطرد الشيطان أو الجن أو الروح الشريرة بواسطة هذه الروائح.

فلا يمكن للجن أن يعبث مع مثل هذه الروائح، فهذه المخلوقات تجعل حياة الناس بحقٍ صعبة، أوعلى الأقل في جنوب جزيرة العرب، فهم محيطون بالفرد على الدوام، لدرجة أنه يجب على المرء الحذر منهم، فإذا ما نسي أحد المسلمين أن يتوضأ في كل مساء قبل الصلاة، فإنه سيصيبه بالفعل روحٌ شريرةٌ[١]، وسيمرض في اليوم التالي، ولن يجديهم نفعًا في هذه الحالة إلا تبخير المسكن بالبخور، والأفضل بالفعل أن يضع المرء كل مساءٍ وعاء البخورعلى عتبة الباب، وبالتالي لن يتمكن الشيطانُ من الدخول.

(١) مسٌ من الجن.

ويفعل محمدٌ هذا أيضًا، ومع ذلك فإن مزاجه سيءٌ، إذا ما سار شيءٌ على غير إرادته، فعادةً ما يُلقي بالذنب على الشيطان، إلا أن محمدًا يُعاند نفسه ويعاندنا قائلًا: إنه سُرعان ما سيطرد الجنُّ الطيبُ الشيطانَ الشريرَ من جسده.

فظهور هذه الأرواح الطيبة ليس بنادرٍ على الإطلاق في المكلا، فقد حُكي أنه بعد نزوح النقيب من الحصن الكبير أو القصر، الذي يقع وسط المدينة، ويعتبر اليوم مبنًى إداريًّا، تتطاير منه أجولة (أكياس) بها دقيق وتمر من النوافذ، ما يوحي -وفقا لما يعتقده كثير من الفقراء في مكلا- بوجود روح طيبة مسحورة.

وبرغم هذه الأرواح الشريرة والطيبة، فإننا نشعر حقًّا، أننا على ما يرام في مكلا، وبخاصة أننا نعرف طبيعة الحياة، كما نقدر الصيادين العاملين في منطقة (شرج باسالم)، وهي عبارة عن قريةٍ صغيرةٍ مقامة من قبعات القش، وبشكلٍ كثيفٍ أمام أسوار المدينة هناك حيث توجد بوابة المدينة الكبيرة الغربية، وقد بقيت هذه البوابة مُحتلة في فترة حكم الكساديين من قبل عائلة العكبري التابعة لقبيلة سيبان البدوية، والتي فرضت جمارك باهظة على كل البضائع الصادرة والواردة إلى مكلا، كذلك الحال بالنسبة للأسماك، التي تم صيدها على الساحل، فقد كان هناك ضريبة، تُدرُّ لهم سنويًّا مبالغ كبيرة، ولقد رضي الناسُ بهذا لسنواتٍ طوالٍ، إلى أن واتت عبدالخالق الجرأة، وبمساعدة القعيطيين له بشكلٍ صريحٍ ضد عائلة العكبري، نجح في المعركة، هذا ما مكنه من طردهم، وأسر سبعين رجلاً منهم، قد قضوا وقتًا طويلًا في سجن المكلا.

ومن حينها يسود الأمن أمام بوابات المدينة.

المحيط الهندي غني بالأسماك، فهو زاخرٌ بالأسماك الكبيرة والصغيرة، والتي تتمتع بأشكالٍ خلابةٍ، ويصطاد العرب كل هذه الأنواع ويأكلونها، ونفسها تلك الأسماك الكبيرة المفترسة كأسماك الورنك الضخمة وأسماك القرش (الحوت)

المخيفة، التي توجد هنا بكثرةٍ شديدةٍ، ويعد لحم سمك الحوت حقًّا من الأكلات الشهية لدى العرب، حيث يأكلونها طازجةً، عقب إحضارها من السوق، غير أن الأهم هو تلك البثرات والزعانف، التي يتم تجفيفها في الشمس، وتكون فاسدةً بعض الشيء في بادئ الأمر، ثم تصبح جافةً كالحجر، وتشبه في ذلك أسماكنا المجففة؛ فالبدو الذين يأتون من داخل البلاد، ويقومون بتوصيل التجارة ما بين مدن حضرموت والساحل، يشترون بثرات أسماك الحوت المجففة، وذات الرائحة الفواحة الكريهة، التي غالبًا لا يتغذون إلا عليها وعلى الأرز في رحلاتهم التجارية الطويلة، كذلك البدو المقيمون في الداخل، فإنهم يخزنون من وسيلة التغذية الممتازة هذه، وبإمكانهم أن يأكلوا منها صباحًا ومساءً، إن لم يكن لديهم ضأن مذبوح، وكان لزامًا عليَّ -أنا نفسي- التعود على هذا الطعام الشهي بإرادتي، أو رغمًا عن إرادتي في أسفاري بحضرموت، حتى وإن كان الأمر صعبًا جدًّا بالنسبة لي، ولأن تَرُدَّ طعام أحد البدو، فهذه إهانةٌ كبيرةٌ.

فبثرات أسماك القرش ذات مذاقٍ رائعٍ حقًّا، إذا ما قُورنت بأسماك السردين، والتي يتم صيدها بكميات هائلة، ويجعل الفائض منها في شكل سياجاتٍ خاصةٍ متراكمةٍ كالجبل، والتي تتحول بشكلٍ تدريجيٍّ إلى مادةٍ لزجةٍ، تُستعمل فيما بعد كسمادٍ لزراعات التبغ بالقرب من مكلا.

وتنتشر هذه الأسماك الصغيرة، والتي تقدر بالملايين في مساحاتٍ شاسعةٍ من الشاطئ، فبعد طهيةٍ واحدةٍ في الشمس، ووصولها إلى درجة تعفنٍ بسيطٍ، يتم بيعها، ويأكل البدو هذه الأسماك الصغيرة العفنة وذات الرائحة الكريهة والغير طازجة، وكذلك الحال في البيوت المرموقة من العرب، فهي رخيصة لدرجة أنها قد تُستخدم كعلفٍ للجمال، والتي تتناول وسيلة التغذية هذه بنهمٍ شديدٍ، حيث تُعوضها عن اللعق.

ومن أجل النقل، يتم ضغط أسماك السردين هذه في شكل كُراتٍ، ويتم حياكتها في حُصرٍ من القش، إلا أنني لا أنصح أحدًا أن يسافر بقافلةٍ تنقل هذه الكُرات، حيث يستلزم هذا حقًّا قدرة عالية على تحمل هذه الرائحة.

وتُمثل أسماك السردين وأسماك القرش المجففة أهم السلع التجارية بالداخل، وفي نفس الوقت يجب على البدو، وكذا ساكني المدن الفقراء، أن يقايضوا السمك بغيره من السلع، والذي لا يكون متاحًا إلا قليلًا.

فيصيد المرء الأسماك الصغيرة بالشباك، والتي يتم سحبها كشباكٍ مجرورةٍ بواسطة مركبين، بينما يتم صيد أسماك القرش والورنك بواسطة الصنَّارة، حيث يخوض كل طفل في المياه قليلة العمق، ويُلقي بخيط صنارته، حيث يُلقي العدد الأكبر منهم حبلًا طويلًا للغاية، ولمسافة بعيدة في البحر، ثم يلفونه ثانيةً، عندما تغمس الصنارة، وفي سرعةٍ خاطفةٍ فوق رووسهم.

ويتجول الجميع، الكبير والصغير، في المياه قليلة العمق، وبخاصة في وقت الفيضان، فلا يصطادون حقًّا إلا ما يكفيهم، ولأن الصيادين يعودون ومراكبهم بها ما يكفي من أسماك، إنه بحق عملٌ لطيفٌ، ممّا لا شك فيه، أن يقف المرء بعد الظهيرة، وذلك عندما تكون حرارة الشمس ليست حارقة، كما أن مياه البحر ليست باردة، فتجذب الأسماك بكل الأغاني الجميلة الممكنة، والتي يطلب فيها المرء منها أن تقضم الصنارة، والتي غالبًا ما تصنع فيه معروفًا.

وهذا الصيد مُحاطٌ بالمخاطر، فالسكان الأصليون الذين يذهبون بعيدًا للصيد أو الاستحمام في وقت الفيضانات، غالبًا ما يقعون فريسةً لأسماك القرش، فالكثير من حالات بتر الذراع والساق، التي يُمكن للمرء أن يلاحظها في ساكني الساحل، وبخاصة في عدن، هي ناجمة عن اعتداءات أسماك القرش؛ حيث تعض هذه الأسماك الخطرة الناس في أطرافهم بشكلٍ كاملٍ، وصولًا إلى العظم، والناس ذوو

البشرة البيضاء بشكلٍ خاصٍ هم الأكثر عرضةً لمثل هذه المخاطر، فقد حدث في عدن أن أسماك القرش -والتي يراها المرء أنها سيئة- كانت تندفع بشكلٍ ملحوظ إلى ذوي البشرة البيضاء من الناس أكثر من ذوي البشرة الداكنة، الذين كانوا يخوضون في المياه غير العميقة، فما إن تكون سمكة القرش في وضع الاستعداد، حتى تسرع في نهمٍ شديدٍ، حتى تبلغ الشاطئ، وهذا يحدث بشكلٍ مفاجئٍ، لدرجة أن الإفلات منها لا يعد ممكنًا.

فالخرافة لدى هذه القبيلة من صيادي جنوب جزيرة العرب، تكاد تكون متأصلة، حيث يجد المرء على كل كوخ جمجمة جمل أو قنينة قديمة مقلوبة على عنقها ومعلقة في السقف المصنوع من القش، كوسيلة حماية ضد الأرواح الشريرة، التي تتنزه في الأكواخ وبشكل منتظم بعد غروب الشمس، لتمارس طبيعتها مع الناس البسطاء، فإذا ما مارس الجن خبثه، فإن المرء يضع هنا في تمام الساعة السادسة إناءً به بخور أمام الباب، ويقوم بتبخير كل ملابسه التي يمتلكها.

لا يكاد المرء يرى طفلًا دون تميمةٍ، وهي عبارة عن قلادةٍ مصنوعة من صدفات البحر المزركشة أو حجر معلق بخيط يكون متدليًّا، بينما يحمل البالغون علبةً صغيرةً مفضضة، معلقة في أحزمتهم، بها ورقة مدون عليها أياتٍ قرآنيةٍ.

وتكون القرية بأكملها نشيطة في بعض الأعياد، ثم تحدث مراسم رسمية راقصة، والتي تبدأ برقص مثير حول دُمية، ويشارك فيها الرجال والنساء، وغالبًا ما يتم الرقص لوقت طويل، حتى يفقد المرء وعيه.

يقدم الشاطئ الواقع على المحيط الهندي من خلال عالم الحيوان المتشعب به بعض المتعة والإثارة، حيث يوجد هنا في بادئ الأمر سرطانات البحر الكبيرة والصغيرة، فإذا ما سار المرء في الرمال البيضاء عن كثبٍ، وهو يتصفح البحر، فسيُلاحظ بكثرة وجود مخروطاتٍ رمليةٍ مدببةٍ مع وجود فتحةٍ قبلها، فتلك مساكن

سرطانات البحر بأبراج مراقبتها، ولأن هذه المخروطات الرملية المدببة، والتي كومتها من الرمال المحفورة، يتسلقونها ويقفون على قمتها، وهم ينظرون حولهم، إذا ما كان هناك خطر يهددهم أو يترصدون الفريسة، فإذا اقترب أحدٌ من مساكنهم، فإنهم يتخذون مخبأ، ففي بادئ الأمر يختبئون خلف الأبراج الرملية، وفي سرعةٍ خاطفةٍ يقومون بالتخفي إلى جحرها، وما إن يقترب المرء في سيارة، وقد أمكنه السير بها على الرمال الرطبة في وقت الجزر، وهذا أمرٌ جميلٌ للغاية، إلا وقد أصبح الشاطئ تدب فيه الحياة في وقتٍ واحدٍ، ويكتظ وبشكلٍ مباشرٍ بالسرطانات، والتي تتحرك كالنجوم المتوالية؛ الكل في اتجاه واحد، فهم يبحثون عن الحماية في الماء.

كما توجد طيورٌ؛ أنواع لا حصر لها من الطيور المائية، ففي البحيرات المالحة وخلف الكثبان الرملية تتأرجح البجعات فوق الأمواج القصيرة وتتجمع طيور البشروس[١] بأعناقها الوردية.

فقط في المساء، وقد توقفت الشمس العمودية الاستوائية عن إرسال أشعتها المباركة إلى الأرض، تمسح أعداد لا حصر لها من الطيور البحرية الشاطئ على امتداده لصيد المخلوقات الصغيرة، والأسماك التي قد قذفت بها الرياح القادمة إلى الشاطئ وهي فاقدة للوعي، وذلك في كل مساء، فيكاد لا يكون لها أعداء هي نفسها، وذلك لأن العدو الأكبر للطيور وهو الإنسان لا يفعل لها شيئًا على الإطلاق هنا.

فدون أي إزعاجٍ، تأتي طيور النورس والطيور البحرية الأخرى الصغيرة إلى الصيادين محلقة، وعندما يستخرج الصيادون شباكهم ويحضرون غنائمهم إلى الشاطئ، يجلسون مكتظين على أطراف المراكب ويجدون في البقايا غذاءً كافيًا.

فكم هي رائعة أشكال تلك القوارب الشراعية الموجودة في منطقة جنوب جزيرة

(١) الخام الوردي.

العرب؛ حيث يتم تصنيع المراكب التجارية والمسماة بداو[1] تمامًا بنفس الكيفية المعروفة منذ مئات السنين، والتي تذكرنا من خلال الهياكل القوية المزركشة والمنحنية لذيلها بسفن الفايكنج القديمة، فغالبًا لا تثبت ألواح السفينة إلا بحياكة النخيل في القوائم الخشبية، فسفن النقل هذه، والمزودة بساريةٍ واحدةٍ فقط، تقطع مسافاتٍ طويلةٍ، فتجيء من البصرة ومسقط على الخليج العربي وصولًا إلى سواحل شرق أفريقيا، كما تستعمل غالبًا في رحلات التهريب، وأخيرًا وليس آخرًا في إنزال سلعةٍ حيويةٍ، كما سردت بالفعل عند وصف مدينة المكلا إلى بلدان منطقة البحر الأحمر بأكملها.

فالبحارة العمانيون، الذين ينتمون سابقًا إلى إحدى القبائل الزنجية، لديهم مهنة ثانية أخرى بجانب حرفتهم التجارية؛ حيث يعملون في مجالات التمثيل والرقص والموسيقى، فيعطون في الموانئ التي يديرونها تصوراتٍ حول التمثيل الإيمائي، ما يجلب لهم بجانب حرفتهم الأصلية عائدًا جيدًا للغاية، كما أن عروضهم لا تخلو من ظرافة فائقة.

وننوي الآن أيضًا القيام برحلة بحرية ولكن ليس بإحدى الداوات العربية، وإنما باليخت الخاص بعائلة الكاف؛ ومحمدٌ خادمنا في قلقٍ شديدٍ، حيث سمح له السلطان بمرافقتنا.

تبدأ الرحلة الآن إلى مدينة الشحر.

المكلا، المدينة البيضاء في الجدار الصخري الأسود لجبل الكور، تتوارى ببطء في الضوء الخلاب للشمس المشرقة، وتمرُّ علينا كتلٌ صخريةٌ شديدةُ الوعورة، فتأثير تباين الألوان المفاجئة لهذه السلاسل الجبلية أمر لا يُقاوم: كتلٌ صخريةٌ حمراء من

(١) سفن نقل وشحن.

الحجر المرمري الكريستالي الخالص والرخام السماقي الأخضر الداكن اللون، الذي يقاطعه في بعض الأماكن صخرة وردية اللون.

إلا أن هذه الكتل الصخرية، تختفي أخيرًا وبشكلٍ كلي، لتشكل منطقة سهول شاسعةٍ، وهنا تقع مدينة الشحر، فهي مدينة تكاد لا تُرى من البحر، رمادية غير ملحوظة، يحيط بها جدار طيني عال، باستثناء الناحية التي تطل على البحر، هذا السور على وجه الخصوص مُؤَمَّن من خلال أبراج حراسةٍ مربعة الشكل، ومبنية من الداخل، وبشكلٍ منظمٍ بين الفجوات.

في وسط المدينة خلف كثبانٍ رمليةٍ كثيفة، يقع القصر القديم لسلطان الشحر وهو تابع لسلطان المكلا، ويمكن منح لقب سلطان لكثيرٍ من زعماء القبائل الصغيرة.

هناك أمرٌ آخر، يصعب التغلب عليه، وهو ساعة الانطلاق بهذا القارب الصغير في حالة الإبحار الرائعة هذه، إنه بحقٍ أمرٌ خطيرٌ، حيث صوت الفرقعات، فأجلس بين أجزاء الحمولة القذرة، ثم ينساب فوق رأسي وابلٌ من المياه المالحة، إلا أنّ هذا لا يُعد نوعًا من التقليل لرحلة بمنطقة جنوب جزيرة العرب.

على طرق القوافل ذات الألف عام

هناك ثلاثة قصور بمدينة الشحر، يتبع اثنان منها عائلة الكاف، ويخص الثالث -والذي نقيم فيه- والي مدينة الشحر، فقصر السلطان عليّ، كما يُسميه الوالي، عبارة عن بناءٍ طينيٍ قديمٍ، ذي أبعادٍ لا يُستهان بها، كما إنه مُتألف من أجزاء متابينةٍ، وبه شُرفاتٌ وفتحاتٌ، نوافذه مفتوحة بشكلٍ غير منتظم، وقبل ذلك يوجد بعض المدافع على حاملات عربات منخفضة، كماً تصطف حامية ذات عدد كبير متعددة الجنسيات من زنوج وممثلين لقبائل البدو المختلفة، وكلهم مُدججون بأشد العتاد من خناجر وسكاكين وبنادق، وقد رافقنا عددٌ من هؤلاء المقاتلين عبر الباب المؤدي إلى السلم الطيني الضيق، حتى وصلنا إلى غرفنا بالأعلى، وقد قاموا من فورهم بتهيئة المكان، لإقامتنا، ولم يفارقونا قط طيلة إقامتنا في الشحر.

وفور وصولنا أمر محمدٌ خادمه سعد أن يحضر ليواصل حياته هنا في هدوءٍ وأمانٍ. فالعمل الوحيد الذي أنجزه حقًّا، أنه قام بتثبيت الأُرجوحة الشبكية لصديقي بشكلٍ فنيٍّ على زاوية النافذة الخشبية على أحد الدعامات، غير أنني كنت أستعمل سريرًا نقالًا، وقد كانت كارثة بحق، لأنه سُرعان ما سقط صديقي بومورسكي في مسائه الأول من على أرجوحته الشبكية على الأرض مُحدثًا ضجيجًا عاليًا، فقد ظلت زاوية النافذة في مكانها، إلا أنّ الدعامات، سقطت جميعها، وشعر المرء بأن العرب المتواجدين أمام الباب فوق الرأس، إلا أنه وكما في جميع بلدان المشرق لا ينزعج المرء من أمثال تلك الحالات كانهيار منزل أو اشتعال النيران، فيكتفون بقول: ما الخطب؟ معلش! لم يحدث شيءٌ على الإطلاق، سنقوم ببناء هذا مجددًا إن شاء الله!

وها قد وصل سيد الآن، فمحمد هو صاحب الأمر، ففي كل يوم كانت تنشب بينهما خلافاتٌ حادةٌ حول مَن المُكلف منهما بإحضار الطعام لنا من مطبخ السلطان؟ ولأن سيد الصغير شاب زنجي، ينحدرأصله من زنجبار[1]، ويبلغ من العمر ستة عشر عامًا، كان لا يُعجبه كل شيء، وفي المقابل كان الأحذق منهما، لذا كان يُجيد بالمناسبة عمل صفقاته الخاصة.

قد أصاب محمدًا مسٌّ من الجن، وذلك لأن السلطان قد أذن له بالسفر إلى الشحر، ليكون معاونًا لنا أثناء إقامتنا هناك، فالرحلة ليست داخلية، وسرعان ما نتفق مع سيد، والذي استأجرناه لرحلتنا هذه، فقبيلة الكاف والتي يقطن بعض ممثليها في الشحر بشكلٍ دائمٍ تقوم باستمرار بقوافل تجارية مع بعض البدو، لترويج البضاعة التي شروها من سنغافورة إلى تريم، فكان علينا القيام بسفرنا الداخلي بواسطة إحدى هذه القوافل، إلا أن بدو قبيلة الحمومي، والتي لم تفكر في الأمربشكلٍ جيدٍ كعائلة الكاف وقبائلها البدوية، كما أنها تستحوذ على مساحةٍ كبيرةٍ ما بين تريم والشحر، ونحن على مشارف المدينة، كان لهم رأيٌ آخر، فلم يريدوا السماح لنا بالدخول، لذا تم إجراء مفاوضاتٍ، ولم يُجدنا نفعًا في هذا إلا الدفع لهم، وقبل هذا بقليل، كان قد تم السطو على بعضٍ من قبيلة الكاف في أثناء رحلتهم إلى تريم من قبل هؤلاء البدو العدوانيين أنفسهم، ولم يتمكن المرء من تحريرهم، إلا بعد دفع فدية، قدرها ستمائة وحدة من العملة القديمة.

فأسمعه يسأل وأنا متعجب! عملة (نقود)؟!

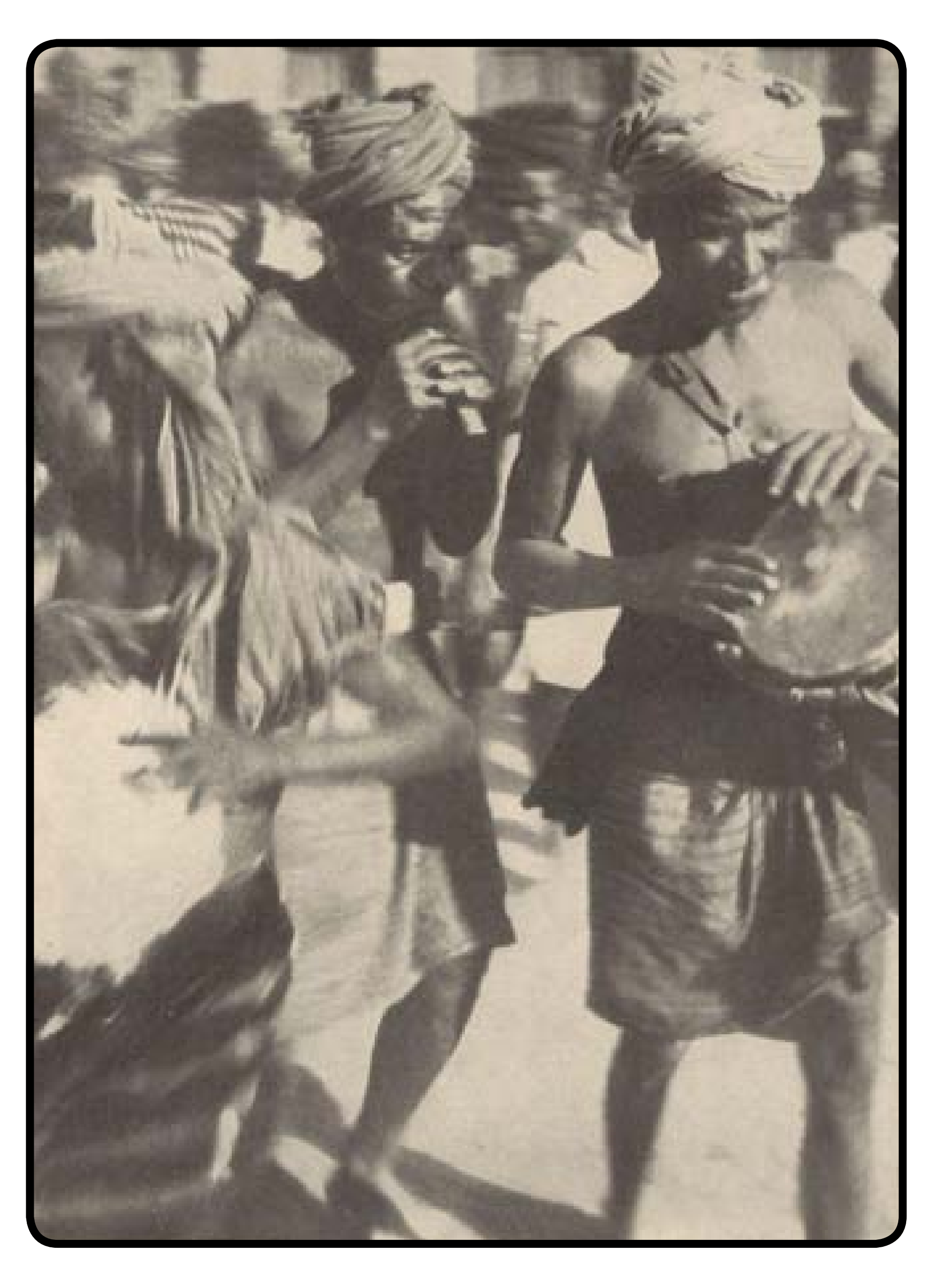
نعم! فالأمر يدورحقًّا حول العملة القديمة المنقوش عليها السيدة ماريا تريزا، والتي توجب على الإمبراطورية العظيمة أن تدفع بها مساهمة حرب إلى فريدريش الأكبر، ولاتزال هذه العملة حتى اليوم وبعد مُضي أكثر من مائة وخمسين عامًا، الأكثر تداولاً في منطقة جنوب العرب بأكملها وفي دول الخليج العربي، وبطريقةٍ

(١) منطقة بها عدة جزر تقع على المحيط الهادي وتتبع دولة تنزانيا.

خاصةٍ وصلت تلك العملات، والتي كان قد تم إلغاؤها إلى هذه البلدان البعيدة، ولم تتمكن أي عملة أخرى من إقصائها، فلا تصك الولايات الصغيرة نفسها إلا العملات الصغيرة منفردة من النحاس أو الفضة، والتي تستعيدها ثانية من خلال ذوبان العملات[١]، ولصُنع الأشياء المزخرفة بالفضة كأغماد الخناجر والمقابض المفضضة، يستخدم المرء الوحدات الفضية، لدرجة أن المخزون من النقد يتناقص، لذا يتوجب من وقت لآخر تجديدها، فيتم إرسال الفضة الإنجليزية من لندن إلى فيينا وهناك يتم صكها بعد أشكالها القديمة إلى عملات جديدة، منقوش عليها السيدة ماريا تريزا، وعليها التاريخ القديم ١٧٨٠، ثم تصل تلك العملات عن طريق البحر ومرورًا بعدن إلى البنك الوطني الهندي، والذي يقوم بدوره بإرسال النقود من خلال قوافل مُؤَمَّنة عسكريًّا إلى بلدان جنوب العرب.

قافلتنا والتي نبدأ بها سفرنا إلى الجبال العالية لجنوب العرب، يبلغ قُوامها عشرين جملاً واثني عشر حمارًا وعشرة من البدو، ويتولى قيادتها السيد (الشريف) عبدالرحمن بن شيخ الحِبشي، والممثل لإحدى العائلات النبيلة المرموقة في سيؤون، فتسير رحلتنا لعدة أيام عبر الطبيعة الصحراوية لجنوب العرب، بداية عبر السهول المستوية، حيث القرى المهجورة وأبراج الحراسة، فمرورًا بطرق الجمال البالغة من العمر مئات السنين، ثم مرورًا بممرات جبلية وعرة، ثم نعرج إلى هضبة عالية أو كما يقال في الجو.

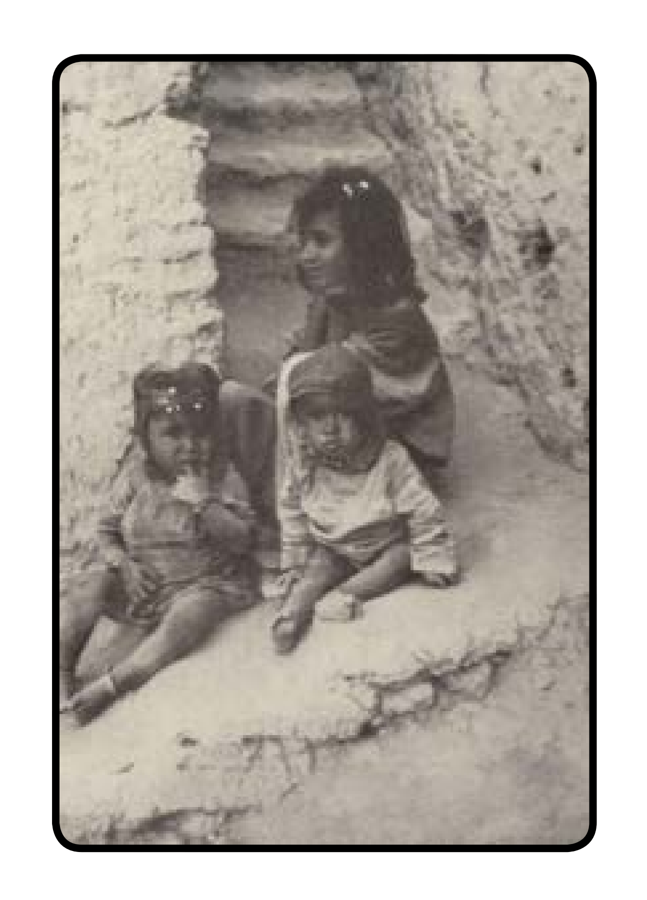
(١) تسييحها أو صهرها.



كلارينت مزدوجة (آلة نفخ خشبية) - مزمار



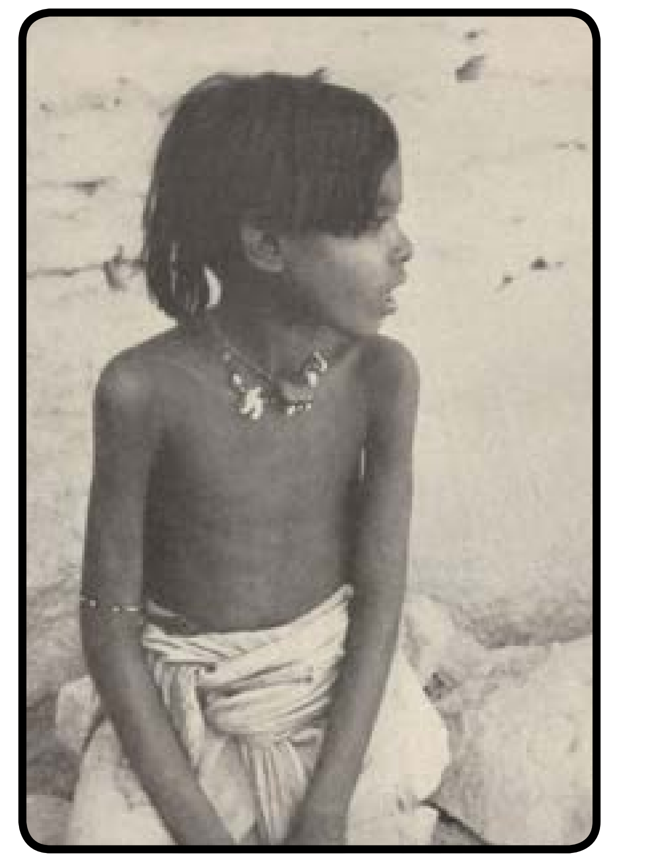
سكان الحضر والريف بحضرموت







فتيات وأطفال حضرموت



الصبيان من هينن وشبام



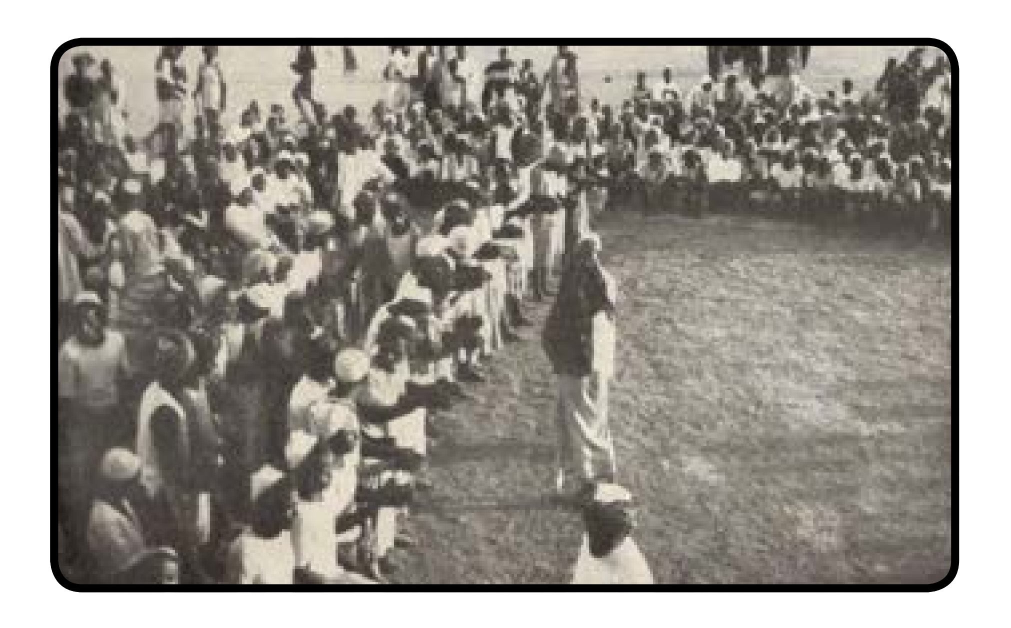
شاب عبد (زنجي) مُمسكاً بطبلة



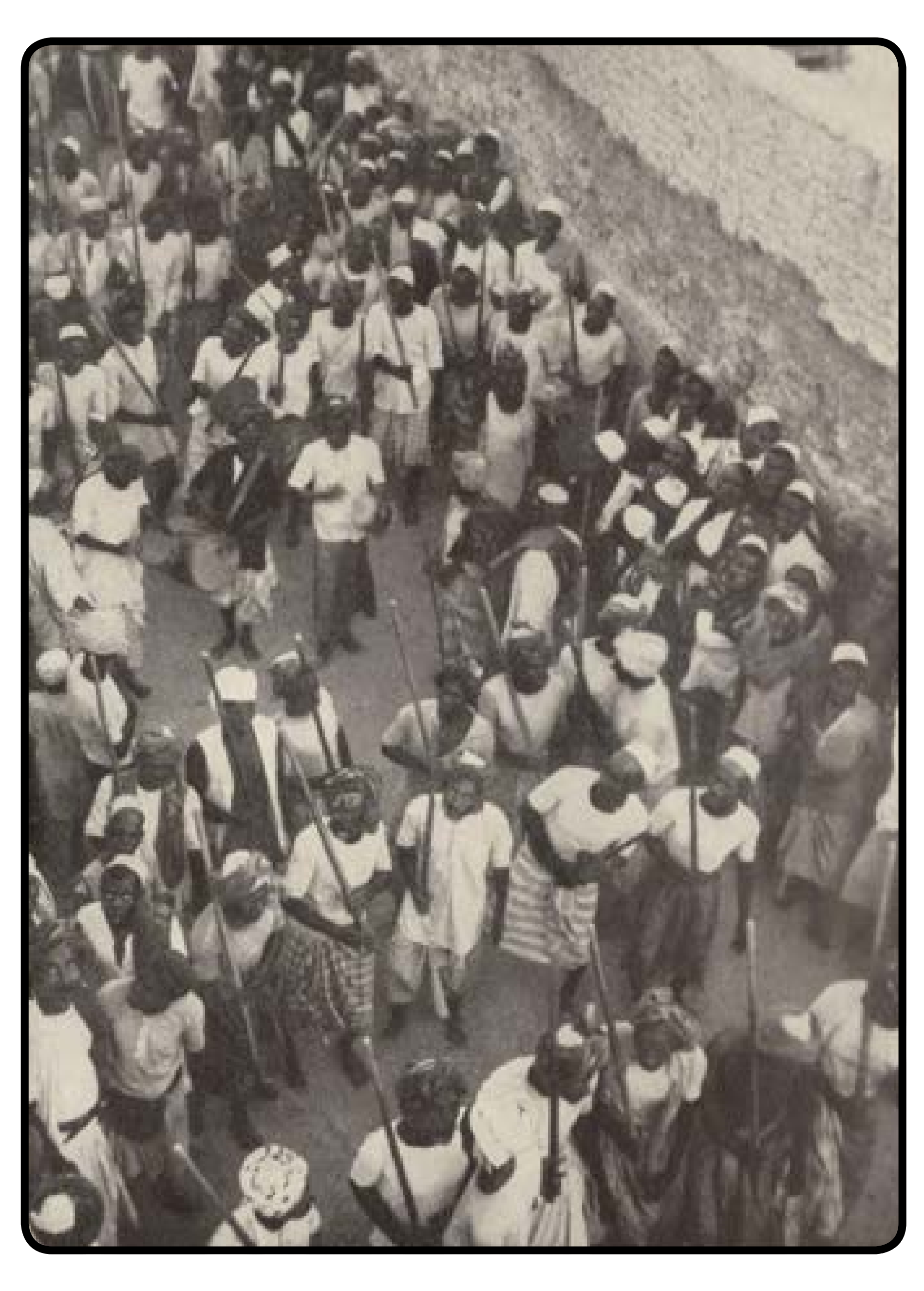
نموذج لسكان الحضر بحضرموت



الشاعر وثلاثة منشدين



رقصات الشبواني



راقصي الشبواني



طبال بطاسة (آلة للقلي)



مطرب (مغني) الشارع بربابة

ولمواجهة الحرارة القاتلة، والتي تبلغ في الظل خمسين درجة غالبًا، كان المسير ليلاً في تلك المنطقة، وما إن يحل وقت الظهيرة، ولا يعد بالإمكان تحمل درجة حرارة الشمس العمودية فوق رؤوسنا، حتى يبدأ البدو في استدعاء جمالهم، فلا يمكن التفكيرفي نوم حقيقي أو راحة في هذا الجو، فلم يتحسن الأمر إلا بالقرب من الجبال، ولخطورة السفر ليلاً في مسارات البغال الضيقة هذه، والمصاحبة دائمًا بسقوط الصخورالعمودية، فقد قرر البدو مواصلة السفر نهارًا.

ويلاحظ المرء من خلال المشية المضطربة والمتأرجحة للجمال، أن صعود مرتفع يربو على ألفي متر، هو أمر شاق بالنسبة لها، فوجهة النظر هذه، والتي تنتشر في أوروبا بشكل عام وهي أن الجمل لا يستطيع التقدم إلى الأمام إلا على الأرض المستوية هذه غيرصحيحة، فعلى النقيض من ذلك، يُمكن للجمل أن يجتاز أصعب الممرات الجبلية، وهو محمل بالعديد من القناطر بسهولة.

لا نتقدم إلى الأمام بسرعة، فالخطوة لدى الشرق بعيدة، والصبر لا يكل لدى الإنسان والحيوان، إنها خطوة بها رباط جأش وتأنٍّ، لأقدم الحضارات والتي تبعد وبشكل ملحوظ عن خطوتنا القصيرة والمتعجلة، فيسير البدوي حافيًا يومًا بعد يوم، حتى آخرعمره على رمال الصحراء شديدة الحرارة، وعلى الممرات الجبلية الغنية بشظايا الأحجار، وبفضل تحمله وصلابته المتناهيين يعتني البدوي بمفرده بمواصلة حركة سير البضائع والرحلات ما بين منطقة الشاطئ والمرتفعات، برغم قساوته وانعدام الأمن في المنطقة.

وهؤلاء البدو دومًا ما يكونون بحالةٍ مزاجيةٍ رائعةٍ، فبصوتٍ عالٍ يحثون حيواناتهم على المسير، كأن يغنوا لهم الأغاني، والتي تحمل الجمال بحق على المشي بسرعة فائقة، وقد سمعت أحد فتيانهم، يُغني بلا انقطاع قائلاً: يا جملي ظهرك عريض وسمين، وتحمل أكثر من أي جمل آخر، وأمامنا يوجد بئر فيمكنك الشرب هناك!

ولأسبابٍ متعلقة بالأمن، وكذلك للحفاظ على الجمال، توجَّب علينا السير على الأقدام عبر الممرات الضيقة لمدة يومين، وذلك لتفادي القوافل القادمة في الاتجاه المعاكس، وقد لزم هذا الصعود مزيدًا من العرق، فملابسنا والتي لا نرتدي الكثير منها، بدت كقصاصات قماش يتصببها العرق.

وها قد وصلنا الآن إلى الهضبة الشاسعة والممتدة امتدادًا كبيرًا، فهي وإن كانت تُقدم شيئًا قليلًا من المتعة إلا أنها تتحلى من يوم إلى آخر بالكآبة، ويزداد الأمر صُعوبة بسبب عدم الحصول على الماء، والذي يجب علينا أخذ المزيد منه قدر المُستطاع في قِرَب مصنوعة من الجلد، بها ماء معكر ببعض الطين، لما بها من ثقوب نصنعها نحن بأنفسنا لنشرب منها.

وعادةً ما كان يمتطي السيد عبدالرحمن قائدُنا مع بعض الأشخاص الحمير أمامنا باحثين عن أماكن المياه المناسبة، ويعسكرون فيها، ويتم طهي الطعام التقليدي، وهو اللحم مع زعانف أسماك القرش الفاسدة بالأرز، ونادرًا ما وجدنا الحماية من أشعة الشمس الحارقة، تحت ظل أحد الأشجار الشوكية أو في ظل أحد الجدران الصخرية، وإذا حالفنا الحظ، تقابلنا مع بدو ومعهم قطيع من الأغنام، ففي مقابل خمس أو ستة وحدات من العملة أو ما قيمتها[1] (ما يعادل تقريبًا خمس ماركات)، يمكن للمرء أن يشتري ضأنًا، ولإعداد وليمةٍ بدويةٍ، يجب على كل واحد أن يساهم بشيءٍ، فيجمع البعض الأجمة، ويحضر البعض الحصى ويجلب أخرون المياه، ثم يعقب ذلك ذبح الحيوان، ويتم تعليقه من رجليه الخلفيتين على شجرة، كما يتم نزع الجلد ومده على الأرض ووضع اللحم المقطع عليه، ولتنظيف الأحشاء، والتي تؤكل أيضًا، يملأ أحد البدو فاه بالماء، ثم ينفخ في أمعاء الحيوان قدر المستطاع ويساعده واحدٌ آخر منهم في ذلك لضغط السوائل، وأما عن اللحم، فيتم تقسيمه

(١) وتتأرجح قيمة الرطل باستمرار؛ فقد ارتفعت في الفترة الأخيرة جدًّا. (المؤلف).

بالتساوي بقدر المجتمعين في المكان هنا، وما إن يتم التوزيع حتى يقوم كلُّ واحد منا بنفسه بشوي نصيبه على النار المُوقدة على الحصى، وغالبًا ما يتم التهامها، وهي نصف سوى (لم تستو بعد).

فبدو جنوب العرب، الذين قابلناهم في رحلتنا، ليسوا هم المقصودين مطلقًا بما يتصوره المرء عن البدو بوجه عام، فأجسامهم ليست ضخمة ويرتدون ملابس بيضاء متطايرة، فمعظمهم قصير ونحيف، إلا أنهم يتمتعون ببنية جسمانية جيدة، ويغلب على بشرتهم اللون الأسود، ومقسمون إلى قبائل كثيرة، منها الكبيرة ومنها الصغيرة، ومختلفون عن بعضهم بشكل كبير، إلا أنهم يحافظون على سلالتهم على أية حال، كما إنهم يُعدون من نبلاء الأرض، لأنهم يزعمون أنهم هم الأتباع (الذرية) المباشرون لجنود (أنصار) محمد صلى الله عليه وسلم، هذه القبائل والتي هي مُقسمة إلى قبائل أصغر، يراعون وبشدة شرائعهم المتواترة وعاداتهم وتقاليدهم، إلا أنهم متحررون في ممارساتهم الدينية، فهم لا يُصلون مطلقًا أو نادرًا في أحسن الأحوال، لأنهم لا يعرفون (يحفظون) القرآن، ولم يذهبوا إلى مدارس قط، فهم غير متمسكين بالتعاليم المحمدية، فلا يصومون في شهر رمضان، غير أنهم يحافظون على كلمتهم بشكلٍ مقدسٍ، ليس لأسبابٍ أخلاقيةٍ وإنما لأن خائن الوعد مهدد بعقوبةٍ قاسيةٍ، ألا وهي الطرد من القبيلة، ومن ثم يعهد إليهم المرء دون غيرهم بالبضائع النفيسة لنقلها إلى الداخل، والتي يسلمها إلى التجار بالتأكيد، كذلك فإن المسافر، يكون في حماية البدوي، الذي ائتمنه على الرحلة.

ويحكم جميعَ البدو الأشرافُ، وهم أهل المدن المرموقون، ودومًا ما ينضم إليهم بعض قبائل البدو، والذين يخدمونهم في حالة أي حربٍ بإخلاصٍ تامٍ وبلا مقابلٍ، ويؤذن البدو بالحرب باستعمالهم طبول الحرب الكبيرة المصنوعة من المعدن، والتي يمكن سماعها من على مسافاتٍ بعيدةٍ.

فالقبائل الأعلى مكانةً هي قبائل الشيكس، فلا يحملون عادةً سلاحًا، إلا الخناجر الملتوية، كما يحمل بعض منهم سيفًا طويلًا منُحنيًا مُعلقًا حول الكتف، ثم يأتي بعدهم قبائل العجيلي، فهم يحملون علاوةً على ذلك بندقية، منها ما هو حديث اليوم ومنها ما هو قديم[1]، فالخرطوش الذي يحملونه في حزامهم حول الجسم يعيدون ملأه ثانية بأنفسهم، وتعد أقل طائفة منهم المساكين، وهم الفلاحون الحقيقيون، فإنه يُقال بأنهم كانوا دائمًا خدمًا للبدو، ممّا يعني حقًّا، أنهم كانوا خاضعين لهذا الأخير.

وبجانب هؤلاء الخدم، اتخذ البدو عبيدًا حقيقيين وأعطوهم خناجر وبنادق، وبالمقابل كانوا عادة مخلصين لهم، ويسير بَدْوُ جنوب العرب بجميع القبائل مرتدين مئزرًا بسيطًا، ولا يرتدون الملابس العليا، وكذا القبعات التي تكسو الرأس، إلا الجنود العاملين في خدمة السلطان، فالبدوي البسيط يطلق العنان لشعره الطويل الأسود، بينما يقوم الشباب عادةً بحلق الجزء الأمامي، بذلك يكتسب المظهر لدى ممثلي القبائل الواحدة مظهر الهندي النمطي، وذلك من خلال تكوين جماجمهم المقببة وأنفهم المعقوفة.

فبرغم البشرة الداكنة لبدو جنوب العرب، إلا أنهم ليسوا مُصابين بالإيدز كالزنوج، فيمكن التعرف على الزنجي من خلال البشرة الفاتحة بعض الشيء لباطن الكف والقدم، بينما أيدي وأقدام بدو جنوب العرب، يكسوها اللون الأسود بشكل كلي، وهذه سمة سُلالية (وراثية)، فكذا العين بها نجمة سوداء (نن العين) ذات فتحة ضيقة، فهي صفة خالصة لبدو جنوب العرب، كما يصبغ البدوُ جفونَ العين بالكحل، وهو مسحوقٌ مصنع من الأنتمنيوم، فيجعلها تبدو كبيرة، وهذه

(١) (فلينتلوك بندقية قديمة).

الوسيلة يعرفها جميع من في جزيرة العرب.

فالصحراء مُوحشة ولطيفة في آنٍ واحدٍ، فتجعل القاطنين بها قلوبهم كالحديد (قاسية)، كما تحول عناصر القافلة إلى أصدقاء أوفياء في المخاطر الشديدة مثل العواصف الرملية أو غارات البدو، فلا يفكر أحدٌ في إنقاذ نفسه، وإنما في نجاة القافلة بأثرها، فالمجتمعات المتحضرة إذا ما هُددت فجأة بالموت، فإنهم يقعون في هلعٍ غالبًا، ولا يفكرون إلا في إنقاذ أنفسهم، هكذا لا يتصرف المرء في الصحراء.

ببداهةٍ يُناول المرء آخر قطراتٍ من المياه المتبقية مع القافلة لزميله، كما لو كان لديه أنهارٌ من المياه، إلا أن الصحراء تستلزم مزيدًا من ضبط أعصاب الإنسان، فكُلما استغرقت الرحلة وقتًا أطولَ زادت الشجارات الخفيفة، التي لا تتجاوز غالبًا طعناتٍ بالخناجر.

في اليوم السادس من رحلتنا بالقافلة، يبزغ نجمٌ سيئ، حيث نزلنا مؤقتًا على حطام أحد الأودية الصغيرة، الغير مأهولة بالسكان، ويدعى وادي حُرو، والذي أقام به فقط بعض البدو التابعين لقبيلة بيت القرزات مع قطعانهم من الماعز، فقد عسكر مرافقونا من البدو، من أجل إيقاد نارٍ شديدةٍ، حيث إن تلكم الليلة كانت باردةً للغاية، لدرجة أننا أنفسنا قد تجمدنا تحت غطائنا، فالبدوي جلد ضد الحر والبرد معًا، فينام على الأرض شبه عارٍ، وبلا أي حمايةٍ تُذكر، فلا يعرف الناس في حضرموت الخيام، فلم أُشَاهد واحدةً على الإطلاق هناك.

وفي الصباح لم نجد بعض الحيوانات، التي كانت غير مقيدة (طليقة) بالليل، وقد تسبب البحث الطويل عن الجمال الهاربة في تأخير موعد رحيلنا، فكان أحد بدو قبيلة التميمي والتي يخصها تلك الجمال منفعلًا بشدة، لدرجة أنه من غضبه قد ضرب أحد عبيده، والذي حمله الذنب بعقب (مؤخرة) بندقيته، وبأسنانٍ مهشمةٍ وداميةٍ سقط على الأرض وهو يصرخ، ولكن كنا قد سرنا بعيدًا، فلا زلنا نسمع

عويل هذا الرجل وتذمره، فلم نستطع مساعدته ولن يُسمح لنا بذلك، ولم يتمكن من اللحاق بالركب، إلا بعد ساعاتٍ، إلا أنه سُرعان ما تناسى هذه الواقعة.

لقد تصور مرافقُنا سعد أن هذه الرحلة سهلةٌ، ولأنه كان خادمًا، فقد توجب عليه السير على الأقدام، ولأنه كان زنجيًّا، فدومًا ما سخر منه مرافقونا من البدو، ولم يكن بمقدورنا الاستغناء عن مساعدته، لذا فقد وصل منهكًا إلى المعسكر، ولم يختلف الأمر كثيرًا بالنسبة لنا، ولأننا لم نَعْتَدْ مشاق الرحلة من قبل، لذا فقد لزمنا الاعتناء بأنفسنا.

لقد سرق خادمُنا سعد الخراطيش من أحد البدو، وطلب من آخر أن يعطيه سلاحه ثم حشاه ببعض الخراطيش، وشعر كأنه بدوي حقيقي، وسار بكل فخرٍ أمام راحلتي، لدرجة أنه غالبًا ما صوَّب السلاح عليَّ، وقد نصحته بشكلٍ متكررٍ أن يعيد البندقية إلى البدوي، وإلا سآخذ منه السلاح بنفسي، لذا شعر سعد بإهانةٍ شديدةٍ، بأن يحثه أحدٌ على أن يُعيد البندقية، لدرجة أنه شعر أنه قادرٌ على القفز إلى ناحيتي -وقد تراخت قافلتُنا بشدة، ولم يكن لدينا إلا ثلاثة جمال- فيقصدني ليرى بنفسه غضب الزنجي إذا ما تم استثارته، وفي اللحظة المحددة، قفز صديقي من على جمله منقضًّا عليه -أما أنا فلم أستطع التحرك، لأن الزنجي كان مصوبًا سلاحه نحوي- وقد تمكن من انتزاع السلاح منه على الفور، مما أدخل خادمنا في نوبة غضب، فأخذ يزأر في وجهنا زئير حيوانٍ مُتوحشٍ برغوةٍ على الفم: قد ود أن لو يسير في الصحراء إلى أحد البدو فيعطيه مالًا، لم يحظ به من قبل، ليحثه على أن يطلق علينا النار حيث يجدنا.

لقد اختفى بشكلٍ مفاجئٍ وتمضي ربع الساعة، فنصف الساعة، ولم يُر من سعد مثل هذا، مما أنسانا هذه الواقعة طويلًا، فالأرض هنا متُشققة، ونتواجد في

حافة الوادي، حيث يوجد من حينٍ لآخر بعض الشجُيرات الشوكية[1]، وينحني طريق سير البغال حول الصخر[2]، فيقف سعد أمامنا متجمدًا كالتمثال، وبعينين متلألئتين موجهًا بندقية صوبي، قد حصل عليها من أحد البدو، فأناديه ولا يجيبني، فأجرب معه الحيل، ولكن بلا جدوى، فقد تسلل إليّ ببطء، وسلاحه لا يزال وضع التصويب، ويشاهد البدو هذا مستمتعين، فينفد صبري أخيرًا، فننزل أنا وصديقي عن راحلتينا، ثم تدوي طلقة إلا أنها طاشت، ويلوذ سعد بالفرار في الصحراء، وسُرعان ما نلحق به، فنُحكم قبضتنا عليه بثبات عند الأذرع، ذلكم الخادم لنا سعد الضراب العضاض النواح، ونحضره إلى زعيم القافلة، والذي أوجب عليه السير مقيدًا بجانب الحمار حتى بلوغهم المعسكر التالي، وهذا سيستغرق وقتًا طويلًا، فقط في المساء تم عقد محاكمة له، فقد رأى الزعيم أن هذه الحادثة أمرٌ مُشينٌ بحق، وذلك لأن سيدًا ضامنٌ لحياتهم.

لقد حصل المواطن الزنجي في بادئ الأمر على زيٍّ ملائمٍ وعصا، ولم يُسمح لأي أحدٍ بالحديث معه، حتى الخدم الآخرين أنفسهم، وكذا العبيد، ولم يعد قائمًا على خدمتنا، كما ينبغي أن يُعزل في تريم.

لقد أخذتنا الصحراء بسحرها مجددًا، فنمتطي راحلتنا لساعاتٍ طوالٍ، بل لعدة أيامٍ في هذا الاتجاه، حتى نصل إلى هضبةٍ عاليةٍ، حيث الأودية، والتي تكون في البداية كنهيراتٍ صغيرةٍ، ثم تتدرج لتأخذ أشكالًا أكبر، وهناك تعرج كشريطٍ طويلٍ رماديٍّ، يقع في حافة جدارٍ صخريٍ، فهذا هو طريقنا، حيث التقابل مع القوافل

(١) نوع من الشجيرات خاص بالمنطقة. (المترجم).

(٢) طريق القوافل القديمة. (المترجم).

الأخرى في هذا المكان ضرب من المُحال، بمعنى أنه بمقابلتهما معًا سيُسقط أحدهما الآخر في الهاوية، فتلك الطرق ضيقة، لدرجة أن أثقال الحيوانات تتأرجح مباشرةً إلى مؤخرتها.

لقد اقتادنا السير في مساء يومنا العاشر إلى ممرٍّ ضيقٍ جدًّا، طريق يملؤه الحطام والحصى، لدرجة أن الحيوانات كانت عُرضة للتعثر، وها نحن نقف الآن وبشكلٍ مفاجئٍ على ماءٍ نقي وصافٍ بحق، وتنمو على شاطئه بساتين النخيل، فنحن الآن بإقليم حضرموت.

من على بعدٍ يسيرٍ تظهر فتحةٌ كبيرةٌ بالهضبة، وفي الضباب المتواري في المساء، نلاحظ بالمقابل الجدران الصخرية الصلبة المتساقطة عليها، وبالخلف منها تقع أحد أكبر وأروع مدن إقليم حضرموت؛ إنها مدينة تريم بأسوارها وشُرفاتها القديمة، وكذا بمآذنها البيضاء وبساتين النخيل، تقف أمامنا كمنظرٍ طبيعيٍّ خلَّاب، وقد سُمح لنا بالمرور عبر البوابة الضخمة للمدينة، وصلنا كضيوفٍ على المدينة، ضيوف عائلة الكاف، والتي كانت معاونة لنا في كل شيءٍ أثناء رحلتنا إلى هذه المدينة المُنغلقة جدًّا، فلقد منحتنا أفضل جواز سفرٍ لهذا الجزء من الإقليم، الذي تُحكم سيطرتها عليه، ألا وهو بدوها الخاصون من القبائل، التي تدين لهم بالولاء.

في إقليم حضرموت

هناك إقليم كان يُعد أحد أكبر وأقدم المدن الحضارية على وجه الأرض، وظل حتى اليوم غير معروف، ولا يعرفه الناس من الداخل، إنه إقليم حضرموت، حيث تتدفق الينابيع المحلية نادرة الوجود عبر هذا الإقليم، فقد ذكر الكتَّاب القدماء من العرب المدن الثلاثة الكبرى والتجارية؛ وهي شبام، وسيؤون، وتريم، دون أن يكون بمقدور أحدهم أن يشير بعض الشيء إلى موقع وأهمية هذه المدن، فوفقًا لتواترٍ عربيٍ أخبر به الكاتب العربي نشوان[1]، أنه قد توجب قديمًا قيام مملكتين جنبًا إلى جنبٍ في حضرموت، وهما مملكتا حمير[2] وسبأ، وفي عهد النبي ﷺ حكم هنا ملوك، والذين حملوا اسم عبهلة، وقد دخل الإسلام من خلالهم إلى حضرموت.

لقد استحوذت مراكز حضارية مثل روما وأثينا وبابليون[3]، على مركز الصدارة في التاريخ العالمي، ولا تزال حتى يومنا هذا، إلا أنه أيضًا قد اتسعت دائرة تأثيرمدن حضرموت متجاوزة حدودها إلى الخارج، إلا أننا لا نعرف إلا القليل عن هذا، كمثل أي شعب أبدع في قدرته وقوته في شخصياته وتاريخه، وكذلك الحال في حضارته، فالرموز الباقية للأجناس البشرية القادمة من عصرٍ ما، والمنسية من وقتٍ طويلٍ هي بمثابة آثار هائلة لكل الأجناس.

---

(١) كاتب ومؤرخ عربي مشهور. (المترجم).

(٢) اسم مملكة قديمة ظهرت في اليمن القديم في وقت متزامن مع ظهور مملكة (سبأ) التي وردت سورة باسمها في القرآن الكريم. (المترجم).

(٣) اسم مدينة عراقية قديمة كانت تقع على نهر الفرات. (المترجم).

فيكاد المرء أن يصف تلك المدن التابعة لحضرموت، بأنها مدنٌ عالميةٌ للفن، لأن ما وجدناه هناك من قدرةٍ صحيةٍ ناتجةٍ عن بيئتها الخاصة والمتوفرة في جميع الأنحاء، هناك على الجزيرة العربية، حيث لا يتصور المرء إلا صحراء وسلاسل جبلية جرداء، قد فاق كل توقعاتنا، حيث المباني شاهقة الارتفاع بالصحراء والموجودة منذ أن كانت تعرف أمريكا الأكواخ المتواضعة، فكل واحدةٍ من تلك المدن، من تلك العواصم الكبيرة والصغيرة، التي لا يمكن حصرها، يُقدم مثالًا معماريًّا في أسمى صوره، ويشهد على فنٍّ، لا يُمكن نسبه البتة إلى الشعوب العربية، التي يقابلها المرء هناك اليوم والناس الذين يسكنون فيها، لا يزالون بعاداتهم وتقاليدهم في مرحلة العصر الوسيط.

ففي المجمعات السكنية للفقراء أو أحياء الأغنياء، وكذا في قصور السلاطين، يجد المرء الأشكال المتشابهة وبشكلٍ منتظمٍ والتي تترك انطباعًا لا يُقاوم على كل الواقفين خارجها، وذلك من خلال نقاء أسلوبها، فلا يمكن إنكار الأصداء (التأثيرات) البابلية والآشورية[1] على الشُّرفات البارزة والجدران المحيطة وأبراج الزاوية الكبيرة والثغُور، وكذا في شكل انثناءات الأبواب، والتي بها أشكال تطل إلى أعلى باستمرار، مما يُحول أي تجمعٍ سكنيٍ إلى حصنٍ، والسبب في هذا الأسلوب البنائي الغريب، والذي بحق ليس بعربي، هو نتيجة انعدام الأمن في الإقليم، فجنوب جزيرة العرب دومًا ما ابتلي بالإغارات؛ فإغارات البدو موجودة على قائمة الأعمال، فلقد وقعتُ بنفسي في ثلاث مُناوشات مختلفة أثناء رحلتي، فكل منزلٍ وقريةٍ وكذا كل مدينةٍ، هي عبارة عن حصن مُنغلق على نفسه، فيعزز من تأمينها، وغالبًا ما يكون موقعها على أرضٍ مرتفعةٍ أو منطقةٍ صخريةٍ، ولا يبدأ وجود نوافذ عادةً إلا بالطابق الأول أما الطابق الأرضي فلا يُستعمل للسُكنى، وإنما كمخزن

(١) البابلية والآشورية هما اسمان لحضارتين قديمتين نشأتا في العراق. (المترجم).

للبضائع أو كحظيرة للأنعام، كما يتم بناء كل هذه المنازل من الطين.

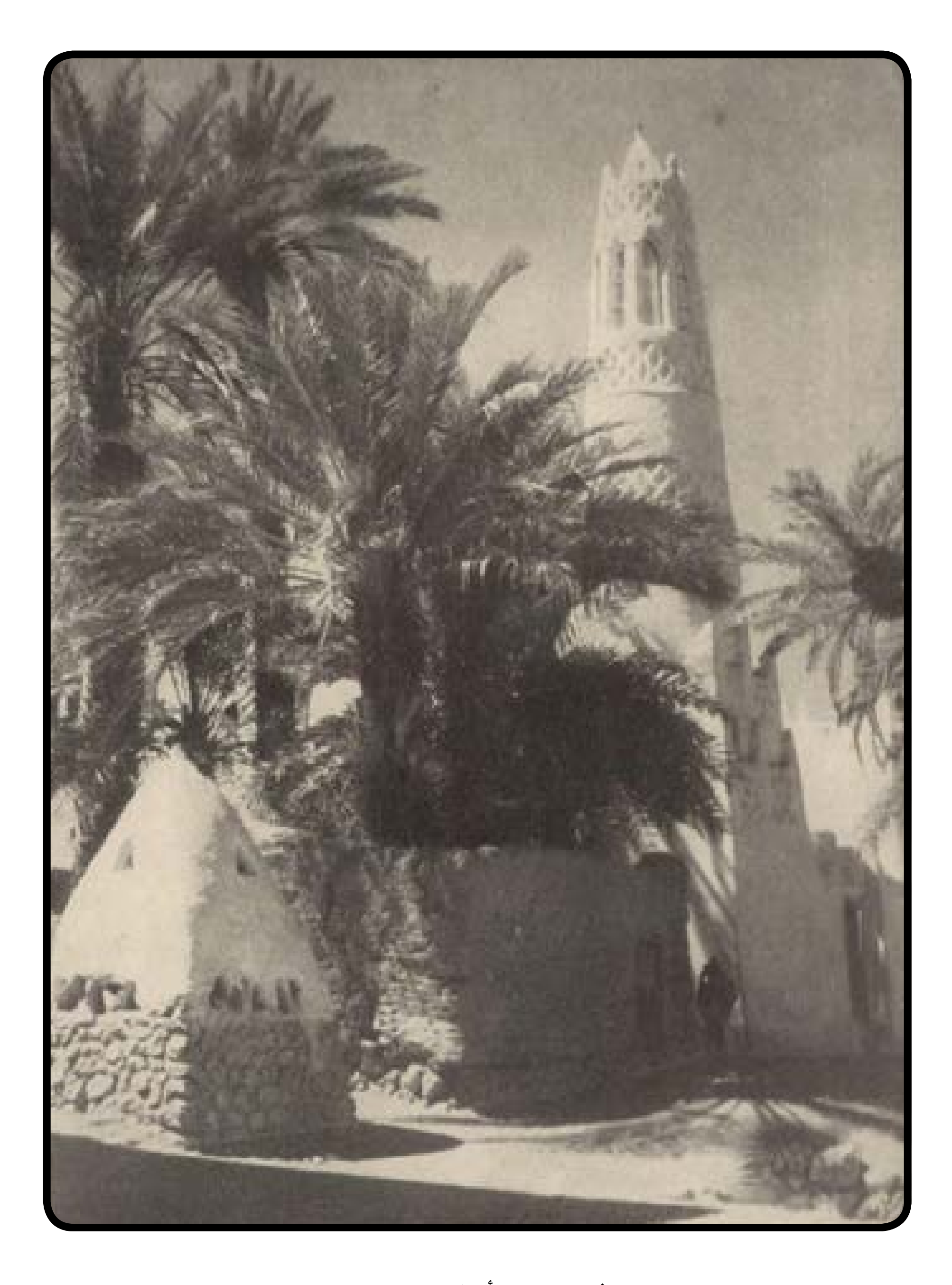
فبناء أحد هذه المنازل يتم على الكيفية التالية: حيث يأمر السلطان أو مواطن غني من إحدى مدن جنوب جزيرة العرب ببناء منزلٍ له، وكمخططات بدائية يضعها هو بنفسه كتصميمٍ يطول الحديث عنه كثيرًا مع الأصدقاء والأهل حتى يُطبق بالفعل في بناء المنزل، كما يستغرق هذا الكثير من الوقت، ليجلب العمالة المناسبة للبناية، فيصل البناؤون والنجارون، ويتم التفاوض معهم لأيام حول الأجر، ولقد ساهمت النساء في مثل هذه الأعمال (في العمل الميداني)، إلاً أنني لم أر أيًّا منهم على الإطلاق.

فالمكان الذي سيُقام فيه المنزل الجديد ممتاز، وأرخص تمامًا مما قيل للعمال، كما سيحصل أيضًا على مواد البناء اللازمة، فإمّا أن يبحث المرء بنفسه في أي مكانٍ بالوادي عن موضع به تُربة طينية خصبة، فيحفرها بعمقٍ حتى يصل إلى المياة الجوفية، والمتوفرة في كل وادٍ بعمقٍ ليس بكبيرٍ، فيستمد الماء، ثم يتم مزج الطين اللزج بقليلٍ من كسارات أعواد الذرة (الذر)، ويتم الدوس (المشي) عليها بانتظام من الآدميينَ والحيوانات، أو أن يستسهل الأمر بحيث أنه بكل سهولةٍ، وفي موضع بناء المنزل، يقوم بحفر التربة الطينية، ثم وضعها (معالجتها) في مساطيح[1] خاصة، وبنفس الحجم واللبنات التي يتم تشكيلها من هذه المادة، تُجفف فقط في الهواء، ثم تستمد صلابتها تلك من أشعة الشمس المركزة عليها، فيمكن أن تصمد المباني المبنية منها لقرون، كما شُوهد ذلك في المباني الطينية في كل من مصرَ وبلاد ما بين النهرين[2]، والتي نشأت بنفس الكيفية.

---

(١) آلة معدة لذلك خصيصًا. (المترجم).

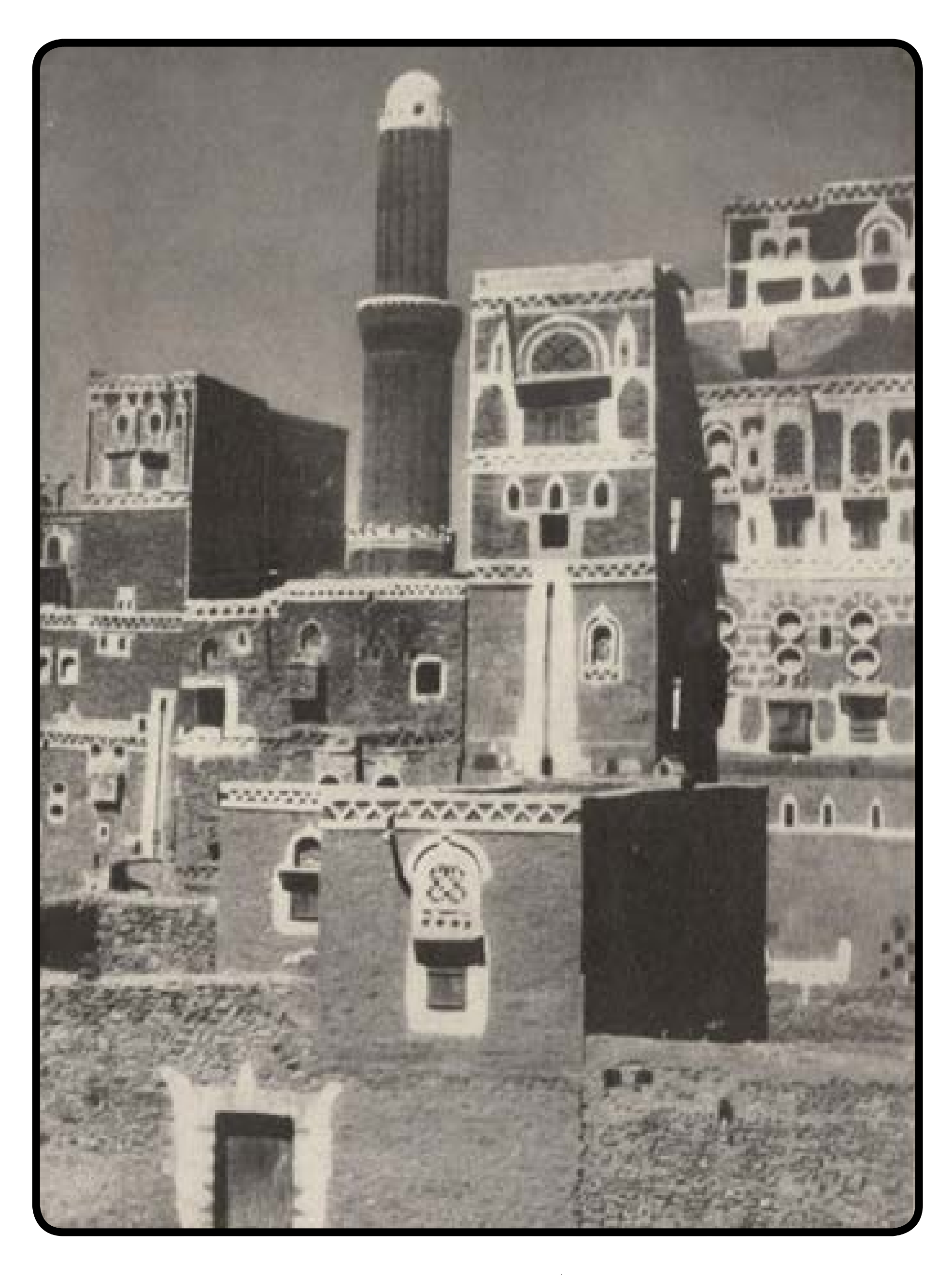
(٢) المراد بها العراق، والنهران هما دجلة والفرات. (المترجم).



مئذنة وبئر بأسلوب حضرمي

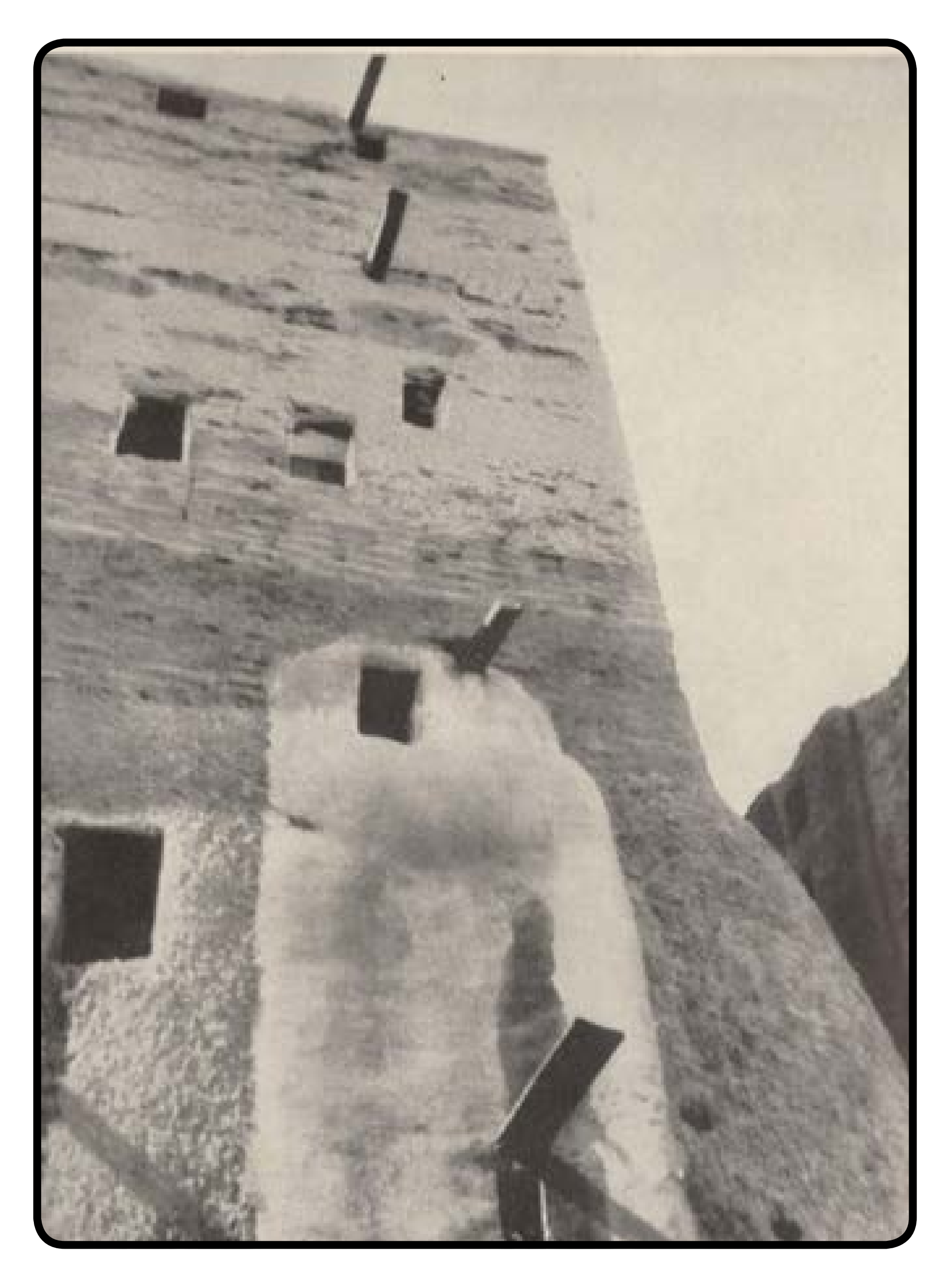


مئذنة سورية بدمشق



مئذنة يمنية بصنعاء

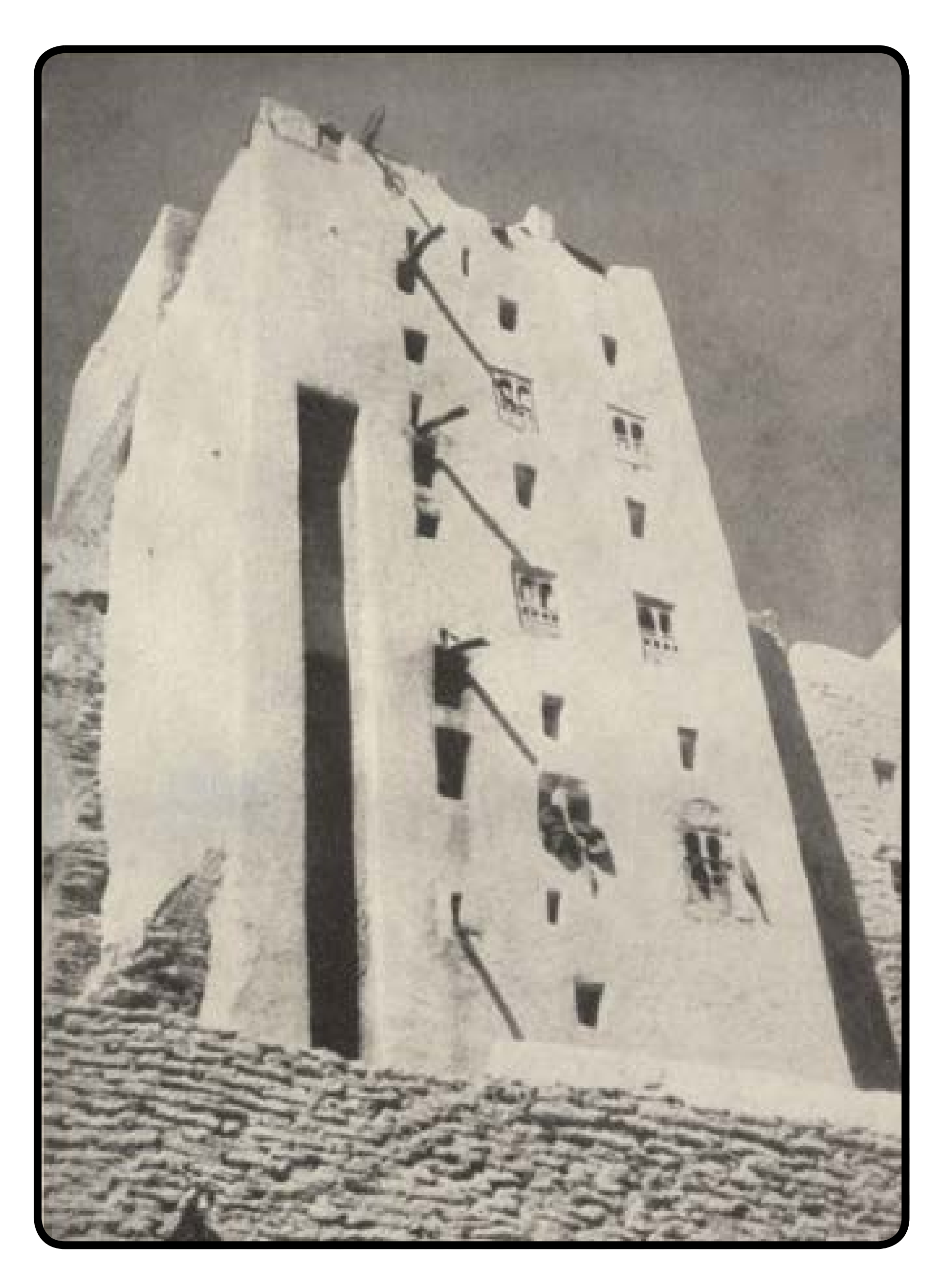
أطلال قلعة بتريم



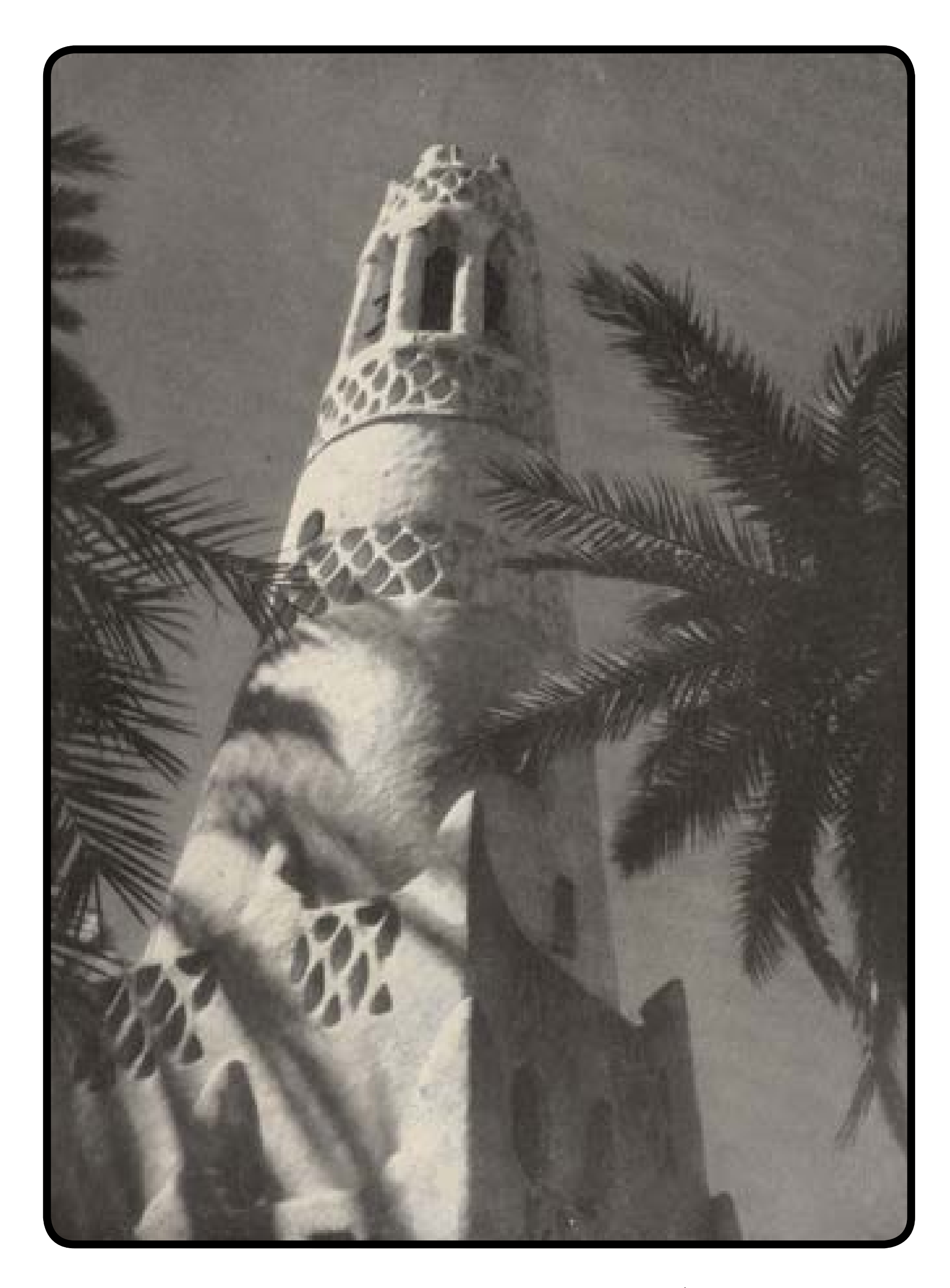
واجهة منزل بها مجرى خشبي لتصريف مياه المجاري



برج مراقبة قديم بتريم



مسكن به نظام صرف صحي بتريم



مئذنة حضرمية من الطين والجير (الحجر)



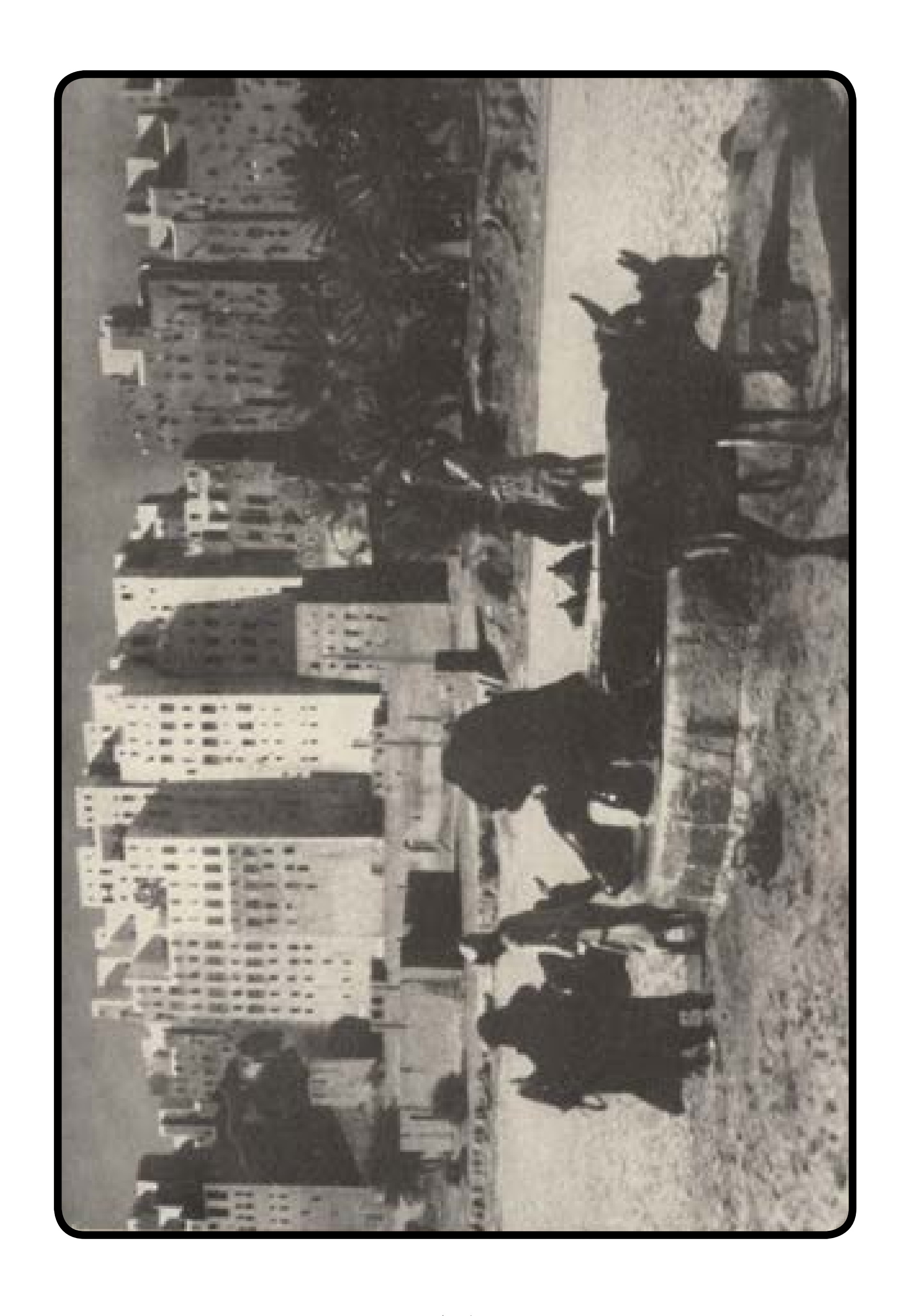
مدخل منزل القطن



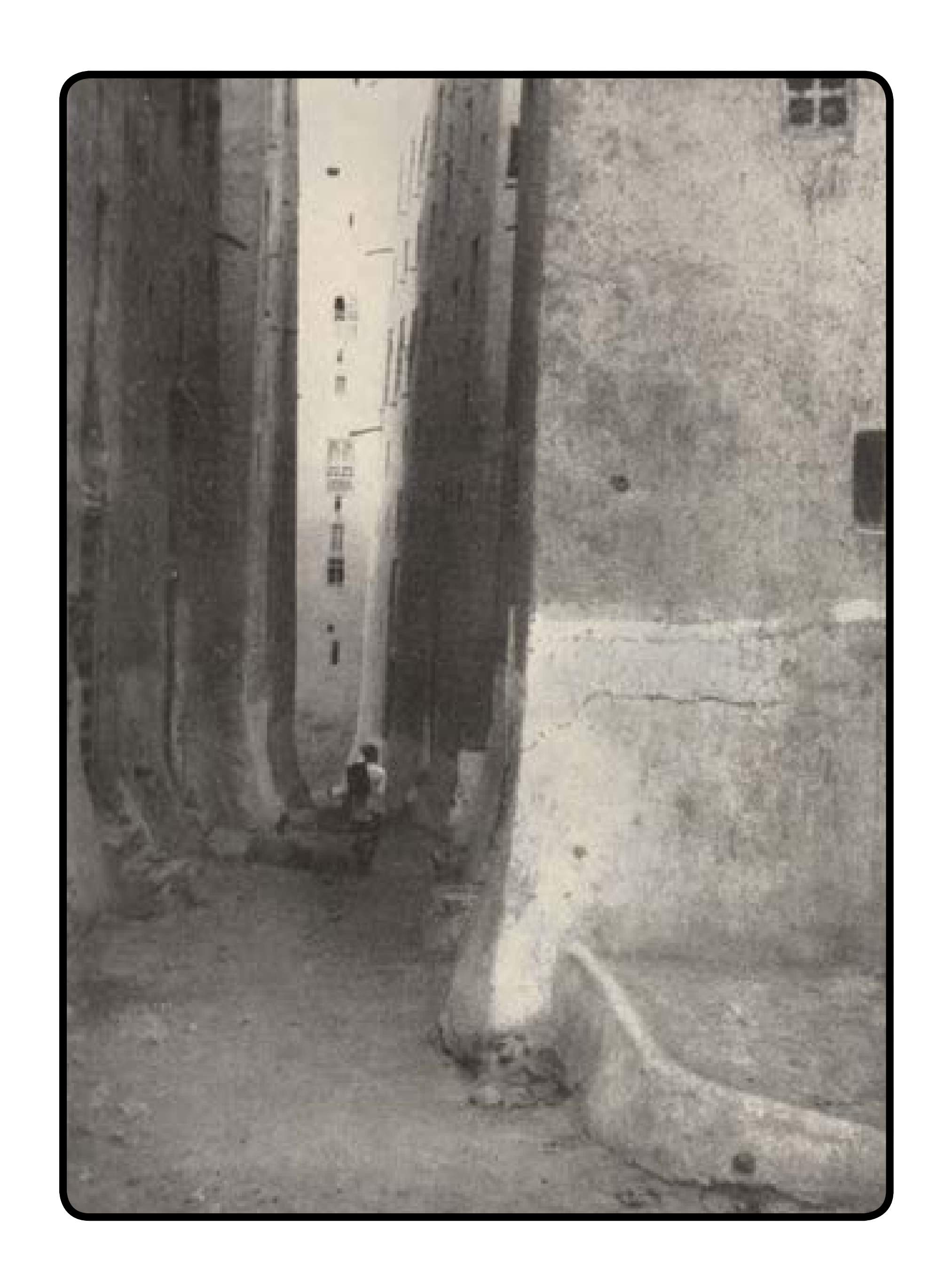
هجرين



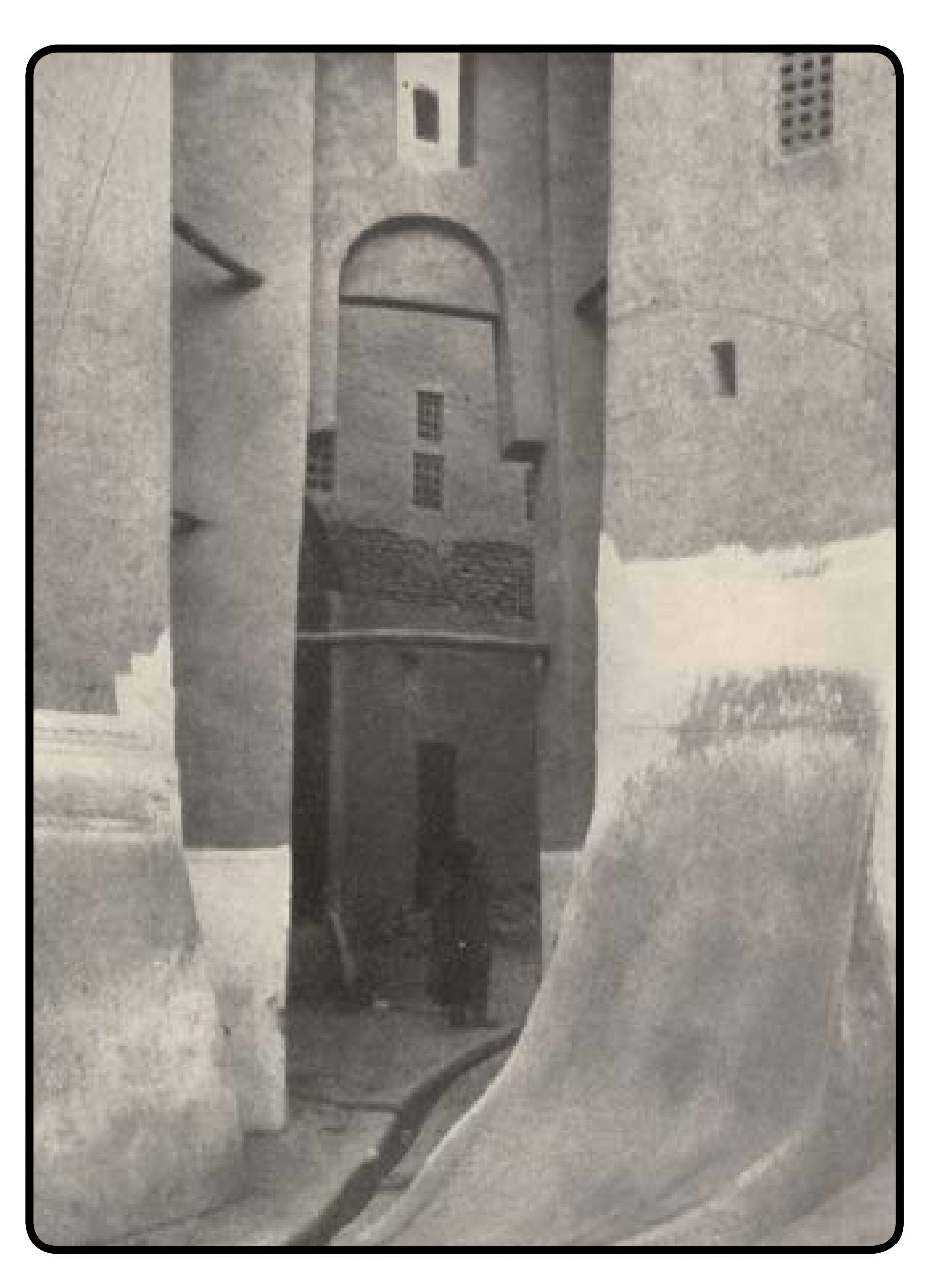
شبام



شبام



حارة ضيقة بشبام



شارع به مجرى صرف صحي بشبام



وادي حضرموت



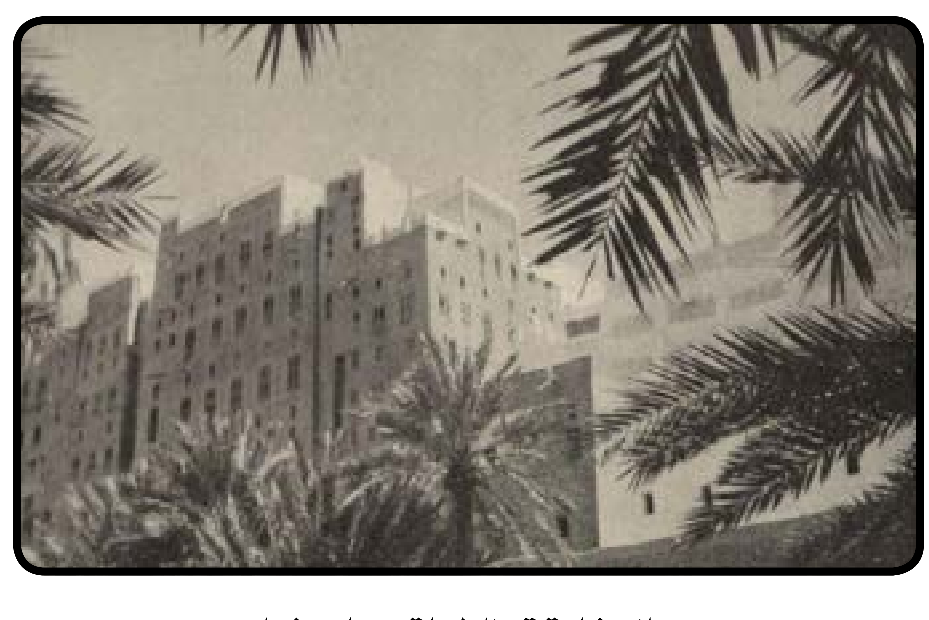
وادي هينن مغطى بعاصفة رملية



في وادي حضرموت



موقع شبام



مباني شاهقة / ناطحات سحاب بشبام



حي فجير بتريم

يتم بناء المنزل في جنوب جزيرة العرب من الداخل إلى الخارج، كما يستعمل المرء نوعًا من السقالة، التي تصنع من جذوع النخل، وبجذوع النخل يدعم المرء السقف للطوابق المنفردة، والتي تقف في الحجرة كأعمدةٍ شاغرةٍ مُزينةٍ غالبًا بنقشٍ أو بنحتٍ، ومن الأهمية بمكان من أجل تشييد بناءٍ في منطقة جنوب جزيرة العرب، وجود مزاريب (مجرى تصريف) خشبية، لتصريف المياه التي تخرج من كل غرفة، لكي يتم تفادي الماء المتساقط على الجدار اللبن (الحائط الطيني)، كذلك من الأهمية بمكان تصنيع الكلس (الحجر) الأسمنتي، الذي يطلي به المرء الأسقف وإطارات الأبواب والنوافذ بشكلٍ زخرفيٍّ، كما يتم وضع الجص السميك الأبيض كنوعٍ من الزخرفة على الجدار الطيني البني، ويتم طفي الحجر الجيري، الذي يجده المرء في جميع أنحاء السلاسل الجبلية في حفرٍ، ويتم الطرق عليها بمطارق كبيرة ملتوية من الخشب حتى تتفتت.

ونتواجد الآن بالفعل في مدينة تريم، العاصمة الحالية للإقليم، والتي تتكون منذ نشأتها من خمسة بلادٍ، أو خمسة أحياء (كما يمكننا القول)، ويقطن بها قبائل مختلفة -فيعيش سكان المدينة مع البدو الذين أصبحوا مستقرين هنا- فأهم وأكبر هذه الأحياء هو حي هوتة؛ والذي يسكنه البدو المستقرون من قبيلة التميمي، كما يوجد في جميع الأحياء الخمسة المتناثرة، قصور تتبع الإخوة الخمس من عائلة الكاف، ونحن نزلاء بمنزل السيد عبد القادر بن حسين بن شيخ الكاف، هكذا ينص الاسم الكامل للسيد عالي المقام، فيجب على سليل (عضو) الأُسرة الشريفة، أن يكون قادرًا على سرد شجرة عائلته، حتى آخر فرعٍ فيها عن ظهر قلب، وبلا خطأٍ فيها، وقد يستغرق هذا أحيانًا (خمسة عشر دقيقة) ربع الساعة، فمنذ نعومة الأظافر، قد أُشرب السيد القصة الكاملة للعائلة لأبعد ما يكون، لكي لا ينسى في حياته المتأخرة فيما بعد اسمًا مُهِمًّا من شجرة العائلة، ولأن مملكة الأسماء في الجزيرة العربية

ليست بكبيرة، كما أن أسماء الأسياد حقًّا متكررة، فيمكن للمرء أن يتصور أن حفظ أحد هذه السلاسل أمرٌ سهلٌ، وبعد شجيرة العائلة يأتي تاريخ العائلة، والذي يحميه المرء كثروةٍ نفيسةٍ، لا بد أن تكون حاضرة في الذهن دائمًا، كما إنه يوجد سلطان في تريم، تم إقصاؤه في الماضي عن الأسياد بشكلٍ كاملٍ، ويعيش في حالة عزلةٍ، كقيصرٍ سابقٍ في بلاطه الكامل المكون من أبنائه ووزرائه وعبيده، يعيش في قصر رائع في سيؤون المتاخمة[1].

لقد كان استقبالنا في تريم بودٍّ وحفاوةٍ بالغةٍ، فقد أُخلي لنا قصرٌ بأكمله، وقُدم لنا الهدايا، ولُبِّية لنا كل رغبةٍ، كما كان لدينا زيارات طوال اليوم من الصباح الباكر حتى آخر الليل، فإذا ما بقينا في الصباح على أَسرِّتنا، فهذا يعني امتلاء أرضية الحجرة بأكملها بالضيوف، الذين لن يتركونا حتى وقت الظهيرة، وإذا ما عدنا من تريض (تنزه) عبر المدينة، فهذا لم يكن بالسهل لأن خروجنا يعني الكثير لهؤلاء الناس أكثر من إيقاف موكب القيصر، وبعدها نجد وفدًا رسميًّا من الضيوف في حجراتنا والذين يجب علينا تحيتهم جميعهم والتحدث معهم، وأن نكون ودودين معهم، مثل هذا يرهق في المناطق العادية، فما بالكم في المناطق المدارية (الاستوائية) الحارة، حيث يتطلب قوة أعصاب، لعدم المعرفة بذلك، وبخاصة أن الاحتفالات الحقيقية قد تمتد لوقتٍ متأخرٍ من الليل، وهكذا بكل حبٍّ نُعامل من قبل مُضيفينا، وإن كان من بين سكان المدينة، من هو ساخط، كيف أننا كنصارى (مسيحيين كفرة)[2]، نلقى قبولًا من أحد البيوت المحمدية[3] (المسلمة)؟!

(١) لقد كان هذا في وقت رحلتي الأولى في عام ١٩٣١، أما الآن فيعيش مجددًا في تريم كسلطان حاكم، بينما انتقل زعيم عائلة الكاف إلى سيؤون. (المؤلف).

(٢) هذا الوصف قد استعمله الكاتب شخصيًّا في كتابه هذا. (المترجم).

(٣) لفظ محمدي هو لفظ أطلقه الغرب ولا يزالون يطلقونه على أتباع النبي من ﷺ المسلمين. (المترجم).

وقد عانينا فور وصولنا بعض الوقت، وبخاصة في الحرم[١] فيما نتحدث، وها نحن الآن بين يدي النساء البائسات، فالأمر بالنسبة لهن ليس سهلًا، فهن مبعدات وبشكلٍ تام عن المجتمع، وعن الحياة العامة، فيعشن في حرمهن (مسكنهن)، ولا يُسمح لهن بمشاركة الرجال في احتفالاتهم، وإذا ما فكرن في الخروج إلى الشارع ولو لمرة، وهو أمر نادر الحدوث بالنسبة للنساء المرموقات، فإنهن يستترن بنقاب أسود سميك، ولا يُرى منه إلا العينان من خلال فتحتين صغيرتين، فأن تقوم امرأة برحلة، فهذا أمر قليل الحدوث، وكأن تذهب إلى المسجد، فهذا أمر حكرٌ (مقصور) على الرجال.

كذلك نساء جنوب جزيرة العرب لسن بصحةٍ جيدةٍ أوعلى الأقل قاطنات المدينة منهن؛ فنساء البدو يعشن غير مكرهين بشكلٍ كبيرٍ، فيخرجن غير منتقبات، كما أنه ليس من السهل أن يقعن فريسةً للأمراض المدارية، وأحادي الزواج[٢] هو الأمر التقليدي في جنوب جزيرة العرب، والأغنياء فقط هم من يستطيعون تحمل بذخ وتكاليف حرم كبير بزوجات متعددة، وكيفية عقد الزواج مثلها في ذلك مثل باقي دول الشرق جميعًا: حيث يظفر الرجل بالمرأة بواسطة شرائها، ويتم هذا غالبًا من خلال إبرام اتفقات تجارية بين الوالدين، وبمقتضاها يتزوج الطفلان ببعضهما، فيبلغ الزوج أربعة عشرعامًا، بينما تبلغ الزوجة اثني عشر عامًا، وبرغم الإكراه الكبير الذي يجب على الزوجة أن تقاسيه، فإن هذا يمنحها سعادةً قليلةً: فبإمكانها اقتناء الدجاج، ولأنه من غير المحبب أن تترك حجرتها للاعتناء به، لذا فقد قام

(١) هذا لفظ يحتمل عدة معانٍ منها: قد يراد به المكان المخصص للنساء الذي لا يُسمح للرجال الغُرباء بدخوله، وهذا مقتصرعلى الدول العربية، أو تعدد الزوجات بالنسبة للأغنياء من العرب، أو جميع السيدات الموجودات في بيت واحد بغض النظر عن كونهن زوجات أو بنات أو أخوات إلخ... (المترجم).

(٢) الزواج بزوجة واحدة. (المترجم).

المرء ببساطة بتعليق عش الدجاج على جدران الحائط نفسه من الخارج، وإذا كان المرء يسكن بنايةً بها طوابق عديدة مرتفعة، فإن الدجاج الحضرمي[١] يطير ويجعل الأمر مُريحًا للناس، حيث يضع البيض مباشرةً أمام النافذة.

كيف يبدو الأمر في منزلٍ عالٍ بجنوب جزيرة العرب؟

الآن، يصل المرء عبر باب المنزل المزود بنحتٍ فنيٍّ إلى حجرةٍ أماميةٍ، ومنها سُلّم مصنوع من درجات الطين الإسمنتية، يؤدي إلى حجرة الاستقبال (مجلس)، والتي إما أن تطل واجهتها مباشرة على شُرفة، أو يتم وضع نافذة في الجهة المقابلة منها لتلطيفها، لذا تُسمى بالحجرة المرواح، وبالمقابل منها وتحت الجدار الطيني الذي به باب يقع المطبخ وغرف الغسيل، فأما المطبخ، والذي به دعامات طينية منخفضة (الكانون)، موضوع بينها الحلل (الأواني)، وأما غرف الغسيل، والتي بها قدور صلصالية (جرار فخارية) ضخمة مملوءة بالماء، وقنوات يتم وصلها إلى الخارج بمزاريب خشبية، فينساب الماء القذر مباشرة إلى الشارع، ثم تسقط هذه القذارة في وعاء، والذي يكون مفتوحًا، فعادةً لا يتم تصريف هذه المياه القذرة إلى الشوارع الرئيسية، وإنما إلى الأزقة، التي تفصل المنازل المنفردة أو مجموعات المنازل عن بعضها، والحجرات الأخرى التي تلحق بالمجلس (حجرة الاستقبال) تأخذ جميعها نفس الشكل، فجدرانها مطلية بالجص الأبيض، وأرضيتها أسمنتية، كما أن دفتي نوافذها مصنوعة من الخشب وإطاراتها مصنوعة بشكلٍ فنيٍّ من الحديد -ولا يوجد نوافذ زجاجية مطلقًا- وبها دعائم خشبية متعددة الزخارف، ومُحاطة بأركانٍ مدببةٍ وخزانات الحائط، وكذا الحال بالنسبة لمعظم الأبواب ذات الدفتين، وكل أقفال الأبواب (الكاوالين) مصنوعة كذلك من الخشب.

(١) أي الخاص بمنطقة حضرموت. (المترجم).

رغم المنحوتات الخشبية للحرفيين الحضرميين، والذين تشتهر أعمالهم في الشرق كله، فلا يوجد في الغرف أثاث، فالأرضيات مفروشة بالسجاجيد، وتستخدم الأكياس (المخدات) متعددة الألوان كمساند للجلوس، كما يتم تعليق البنادق والسيوف والخناجر المُزركشة على الجدران المكسوة بالبياض، ويجلس العرب في هذه الغرف طيلة اليوم ومعهم خدمهم، والذين هم مُلازمون لأسيادهم على الدوام، ويكونون مولعين بسماع كل حديث يُقال وينتهجونه، ويشرب المرء الشاي أو القهوة، إلا أن هذه القهوة بها خليط نوع من الزنجبيل، الذي يجعل طعمها لاذعًا للغاية، فنكاد لا نستطعمها، والبعض يضيف بعض العنبر على القهوة، والعنبر هو الإفرازات الدهنية لأمعاء الحوت، وهي عبارة عن مادة رخوة سوداء رمادية، تُوجد طافية على سطح البحر، ويكثرمجيئها بالقرب من الشاطئ، فيستعمل العرب هذه المادة النفيسة أيضًا في التعطر، ولأنهم يحبونها للغاية، فإن عبق رائحتها يهيمن على المكان.

يُحيط بمدينة تريم بستانٌ شاسعٌ من النخيل، كما أن بها أنهارًا، وتسطع منها عاليًا مآذنها البيضاء، فكنت أنظر كل يوم من نوافذ قصر عائلة أهل الكاف إلى هذه الواحة العظيمة، وإلى الجدران الصخرية البنية شديدة الانحدار، وإلى التجمعات السكنية الكثيفة لمدينة تريم، والتي يُخيم عليها هدوءٌ لا يُصدق في هذه المنطقة الريفية من جنوب جزيرة العرب، وكذا الهدوء والطمأنينة التي يُبديها الشعب، شعبٌ يوجه أقصى طموحه إلى داخله، فلا يعرف للوقت حدًّا، إنه قد أوجد حضارة ذات نقاءٍ فريدٍ، قلما يجد المرء مثلها.

نُدرك جمعيًا تناغم التخطيط لأبنيته، والتي كان من اللازم أن تتفق بحق مع المشاعر الخفية ذات الحس الموسيقي للشعب، فالموسيقى الخاصة بكل شعوب الشرق نفسها، بما في ذلك العرب والهنود والصينيون، هي أمرٌ مُحير لمعظم

الناس، ويتسنى على المرء أن لا يتجاهلها، بل عليه أن يفهمها لكي يتمكن من استشعار جمالها، حتى لو لم يهتموا وباستفاضة بأشكالهم وأسسهم؛ على أية حال يمكن للمرء أن يتعلم منها وسيجد صلات بالفنون الأخرى، وقد يصل من خلال المقارنات بموسيقى الشعوب الأخرى إلى معلوماتٍ حضاريةٍ وتاريخيةٍ ما كان يتخيلها.

وهذا فصلٌ لذاته بالفعل وعنوانه:

الموسيقى والرقص ببلدان جنوب العرب

لقد عاد السيد أبوبكر بن شيخ الكاف، زعيم الأسرة الحاكمة بحضرموت، عاد من رحلة من المكلا، وهذا الحدث يعني عيدًا، يعني عيدًا للمدينة بأكملها، لأنه في هذا اليوم تحدث مراسم تشريفية راقصة تسمى الشبواني أو الشوّاني، وهذه الكلمة مشتقة من اسم مدينة شيبان، فالشوباني هي بحق نوع من الرقص خاص بمدينة شيبان.

ففي الصباح الباكر يجوب الطبالون المدينة، وهم يطرقون وبلا انقطاع على طاسة (طبلة معدنية سميكة) ومعهم عُودان (ثقابان) طويلان من الخشب، مُحدثين إيقاعًا موسيقيًّا دون أن يُغنوا بذلك، يطلبون من سكان المدينة الذكورالمشاركة في هذه الأُمسية التي بها رقصات الشبواني، فرقصات الشوباني هذه لا تحمل طابعًا دينيًّا أو عقديًّا، وإنما عبارة عن أغان درامية وتمثيلية مؤيدة لتشريف أو مسامرة سيد ما أو السلطان.

وفي الخامسة عصرًا تقريبًا تبدأ الرقصات بموكب عبر المدينة، ويكون في المقدمة ثلاثة طبآلين، ويُمسك أوسطهم بحاجي (آلة طبل مصنوعة من الخشب ذات وجهين) يتم استعمالها دون طرق عليها، بينما يستعمل الاثنان الآخران كلاهما الطاسة، ويتبع هؤلاء الطبالين موكب الراقصين، فيتحرك قرابة المئتين إلى ثلاثمئة في صفوف يتكون كل واحد منها من ثمانية رجال، وهم يغنون ويرقصون عبر شوارع المدينة، ويحمل كل واحد منهم عصًا، يبلغ طُولها قرابة الواحد ونصف المتر، والتي يتم رميها من حينٍ لآخر وبصيحةٍ عاليةٍ في الهواء ثم يتلقفونها ثانيةً.

المسار الكامل للرقص يكون كما يلي تقريبًا:

حيث يتم وضع العصي مثل السلاح حول الكتف، وتحت أصداء إنشاد القصائد الشوبانية، يتحرك المرء واثبًا نحو الأمام حانيًا الجزء العلوي من الجسد إلى الأمام والخلف، فيثب عادةً ثلاث خطوات إلى الأمام وواحدة إلى الخلف، ثم يتوقف ويلف لفةً في دائرة وهو يرقص، ثم يرمي العصا في الهواء، ويبدأ الرقص من جديد (مجددًا). هكذا يتحرك الموكب لمدة ساعة عبر المدينة بأثرها، ودائمًا ما يتزايد عدد المنضمين حتى يتوقف الموكب أمام قصر السيد التابع لقبيلة الكاف، حيث حضرت جموعٌ غفيرة من المشاهدين، فالنساء يقفن جميعهن مرتبين في ناحية ويرتدين حجابهن، بينما يقف الأسياد في شُرفات القصر، والآن يجثو (يجلس) الطبالون والراقصون على الأرض ويربطون شيلانهم (عرفاتهم) الطويلة، والتي يتم لفها غالبًا كعمامة أو تُوضع حول الكتف، وكذلك حول الركبة والظهر، لئلا يُرهقوا في جلسة القرفصة، وفي المقابل منهم يظهر شاعر البلاط وثلاثة مغنيين، فيبدأ الشاعر بقصيدة مدح لأولي الخير من عائلة الكاف، ويردد المغنيون وبصوتٍ واحدٍ نفس الأبيات، واضعين إصبع السبابة لكلا اليدين في الأذن، وبهذه الطريقة من الغُنى، يُحدث المرء بمفرده صوتًا عاليًا للغاية، كما يوجد فرقتان متقابلتان ينشدان الشعر الشوباني، ويحيون هذا العرض في تناسقٍ متبادلٍ تقديمًا وتأخيرًا، فيتحركون راقصين نحو المنشد ويحيطونه، وقد وضعوا وبصوتٍ عالٍ العصي متجاوزةً رأسه، ثم يعودون وهم يرقصون إلى أماكنهم، فينشد الشاعر قصيدة جديدة، ثم يردده المنشدون، ويبدأ الرقص من جديد.

بعد استراحةٍ ليليةٍ قصيرةٍ يتم مواصلة الاحتفال في تمام الساعة التاسعة مساءً، حيث يجلس في شُرفة كبيرة، يكسوها السجاد بشكل تام، يجلس أفراد العائلة والمنشدون الثلاث كما يجلس الآن اثنان من الشعراء قصار القامة على الأرض، مكونين بذلك شكل مربع موجود في وسطه سراجان والعديد من الأوعية التي بها

بخور، فيشرب الشاي ويستمع الجميع إلى إنشاد الشعراء وغناء المغنين، فيحدث تنافرحقيقي بين الشعراء، لم يوقفه إلا المغنيون الثلاث، فالطرب الثابت لهذا الغرض أكثر إيقاعًا وطبيعيةً وتحررًا، مما اعتاد المرء سماعه من العرب أوعلى الأقل بالنسبة لنا.

فمعظم أشعارهم عباره عن قصائد غزل أو مرح ودعابة، والتي يقوم أحد الأسياد بتدوينها كلها، ليضمها فيما بعد لمكتبة عائلة الكاف، والذي وعد أن يمليني في اليوم التالي إن شاء الله بعض الأشعار، إلا أن الله لم يرد هذا على ما يبدو. فعلى النقيض تمامًا من الموسيقى الفنية للحضر إن جاز التعبير، نجد قصائد وأغاني البدو كموسيقى كل البدائيين، وهكذا يكون بدو جنوب جزيرة العرب، لا تمت إلا بقدرٍ ضئيلٍ إلى حياتهم الأخرى، فيكاد لا يعرف البدوي اهتمامًا يواكبه بتعبيراته الموسيقية، من ذلك ينتج قصائد الجمال الكثيرة التي يغنونها في ترحالهم أو تلك التي تُغنى في الأعياد والاجتماعات، فالفن أو الموسيقى وكذا فن العمارة لا تتأتى لدى هؤلاء الناس من خلال إبداع فنان بعينه، وإنما من خلال التعبير الحياتي اللازم لقبيلة ما، أو لشعب بأكمله فمن هذا المحيط بأكمله، أعني طبيعة منطقة جنوب العرب، قد نشأت على ما يبدو تلك الهتافات والقصائد الغريبة لحث الجمال على المسير، كالتي يسمعها المرء من أفراد عائلة الشيباني أو التميمي وكذلك من بعض القبائل الأخرى، فتلك القصائد هي نوع من الغناء البكائي بصوتٍ متقطعٍ، وذات لحنٍ ثالوثيٍّ نقيٍّ، فهي أمرٌ نادرٌ لدى الآسيويين، أن يتحول صدى صوتهم في الأودية الضيقة والعميقة إلى وترٍ موسيقيٍّ رائعٍ، ومن ثم فإنه شيءٌ لا يصدقه عقلٌ، أن تقترب قافلتان في الأودية الشاسعة ويسمع المرء من بعيد وتر صدى الصوت الطويل للبدو، فمن المؤكد قد أحدثت المؤثرات الصوتية للسلاسل الجبلية هذا الوتر الموسيقي، كما لا يوجد تعليل بالفعل حول نشأتها، فأصلها لم يتم إيضاحه

حتى الآن، فشعوب أخرى كسُكان جُزر المحيط الهادي، يأتون إلى هذا النوع من الموسيقى البكائية في محاولة تقليد آلة هوائية.

على المرء بداية ألَّا ينتظر أعمالًا فنية ذات أسلوب راقٍ فيما يخص موسيقى الشعوب البدائية؛ لذا فإننا نرى أن معظم الموسيقى الموجودة في وقتنا الحالي، تكاد تختلف تمامًا عما كانت عليه في السابق، فكثير من أغاني الراعي في الصحاري العربية هي بقايا نمط موسيقي لطرازٍ قديمٍ تم تناقله عبر الآلاف من السنين، وهذه الموسيقى حديثة الوجود وموجزة في الموضوع، وتعبر بشكلٍ محدودٍ عن محتواها وشكلها، وباستمرار يتم تكرار مقطع قصير موسيقي بنغمة الصوت نفسها، وقد تمكنتُ بالفعل خلال أسفاري الكثيرة في شمال جزيرة العرب من تسجيل الكثير من أغاني الراعي هذه؛ حيث سجلت أغاني الزفاف، فأغاني الأفراح تلك والتي لا يُغنيها إلا النساء، يتخللها بلا انقطاعٍ الزغاريد بصوتٍ عالٍ وصاخبٍ، وقد تطلب العمل بالتصوير المزيد من الجهد والصبر، والذي قُوبل بسوء ظنٍّ كبيرٍ في البداية.

واقعةٌ صغيرةٌ والتي حدثت معي بشكلٍ مماثلٍ كثيرًا أثناء أسفاري، يوضحها الموقف التالي: لقد كانت غزالة مُغنية كبيرة ومحبوبة كثيرًا في قريتها، ولقد طلبتُ منها عمل تسجيلات صوتية من أجلي، إلا أنه أيضًا قد حضر آخرون، والذين قد أتوا إما حبًّا في الاستطلاع، أو أنهم تصوروا أنه قد يحدث في اللقاء أمر يشينهم، لذا فقد آثروا حضورهذا الحدث الكبير، والآن كلنا مجتمعون ونجلس في شكل دائرة حول الآلة، وهنا انتفض أبو يوسف ممسكًا بقلمه، ليدون الكلام، إلا أن غزالة لم تُغني، مع أنها كانت تريد ذلك بالفعل، حيث أنها شعرت بأن الآخرين الجالسين حولها يشعرون بالغيرة منها والحقد والحسد عليها، فلا يفرحون أن تحظى بصيتٍ كبيرٍ كشاعرةٍ هنا.

يقول لها أحمد وهو شخصٌ ماكرٌ جدًّا: «إنك ساذجة؛ ألا تعرفين إذًا أن في هذا الشيء جنٌ مخفي، يسلبكِ صوتك إذا ما غنيتِ في هذه الآلة، لدرجة أنه لن يكون بإمكانك بعد سبعة أيام إخراج صوت من حنجرتك؟»، فأناشدها ألا تصغي حقًّا لهذه التُّرهات مطلقًا، وقد يمكنها أن تسمع صوتها الخاص فورًا، مثلما سنسمع جميعًا هذه المقطوعة الموسيقية، التي سأعزفها لها، فيعجبها ذلك، كما أعدها بأجرٍ مناسبٍ نظير جهدها، فيعجبها هذا أكثر.

وها نحن الآن وبعد مضي أكثر من ساعتين من الاستعدادات للتسجيل، قد انفك السحر ليس فحسب لغزالة، وإنما أيضًا للآخرين، فأصبح لديهم رغبة أن يعرضوا براعة أغانيهم، فتبدأ التسجيلات ويلقى هذا تجاوبًا من العرب فكدت لا أستطيع منع تدفقهم، فموسيقى البدو حالهم في هذا حال جميع البدائيين لها علاقة وطيدة بحياتهم الأخرى واهتماماتهم، حيث تنبع من فطرتهم وتصوراتهم الحياتية ولأنها ليست مُتدرجة لدى تلك الشعوب البدائية، فإنها تظل أيضًا وبشكلٍ مُباشرٍ في حيز فهم قبيلةٍ واحدةٍ بعينها، فيعرف الأعضاء الفرديون لكل مجتمعٍ الآخر معرفةً جيدةً، كما يعرفون كل الفروق الشخصية، وكذا الأوضاع الفكرية والجسدية لكل واحدٍ منه، فأُفقهم محدود لدرجة أنه من الضروري لكل تعبيرٍ فنيٍّ أن يحدث في إطاره، ومن ثم فإن الموسيقى لدى هؤلاء الناس لا تتم من خلال القدرة الإبداعية لشاعرٍ مرورًا بالآخر من الشعراء الناهضين، وإنما من خلال التعبير الحياتي الضروري لقبيلة بعينها.

يعتقد البدائي أن كل الظواهر الطبيعية كالعواصف الرملية والجفاف وأسراب الجراد قد أرسلها الجن، والوسيلة الرئيسية لطردها بجانب البخور هي الرقص والأغاني وصوت الآلات المُثيرة بقدر الإمكان، فالأكثر تأثيرًا في هذا الصدد هي الآلات الإيقاعية المختلفة وآلات الزمر والكلارينت المُزدوج (المزمار)، ومن

أجل الوصول بالأغنية إلى مستوى غير طبيعي، يتم ضبط الصوت بطريقة فنية، وهي وسيلة كانت تُعرف في مصر القديمة، وذلك من خلال رسوم حقيقية واضحة المعالم ومُثبتة من القرن الأول قبل الميلاد، فمن خلال رفع جناح الأنف لدرجة ظهور عظمة الوجه (الجبين) وجذر الأنف متجعدين، يتم إنتاج صوت أنفي قوي، بينما يُحدث وضع اليدين حول الحنجرة وبتأثير متبادل ذبذبة الصوت، ويزعجنا بداية نحن الأوربيين هذه النغمة الأنفية؛ وعلى المرء أن يتدبر أن الموسيقى بالنسبة للشرقيين ليست جميلة أو قبيحة، وإنما قد تسبب آثارًا جيدة أو سيئة.





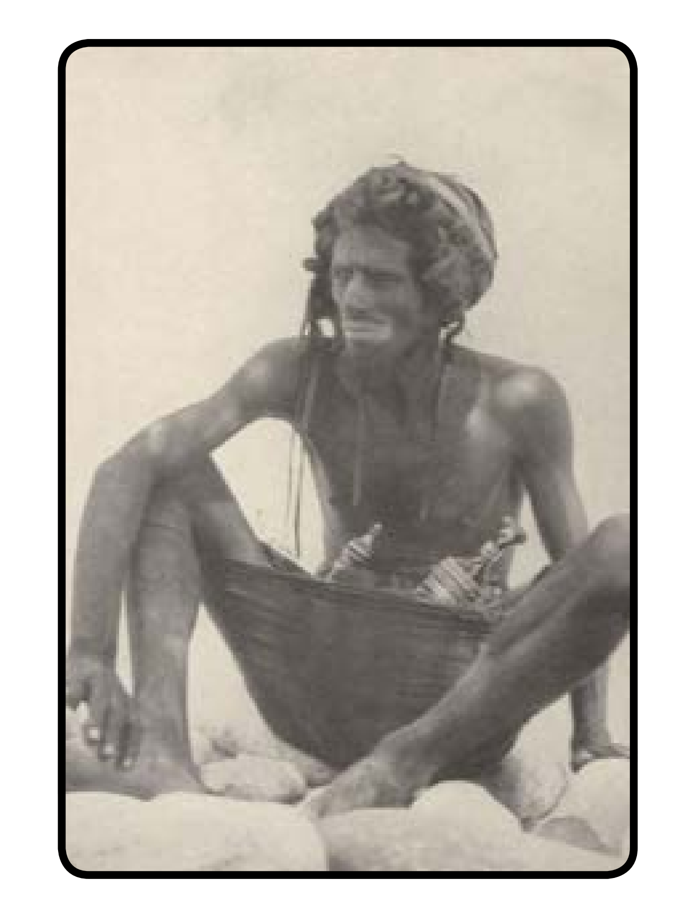
وجه بدوي من حضرموت



شاب بدوي من مكلا



بدوي من قبيلة التميمي





عائلة بدوية من قبيلة (المعدي)



جندي من مكلا



بدو الشيخ زبيدي



صياد بدوي



جندي تابع لسلطان سيئون (الكُثيري)





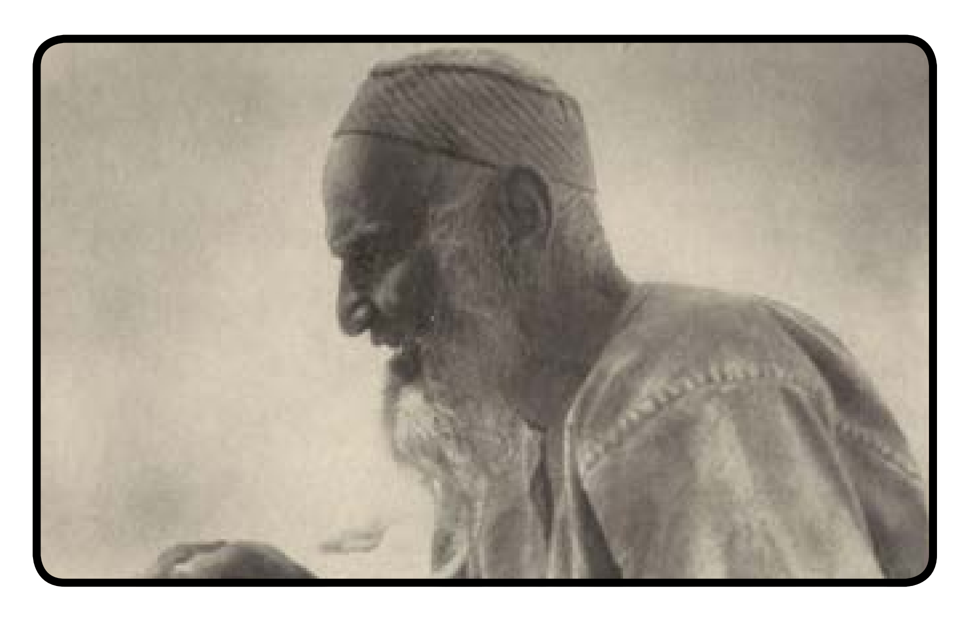
بدوي من هينن وآخر من دوعن



فتيان بدويان من قبيلة المعدي



جندي حراسة تابع لسلطان المكلا



نموذج يمني



هجين (أطفال من أبوين ذوي أصول عرقية مختلفة) من سيئون

بشكلٍ نفسيٍّ أصبحت طاقة الأصوات بالنسبة لنا أمرًا غريبًا تمامًا، كالتي يظهرها العرب في صلاتهم وطقوسهم الدينية، إلا أنه علينا ألا نتجاهل حقيقة وضع كل ما ليس بأوروبي من موسيقى ما هو إلا إمكانية وضع تفهم تقريبي معها، فكل من عايش بشغف مثل هذا العمل الموسيقي لساعاتٍ طوالٍ مرة، ولاءمه هذا العبث النادر والغريب، فلن يقوى على مقاومة هذه القدرة العجيبة التي لا يستطيع البشر ولا الحيوانات مقاومتها.

وبالمقارنات التي نجريها لاحقًا بين التصاويرالخاصة بجنوب جزيرة العرب، وكذا الموسيقى الأخرى العربية يتضح بشكلٍ عجيبٍ، أن موسيقى سكان جنوب جزيرة العرب تتطابق بشكلٍ كليٍّ مع موسيقى البرابرة المنحدرين من جنوب المغرب، فموسيقى البرابرة -وهم شعبٌ دافع عن نفسه طويلاً ضد كل تأثيرٍعربيٍ- لا يمكن إغفالها بحق، فهي تبعد كثيرًا عن الموسيقى العربية الحقيقية في البنية والتركيب، وكذا في الزغاريد المنتفخة البينية والعجيبة.

فمسألة تاريخ سُلالة البربر، لا يزال غامضًا حتى الآن، فتمثل هذه الملاحظات عاملًا مهمًّا في السؤال عن أصل البربر، كما تساعدنا حقيقة أخرى في هذا المقام؛ وهي ملاحظة المنازل الطينية العالية السالف ذكرها في منطقة جنوب جزيرة العرب، حيث توجد في جبال أطلس الشاهقة وعلى حافة الصحراء ناطحات سحاب مماثلة بشُرفاتها وأسوارها ومنافذها ما يدل على وجود أصلٍ مشتركٍ واضحٍ، فيتساءل المرء كيف أنه من الممكن في نقطتين متباعدتين للغاية من العالم وجود هذه الإبدعات الهندسية المشتركة والعجيبة، وكذا العناية الموسيقية المشابهة بشكلٍ تامٍّ، والتي لا يوجد لها مثيلٌ على الإطلاق في الجزء المتبقي من الجزيرة العربية ولا في أفريقيا، فمن المُستبعد أن يكون قد جلب العرب هذه الحضارة من جنوب الجزيرة العربية

إلى شمال أفريقيا في غزواتهم والتي بدأت في القرن السابع الميلادي، إذا لما وجد المرء هذا في المغرب فحسب، وإنما في أجزاء أخرى مماثلة من شمال أفريقيا، فضلًا عن ذلك فقد تمرد البربر ضد أي تأثيرٍ عربيٍّ.

هناك نظريةٌ جديدةٌ من بول أودينوت[1] (يعتبر فيها البرابرة كنعانيين، قد يكونون هاجروا في عصر مُبكر إلى المغرب، على أية حال فإن هذه الاكتشافات والإثباتات في جنوب جزيرة العرب هي بمثابة دليل غير مباشر على أصل البربر المنحدر من أصل آسيوي، وربما هذه هي أهم وأشيق نتيجة توصلتُ إليها في بعثتي الاستكشافية هذه إلى جنوب جزيرة العرب)[2].

(١) هو شخص فرنسي عسكري مؤلف وكاتب كان مهتمًّا بشئون المغرب وعاش في الفترة ما بين عامي١٨٨٤– ١٩٥٨. (المترجم).

(٢) انظر في هذا الصدد أيضًا هانز هوليفرتيز (بلد بلا ظلال)، لايبزغ ١٩٣٤. (المؤلف).

قصر الخرافات (الأساطير)

لا يوجد في جنوب جزيرة العرب بأثرها، بناء بهذه المساحة الشاسعة وجمال الشكل المتناهي من قصر السلطان علي بن منصور الكثيري في سيؤون، فهذا القصر يبلغ عمره أربعمئة عام؛ وهذه المدينة سيؤون هي الأكبر في وادي حضرموت، حيث يبلغ عدد سكانها قُرابة العشرين ألف نسمة، ويقطنون في حوالي ألف وتسعمئة منزل، وتبعد مسيرة يوم عن مدينة تريم، كما تعد سيؤون مكانًا قديمًا وجديرًا بالاحترام بإقليم حضرموت، حيث مساجدها الرائعة القديمة، والتي لا يزال باقيًا منها قرابة خمسين مسجدًا، وكذا أسوارها وقصورها القديمة، كما إن مقبرة المدينة والمقامة منذ وقت بعيد بها العديد من المقابر المتهدمة وقبب الأولياء[1]، كما يجد المرء في هذا المحل أيضًا قبر الكثيري الأول، الذي قدم إلى حضرموت وهو السلطان بدر بو طويرق، فينبغي أن يكون قد وصل هذا السلطان من منطقة صنعاء باليمن في عام ألف وأربعمئة وتسعين وبرفقته قرابة عشرة آلاف رجل من بدو قبائل الهمداني المتعددة، والتي ينتسب إليها أصلًا أفراد عائلة الكثيري، وقد قاموا بغزو بلدان حضرموت ودوعن وصولًا إلى هينن، ومنذ عام ألف وتسعمئة وثماني عشر، تقع سلطنة الكثيري مثلها في ذلك تمامًا سلطنة القعيطي تحت الحماية الإنجليزية، وقد تم إبرام اتفاقية حينذاك، مفادها أن لسلطان سيؤون إمكانية الحكم في تدبير كل الشؤون الداخلية، دونما تأثير من الحكومة الإنجليزية، بينما فيما يتعلق بالسياسة الخارجية فلا بد من أن يُدار من قبل الحكومة البريطانية.

---

(١) هذه الألفاظ وما شابهها مثل ضرائح الأولياء يكثر استعمالها عند أنصار المذهب الشيعي وكذا المتصوفين في عصرنا هذا. (المترجم).

في سيؤون يوجد بجانب السلطان علي بن منصور عائلات نبيلة مرموقة مثل عائلة الكاف، والتي استوطنت في سيؤون قبل عام ونصف فقط، وكذلك العائلات الشريفة المستوطنة منذ القدم كعائلات الحبشي والعيدروس والسقاف، فتأسست المساجد الكُبرى ذات المآذن البيضاء، وكذا أنظمة ضخ المياه الجوفية (نوافير المياه) من سقاية مبيضة نظيفة وتغطيها قبب عالية، والتي يجدها المرء في جميع أنحاء حضرموت، فهذه السقاية ليست بحق بئرًا، وإنما عبارة عن حوض مستو، والذي يسمح من خلال أساسه التكعيبي الشكل بانحناء القبة عليه، فمن خلال فجوة معينة فقط يمكن الوصول بمغرفة (كبشة) خشبية إلى الماء، وهذا الماء يتم جلبه غالبًا من بعيد في صهريج، وتكمن في صيانة هذا البئر قيمة العمل الخيري.

يستجلب الشرفاء من سيؤون مثلهم في ذلك تمامًا شرفاء عائلة الكاف، يستجلبون أموالهم من المؤسسات الكُبرى في جاوة وسنغافورة ويُفيدون بقدر كاف منها السكان الفقراء، فقد حكى بالفعل حيرش (هو اسم لشخص إلا أن المقصود به لغويا الأيل أو الظبي) عن حبيب الحبشي، أنه كان لزامًا عليه أن يستضيف سنويـًا ستة الآف شخص دفعة واحدة، وإمدادهم بالأرز واللحم فكانت هذه الأعمال النافعة كثيرًا على أية حال سبب شعبيته، لذا فقد علا صوت البدو مجددًا، لأن من يُطعم الشعب، يملكه في يده[1]، وهذا من الأهمية بمكان في حالة الحرب، غير أن هذه الأوقاف قد تؤدي إلى تنافس خطير، كأن يشيد أحد الأشراف على سبيل المثال مسجدًا في محله، فيتدفق جميع الناس إليه وبهذا يكون الشريف سعيدًا إلى أن يبني آخر متحديًا إيَّاه، والذي يفوق مسجد الأول جمالًا ورونقًا فينتقل المرتادون غير الأوفياء بالطبع إلى المسجد الجديد، فيغتاظ الشريف المهان بسبب هذه المنافسة غير الشريفة فيحاول أن يحطم عدوه، ولا ينجح في هذا إلا بالاستعانة بإحدى

(١) هناك مثل مصري شائع نصه (أطعم الفم تستحِ العين) (المترجم).

القبائل البدوية، فمثل هذا الأمر يمكن أن ينتهي بضرر يسير، حتى إنها عادة ما تنتهي بمناوشات خفيفة.

ليس بإمكاننا أن نشتكي من سلطاننا، فلقد أعد لنا السلطان عليّ الطيب في قصره، الذي تدور حوله الخرافات بكامل حجراته، والتي اتخذنا منها مسكنًا لنا ولجنودنا ولخادمنا سيد، إنه برفقتنا مجددًا، هذا المحتال الصغير، فبحيلة ودهاء فَهِمَ كيف يظهر لدى شرفاء تريم بشكل جيد وبسبب عائلة الكآف حدث تصالح كبير معه؛ فكان من الأفضل له ألا يتم مواصلة الحديث عن هذا الأمر، الذي وقع منه حينذاك في الصحراء، فسيد الآن خادمنا من جديد، وهو مطيع كالحمل الوديع -فيفعل الشيء مهما كلفه الأمر- ويبدو عظيمًا كأمير، فهو من الآن فصاعدًا يمتطي ظهر جمل، والذي استأجره مقابل مال؛ فعلى ما يبدو أن صفقاته الجانبية الصغيرة في تريم كانت مربحة جدًّا، فيجب على المرء أن ينصت مرة للكلام المنفعل للخدم والبدو والجنود، ففي كل عبارة يرد ذكر كلمة فلوس ست مرات على الأقل، وفلوس تعني نقود، ولا تزال تلعب النقود في جنوب جزيرة العرب الدور الأكبر، فنعيش الآن بالتناوب لدى السلطان عليّ وسلطان تريم، الذي يحيا حياة هادئة في سيؤون، فكلاهما يريد أن يحظى بشرف استضافة هذه الزيارة الأوروبية النادرة إلى سلطنته.

أما أحدهما فعاشق للأسلحة، حيث يقتني في قصره مجموعة لا بأس بها من بنادق الفلينتلوك القديمة العربية، وكذا سيوفًا كبيرة منحنية، والتي يتم حملها حول الكتف، وكذلك خناجر فضية ومزينة بشكل رائع وذات قرون، وكذلك أغماد خناجر فضية، وفي مقابل خريطة عربية، والتي أسعدته كثيرًا، قد أهداني خنجرين ثمينين وبندقيتين من نوع الفلينتلوك.

أما الآخر فمحب للمزارع بشدة، حيث يحيط سيؤون كلها إكليل من غابات النخيل والبساتين، والتي يخص معظمها السلطان، فلقد قادنا هو بنفسه ولساعات

طويلة في هذه البساتين الرائعة والزاخرة بنباتات الميموزا والأثل[١] والرومان وأشجار النخيل، كما يتم الاعتناء فيها ببعض أصناف الخضراوات والأعشاب الطبية، ويقع على عاتق بدو قبيلة العمري الاعتناء بهذا، فتعتني نساؤهم وفتياتهم بشكل أساسي بروي الأرض والزراعة، فبمساعدة محطات الضخ بدائية الصنع، والتي يتم استعمالها منذ ألف عام، فتمد النباتات والأشجار بالماء المنتقل عبرالصهاريج في قنوات مقورة، والتي تصل بانحدار طفيف إلى الأرض، فتتكوم محطة ضخ المياه من سقالة خشبية بسيطة والتي بها حبل يسير فوق بكرة، كما يوجد فوق العلبة حقيبة جلدية كبيرة؛ فمن خلال الحيوانات الجارة أو قوة الإنسان يتم سحب الدلو إلى أعلى، وبالتالي يسير الماء الخارج بمسنوب مائل والذي حفره المرء في الأرض إلى الأمام، وما إن يصل إلى أعلى حتى يتم تفريغ الدلو بشكل تلقائي في قناة الري، هكذا هو الحال (يمضي) اليوم كله بين صرير البكرات الخشبية الشنيعة كنوع من الموسيقى الذي ينتمي حتمًا إلى طبيعة حضرموت.

فسكان الريف من الإناث القاطنات بهذه المنطقة سافرات الوجه (غير متحجبات) فهن يرتدين قبعة من القش تُسمى الموال، أو أن شعرهن مغطى بمادة مطاطية وملفوف بشكل منظم ومربوط، فتطيب نفس الجميلات منهن لدى التزين، فهو يمثل شعبية خاصة، فيضعون الكحل بشدة حول جفون أعينهن، كما يتم دهن الوجه والأيدي والأقدام بالزهور ذات اللون النيلي والأزرق وتزيينها، حتى إن بعضهن يقمن بطلي جميع أجزاء الجسم المُغطاة بخلاصة جُذور الكُركم الزرقاء، كما أنهن يرتدين إما ملابس سوداء طويلة أو ملابس نيلية زرقاء والمزودة بحزام فضي حول الخصر، وهن متعلقات حرفيًّا بالحُلي المصنوع من الفضة أو النحاس الأصفر، فإذا ما خرجن فإنهن يحملن كل حُليهن معهن، فيرتدين أساور سميكة

(١) من أسمائها (الطرفاء) وهي شجرة نحيلة الأغصان. (المترجم).

حول اليد والقدم (خلخال) وقلائد وتمائم، كما يرتدين حلقانًا في الأذن والأنف، فالأعجب من هذا هي تلك السلات الصغيرة المصنوعة من الجلد اللاتي يحملنها حول أكتافهن حتى أثناء عملهن، والتي عادة ما يكون فيها إما طفل رضيع أو حمل حديث الولادة لا يقوى على المشي، فإذا ما أصبح الحمل شاقًّا عليهن، فإنهن يقمن بتعليقه لبعض الوقت على شجرة.

فالأمهات لديهن قلق حول أطفالهن الصغار، لذا فلا يحضرونهم إلا بمأمن، وبخاصة إذا ما اقتربت منهم، فلا أحد يعرف مطلقًا أن هذا الرجل الأبيض ليس لديه هذه النظرة السيئة حقًّا، فإذا ما كان الطفل مسحورًا، فيلزمهم الذهاب في هذه الحالة إلى أحد الأولياء، ليخرج ما بالطفل من سحر، وهذا يكفل بالطبع مالًا، مالاً كثيرًا؛ لذا لم أتمكن ولا مرة من تصوير أم ومعها سلة أطفالها، فلم أنجح في هذا إلا في أسفاري الأخيرة.

أتصور أنه من المناسب في هذا الصدد ضرورة الإخبارعن التصوير في هذه البلدان، فمعظم الصور التي عدت بها من رحلتي هذه إلى وطني، وجب علي التقطاها خلسة (دون ملاحظة أحد)، فأفضل خبراتي فعلتها بلايكا[1] حيث هيأت للواحد إمكانية التصوير في أي وقت، فحجمها صغير لدرجة أنه يكاد لا يعتبرها السكان الأصليون آلة تصوير، فآلة التصوير هذه أيضًا مناسبة وبامتياز في الشوارع الحيوية وكذا في التصوير من قرب، ولا سيما أنه على المرء لدى التصوير في هذه البلدان أن يتم هذا بسرعة فائقة، فلا يسمح له بالإمعان طويلًا، وإنما عليه التقاط الصورة في الوقت المناسب، من خلال هذا يكتسب العمل التصويري جاذبية متناهية، حيث يسمح للفرد للوصول إلى إمكانيات جديدة.

---

(١) اسم آلة تصوير ألمانية الصنع ومقر الشركة ألمانيا والتي تأسست في عام ١٨٤٩. (المترجم).

كما يلعب الاختيار الصحيح لمادة التصوير دورًا مهمًّا، فقد فعلت أهم خبراتي بواسطة أجفا -جيفرت[1] وبخاصة مادة لايكا- جيفرت فإنها مناسبة بامتياز للمناطق المدارية الحارة، فبواسطة أفلام الشركات الأخرى ما كدت أصل إلى نتائج جيدة لأنه سرعان ما تختفي مادتها في الحرارة المرتفعة للغاية، وعن أوقات التعرض فلا يُمكن للمرء بالطبع أن يقول كثيرًا، حيث تلعب مادة الفيلم دورًا مهمًّا؛ فقد استخدمت بوجه عام الشرائح الصفراء الوسطى تقريبًا، كالتي تُستخدم عندنا في أوقات العرض المماثلة، فالمادة الأقل حساسية تناسب وبشكل أفضل المناطق الحارة، فهي أكثر تحملًا كما هو مألوف من الأفلام الأكثر حساسية.

فلا تمثل صور هذا الكتاب إلا نموذجًا صغيرًا لما عُدت به من صور من جنوب جزيرة العرب، حيث يبلغ عدد هذه المجموعة قرابة ثلاثة آلاف صورة هي النتاج التصويري لهذه الرحلة.

(١) شركة بلجيكية ألمانية تأسست في عام ١٨٦٧ بألمانيا ومقرها الرئيسي الآن ببلجيكا. (المترجم).

شيكاغو الصحراء

إذا ما كان هناك شيءٌ ما يُغري الباحث برغم كل صعوبات ومخاطر الرحلة في مناطق جنوب جزيرة العرب، فإنه أمل الغوص في التاريخ الذي يرجع لآلاف السنين لهذا الإقليم الحضاري، والذي لا يعرفه إلا القليل، وذلك للتلاقي مع آثار تلك الفترة، فبالقرب من مدينة شبام وعلى صخرةٍ ضخمةٍ صخرة قطعان، وجدتُ الآثار الأُولى من عصر مملكة سبأ: حيث الألواح المُقدسة لمخطوطات الإله سين[1] إله القمر، وكذا تصويرات الحيوانات العجيبة، فالأمر يدور هنا حول تلك الأشكال الغريبة للغاية وتُسمى النقُوش الصخرية، فقد حفر المرء وبكثافة فتحات صغيرة دقيقة في الصخر بجوار بعضها البعض ثم أراق عليها صبغة حمراء، والتي مُزجت في الصخر متحولة إلى بلورات بيضاء تميل إلى الحُمرة، فهذه الصخرة والتي من المحتمل أنها كانت مركز التقاء لمكان تجمع كبير، تقع على طريق القوافل الكبير والذي لا يزال حتى اليوم معبرًا صحراويًّا من حضرموت إلى اليمن، وكذلك من شبام مرورًا بمأرب إلى صنعاء، كما كان بمثابة رابط بين الممالك السابقة القديمة مثل سبأ ومعين وقتبان وبين حضرموت.

فعلى العكس من شمال الجزيرة العربية فإن جنوب جزيرة العرب تم استيطانها بالفعل منذ ألف عام قبل ميلاد المسيح (عليه السلام) من قبل الشعوب ذات الحضارات المتطورة، فتُعد ممالك معين وسبأ واللذان كان مركزهما مدينة مأرب أقدم تلك الحضارات، وفي القرن السادس ميلاديًّا غزا الحبشيون المنطقة

(١) اشتهرت عبادة الإله سين إله القمر وقد كان الإله الرئيس لمملكة حضرموت القديمة وقد اشتهر كذلك في في شمال سوريا والعراق وحتى مصر فاسم سيناء قيل يعني شبه جزيرة القمر. (المترجم).

(أهل أثيوبيا حاليًا) فوفق تقارير البدو يُوجد معظم الآثار من مخطوطات وأبنية وتماثيل في الجزء الذي يحمل اسم الجوف من جزيرة العرب.

فطريق القوافل القديم والمؤدي من الجوف إلى منطقة الملك ابن سعود بنجد مازال يسلكه البدو بكثرة حتى يومنا هذا، إلا أنني لم أستطع فعل ذلك، كما أنه لن تجد بدويًّا واحدًا يريد مرافقة أجنبي في هذه المناطق الوعرة؛ وذلك لأن البدو أنفسهم سيغامرون بحياتهم في هذا الأمر، لأنهم ضامنون لحياة المسافر[١].

فلم يكن ممكنًا بالنسبة لي أن أصل مدينة مأرب ذاتها، إلا أن زيارة مدينة شبام والتي هي أقدم وأعتق وأشمخ مدينة بحضرموت، قد عوضني بغزارة عن ذلك، فليست هناك أي مدينة من مدن حضرموت تترك انطباعًا واضحًا كمدينة ناطحة للسحاب مثل مدينة شبام الكبيرة، والتي تقع في بداية وادي حضرموت حيث يصب إلى الجنوب منها وادي بن علي في وادي حضرموت.

شبام هي شيكاغو الصحراء، حيث تقع شبام في وسط مستوى الوادي الكبير على قاعدةٍ طينيةٍ مرتفعةٍ، ولا يوجد بالمدينة سُور، إلا أن المنازل بأبنيتها العالية ذات الطول والضيق بمنافذها الكثيرة وبأسقفها المستوية المفتوحة والبيضاء مبنية بشكلٍ مُتلاصقٍ، لدرجة أن واجهاتها هي بمثابة موضع أسوار المدينة، فإذا سار المرءً من سيؤون بمحاذاة الوادي، فسيرى حقًّا على بُعد كثيرٍ من الكيلومترات مدينة ناطحة للسحاب شاهقة بمنازلها المرتفعة التي قد تصل إلى ثمانية طوابق عن مستوى سطح الأرض.

فالمدينة التي بها قُرابة سبعة آلاف نسمة، ليس بها إلا بوابة واحدة للمدينة، بوابة لها درب خاص كالموجود في حصن لصوص قديم فليس به إلا خنادق (أخاديد) ذات جسورٍ متحركةٍ، وتُعد شبام بجدرانها الطينية الراسخة وأبراج مراقبتها العالية

(١) ففي رحلتي اللاحقتين نجحت في أن أصل إلى صنعاء عبر الطريق البري وفي المرة الثانية إلى شبوة (عاصمة حضرموت القديمة) (المؤلف).

المتوغلة بعيدًا داخل الوادي والموجودة بالأعلى في منطقة تساقط الصخور، تُعد منيعة في حروب البدو، فبرغم موقعها الطبيعي الآمن فغالبًا ما لزمها في العصور السالفة الذود (الدفاع) ضد هجمات العصابات والقبائل البدوية الغريبة (المُغيرة) مشابهة في هذا مدينة شيكاغو الأمريكية فالمُناوشات وإغارات البدو من كمين هو على جدول الأعمال في مناطق مثل شبام ووادي العين، ولاحقًا في وادي دوعن، فخلف كل كثيبٍ رمليٍّ أو نتوءٍ صخريٍّ يجب على المرء توقع وجود بدو مُغيرين بغرض السرقة وقد تواجهنا بالقدر الكافي مع مثل تلك الصعوبات.

إنها رائعةٌ وبشكلٍ مباشرٍ قصة مدينة البورقان الصغيرة الواقعة في وادي العين، فبعد غُروب الشمسً كنا قد وصلنا بالقرب من هذه المدينة، وعندئذٍ سمعنا بحق من بعيد دوي طلقات متعددة، وفي وقت قصير وفي هذا المساء لم نستطع تحريك مرافقينا من البدو بأي ثمنٍ على مواصلة المغامرة خطوةً واحدةً، لذا فقد أمضينا ليلتنا في برج مُراقبة صغير خاص بجنود كويتيين[1]، فلم يتبين إلا مؤخرًا، أن هذه المدينة البُوكري والواقعة تحت حكم الكويت، يُحاصرها قبيلة بدوية منذ عامين متتاليين، لمدة عامين أبدى فيهما جنود ومواطنو المدينة شجاعتهم وبسالتهم، فلم يتطلب الأمر مما لا شك فيه شجاعة مُفرطة، حيث يتم فتح أبواب المدينة طيلة النهار، إنه لأمر عجيب، أن تصل الجيوش الطيبة من البدو اللصوص وهم يتنزهون بسلام، فيتسامرون بتحفز مع مواطني المدينة، ويشترون شيئًا من السوق من حين لآخر ويختفون مجددًا في صمت.

إلا أنه في الليل تنشب الحرب، وفي هذا لا يمكن العبث معهم، فيقتحمون المدينة ليلة تلو الأخرى وبانتظام فيطلقون النار بشكلٍ جنونيٍّ، والذي يتم الرد عليه من الجانب الآخر، إلا أنهم لا يستطيعون توجيه شيءٍ تجاه أسوار المدينة المُحكمة، إلا أنه على المرء أن يُبقي النوافذ مغلقة بعنايةٍ (بإحكام)، فلقد فاتنا هذا

(١) الأكوات ومفردها كوت عبارة عن صحون صغيرة تبنى في أماكن مرتفعة لغرض الدفاع والحراسة.

مرة لأننا وصلنا في يوم متأخرين إلى هذه المدينة العجيبة لذا وُجهت الطلقات فورًا صوب نوافذنا، فارتطمت العديد من الرصاصات في الحائط المقابل لنا، وبالنهار ساد الهدوء مجددًا، فسار كل شيء في مساره الطبيعي، فيصل البدو إلى المدينة ويتسامرون بتحفز مع المواطنين، كأن لم يحدث شيء على الإطلاق، هكذا يسير الحال يومًا بعد يوم وعلى مدارعامين.

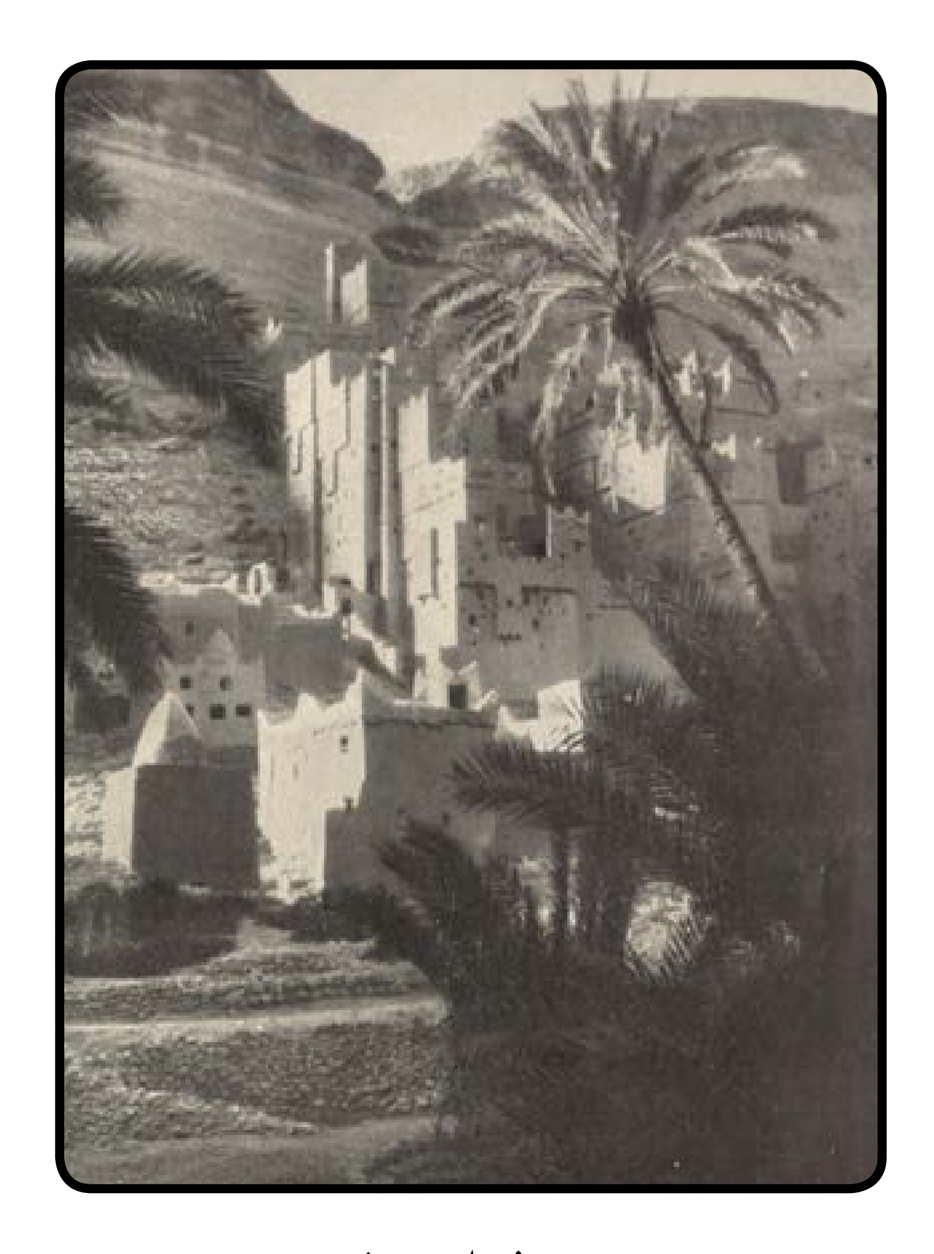
مصير مشابه كان ينتظر مدينة الغُرفة وحصنها، والتي تقع ليس ببعيد عن سيؤون، فلقد نشبت هنا ولمدة خمسة أعوام مُناوشات، دون أن يسمح المرء وفي أضيق الحدود بإزعاج الناس في سيؤون بسبب ذلك، إلا أنه في السنة الأخيرة قد احتدمت الخلافات بين البدو وساكني المكان.

وتُمثل شبام بما يتبعها من مناطق جُزءًا من منطقة إدارة سلطان مكلا، والذي استعمل واليًا عليها ويحمل لقب سلطان كذلك، ومن الغريب أنه كان عبدًا سابقًا، إلا أنه بالفعل ليس بحالة نادرة في هذا البلد، لأنه غالبًا ما وصل العبيد إلى مناصب شرفية مرموقة.

بالقرب من شبام وفي نفس الإقليم، في قطعان، لا يزال يحكم أمير آخر يُدعى السلطان علي بن صلاح، والذي له نفوذ كبيرعلى غرب حضرموت، ولاسيما على بدو الصيعر، فهو ينتمي إلى هذه القبيلة من ناحية الأم، بينما من ناحية الأب فهو أحد أحفاد سلطان مكلا، فقد وصلنا إليه وقام باستقبالنا في قصره، فهذا السلطان ذو هيئة نحيفة جدًّا، غير أن ملامح وجه من الخارج تبدو جميلة ومقبولة، ولا يزال يبدو عليه صغر السن، كان يجلس مع ابنه الصغير على الأرض وأمامه مائدة عليها مخبوزات رائعة، وحلوى ذات أصول عربية، فبرغم إصابته بزحار[١] شديد والذي كان يعاني منه منذ شهر، كان يأكل هو نفسه معنا من هذه الأكلات الدسمة (الثقيلة).

---

(١) الزنطارية. وهو مرض يصيب المعدة ويصاحبه حُمى وغيثان وتكرار البول والبراز وتنتشر في مناطق كثيرة من العالم. (المترجم).



حي في وادي دوعن



قرية حصينة في منطقة الساحل



منازل طينية بها صهريج (خزان مياه) بحضرموت



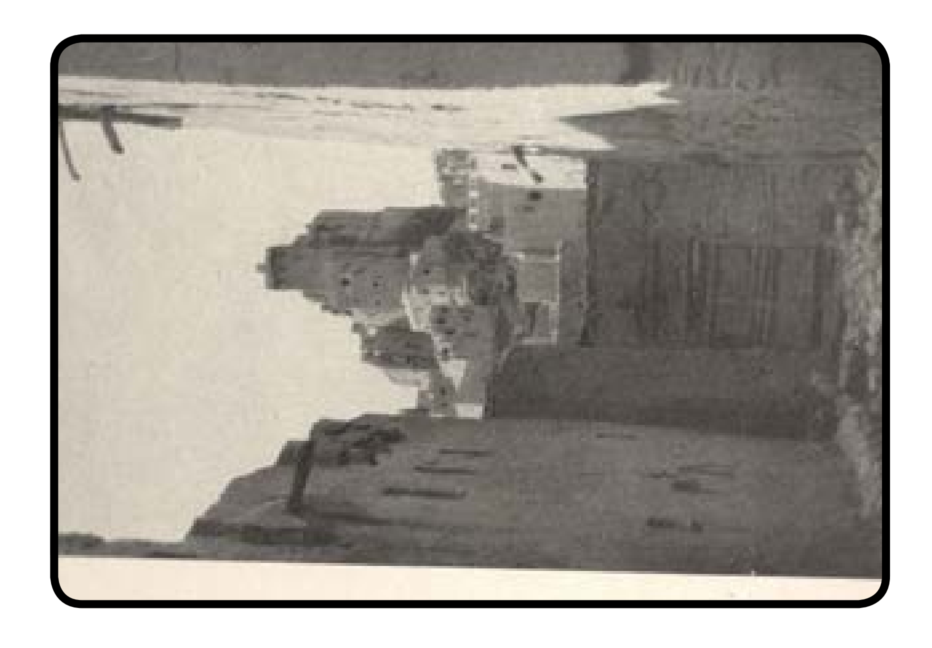
حصن (النجاة)



هجرين



قصر السلطان بشبام

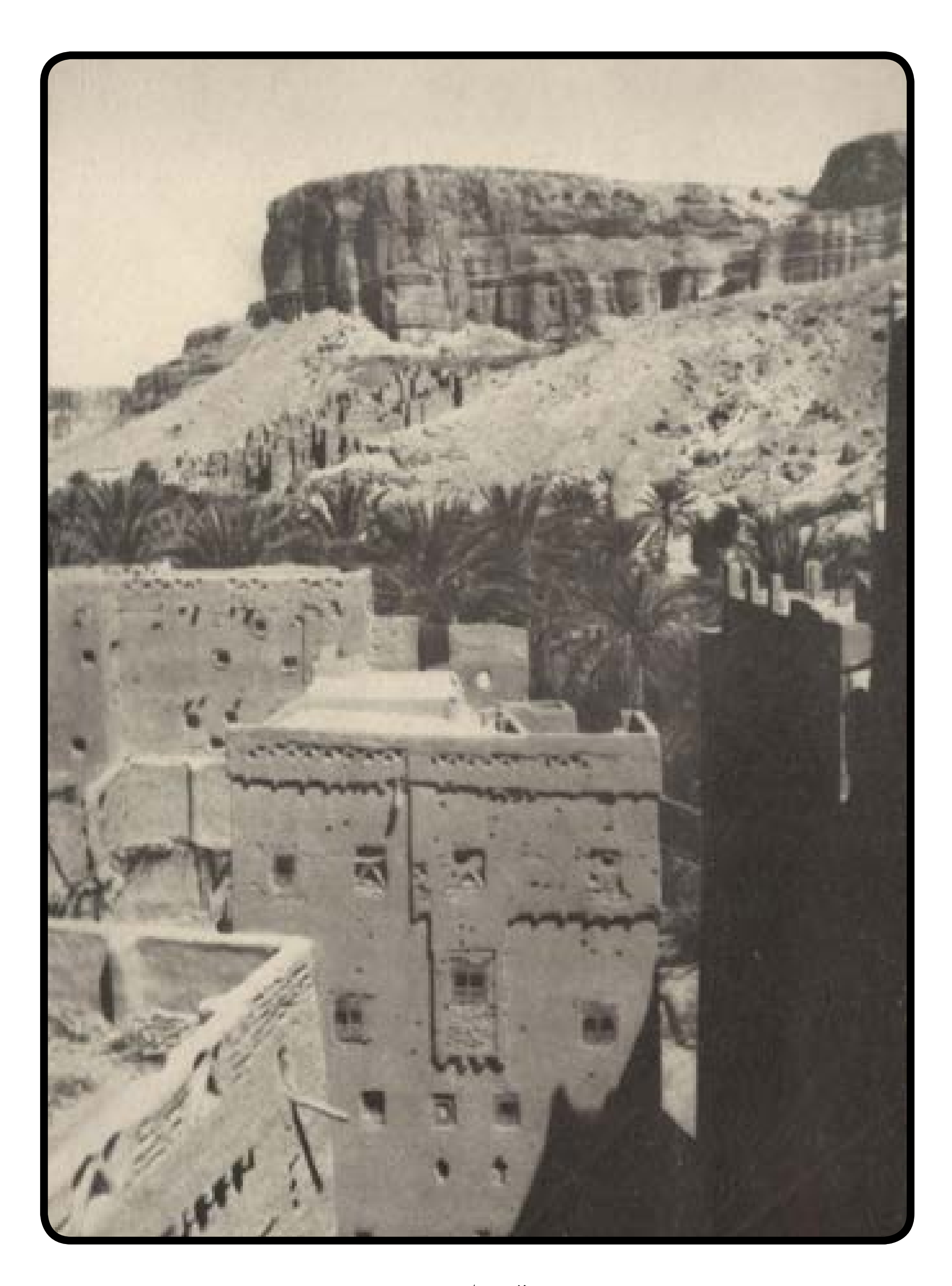


حصن بدوي في غرب حضرموت





شُرفات الحريم المغلقة وكذا أعشاش الفراخ (الطيور) أمام نوافذ حجر النساء



(حورة) بوادي دوعن

ولقد ذاع صيتُ صديقي كطبيبٍ حاذقٍ بسرعة البرق في جميع أنحاء حضرموت، فقد ساعدنا أناسًا كثيرين حتى الآن، فكنا لا نكاد نستطيع إنقاذ أنفسنا من تدافع المرضى، لذا فقد أمر السلطان بالمجيء إليه والذي لم يعد الطبيب (الحكيم) العربي قادرًا على مساعدته، ولحُسن الحظ أن الوسيلة المُثلى ضد هذا المرض كانت معنا وهي الإميتين[١] المستخلص من مادة نبات الذهب، فقد قمنا بحقن السلطان تحت الجلد بهذا الإميتين الحمض الهيدروكلوريكي لعدة أيام طويلة وسرعان ما حدث تحسنٌ ملحوظٌ حتى تصورت أنه شفاء على الدوام[٢].

فنجاح تلك الوسيلة المُكتشفة قبل بضع سنوات أمرٌ في غاية الروعة، وداوت الكثير بالفعل في المناطق المدارية الحارة، فالشفاء من هذه الأمراض هو أمر ليس بالعسير كما يتضح للناس، فما عليهم إلا الامتناع عن تناول بعض المأكولات والمشروبات المعتادة، ولقد كان الأمر كذلك مع السلطان، فلم يأكل ما وُصف له إلا ليومٍ واحدٍ، ثم ها هو ذا يبهج بأكل الضأن المشوي السمين والمحشي (صلصة الفلفل)، وأن تمنعه عن شُرب الماء فهذا ضرب من المُحال، ولم يصبح أكثر اكتراسًا (حرصًا) إلا عندما حكينا له أن كثيرًا من الديدان وصلت إلى معدته بسبب المياه الغير مغلية؛ مما استدعى هذا المرض المُخيف. فسرعان ما أصبح منزلنا مكان تجمع كل المرضى، الذين ينتظرون العلاج منا، فلقد منحنا انتعاش السلطان بالغ الثقة، فيوجد أيضًا لدى العرب حكماء[٣] والذين يحاولون أن يعالجوا بالحجامة كل داءٍ تقريبًا، حتى أمراض العيون نفسها، ولقد رضي الناسُ بالفعل بهذه

(١) اسم مُضاد حيوي. (المترجم).

(٢) أما الآن فالسلطان بكامل صحته وفي كلا رحلتي التاليتين استطعت التأكد من هذا بنفسي. (المؤلف).

(٣) من كانت لديهم خبرة بالتداوي وكانت بمثابة مهنة لهم. (المترجم).

العملية، حيث يراهم المرء يجلسون في الشارع بما لا يقل عن عشرة أوعية للحجامة تُوضع على الظهر والعنُق، والتي من خلالها يصفد الطبيب الدم، كما يداوي المرء الجُروح المفتوحة بواسطة كيها بالنحاس الأصفر، والذي يتم وضعها بثبات على موضع الجُرح ويتم ربطها بضمادة، فهي وسيلة يتم استعمالها عندنا مُؤخرًا، وذلك لأن إشعاعات هذه المادة ذات قُوة شفائية خاصة، فهي معروفة أيضًا للصينيين.

ويكون الحكيم عاجزًا تمامَ العجز في مواجهة الحُمَّى ولا سيما الملاريا[١] التي ما زالت تحدث في هذه المناطق المرتفعة؛ كذلك يقف المرء عاجزًا في مواجهة أمراض العيون والقُرح (الخُراج) الصديدية، والتي تكون أحيانًا في وضع مرعبٍ وخطيرٍ، وتُسبب تقيح جميع الأعضاء ويقابلها الناس باستسلامٍ تام، ولقد أتى إلينا هؤلاء البؤساء وهم يطلبون منا قليلاً من الدواء، فكانت كل الطبقات والمستويات مُمثلة ولم ينتهِ تدافع الزوار، فقد أرادوا جميعًا دواءً لأمراضهم الكثيرة لأنهم كانوا يثقون أن مُعالجتنا أقل ألمًا من الحديد المتُوهج الذي يستخدمه حُكماء العرب، فيُمسك به المرء وبسرعة كبيرة مُحاولًا أن يُعالج به كل الأمراض والآلام المُمكنة الداخلية (الباطنية) منها والظاهرة، لدرجة أنه يكاد المرء ألَّا يرى إنسانًا دون أن يكون عليه آثار منها.

لقد أرانا بعض العرب أيضًا عُبوَّة دواء صغيرة عليها كتابة عربية وهندوستانية، والتي حصلوا عليها من أوروبا عبر عدن، فالأمر يدور حول القمامة القاتلة لدجال[٢] ما، والذي يُرسل وبطريقة غير مسؤولة دواءً إلى العالم مُدعيًّا أن له نفس التأثير الفعال على الحُمَّى وهشاشة العظام (كسور العظام) والكالُّو (مسمار القدم).

---

(١) مرض مُعدٍ وفتاك ينتقل إلى البشر من خلال لدغات الحشرات الناقلة له. (المترجم).

(٢) المراد به هنا الدجل في مجال الطب؛ كادعائه معالجة بعض الأمراض الخطيرة والمستعصية بوسائل غريبة وغامضة. (المترجم).

فلا يُدرك مرضانا أن لهذه الأمراض سببًا طبيعيًّا، إنها دومًا الدُودة، التي تُسبب لكم الأمراض والآلام، وهذه الدُودة قد بعثها الجن إليكم، كما يوجد بعض الماكرين جدًّا، الذين يتظاهرون بأي مرض فقط من أجل الحصول على الدواء، ثم يحفظونه لحالة أن يصبحوا مرضى بالفعل، وها قد قدم للتوِّ رجل يتظاهر أن لديه صعوبة في السماع، فقد رغب بلا شك في دواء لهذا، والذي لم يكن متاحًا في مكان المعالجة، وقد تبين أخيرًا أنه كان يسمع أفضل منا جميعًا.

فأصعب شيء هو أن توضح للناس أن هناك أيضًا بعض الأمراض التي ليس لها علاج عندنا، ولا سيما العديد من مرضى العيون فقد أجهدونا كثيرًا؛ لأننا ليس بمقدورنا مُداواتهم على الإطلاق، ولا يُسمح لنا بقول هذا، لأنه بمنتهى البساطة لن يصدقنا أحد، فهذا بدوي مُسن، يكاد يكون أعمى، لم نستطع مساعدته فتبعنا في داخل الصحراء لعدة ساعات وهددنا بإطلاق الرصاص علينا إن لم نساعده، أما جنودنا فقد كان أمرهم غير مقبول؛ حيث إنهم بقوا بعيدًا ورغبوا في أن يروا كيف ينهي الفرنجيان (الأجنبيان) الأمر بمفردهما مع هذا المسن المتوحش الأعمى.

وكعلاج للصُّداع والموائمة العامة يتوجه البدو إلى حضرموت، فيأخذون شيئًا من رماد نار الفحم المطفي ويضعونه في الفم بين الأسنان والشفتين، ليهدف هذا لتفعيل المُرطب داخل تجويف الفم، فلم أجد أحدًا يستخدم هذا إلا بدو حضرموت وليس في اليمن ولا في الأجزاء الأخرى من الجزيرة العربية من يستخدمه، ولأن مدن حضرموت نظيفة نسبيًّا -والذي يكفل هذا شبكة الصرف الصحي الذكية- فلا تظهر الآفات الوبائية كالطاعون والكوليرا هناك إلا نادرًا، كما لا يعرف المرء الأمراض التي تنتشر في أوروبا خاصة، وذلك لأن حضرموت ليس لها اتصال بأوروبا، فكل تراجعات الشعوب المستعمرة، التي يجدها المرء

في البلدان الأخرى، يجب إرجاعها إلى الأمراض والآفات ذات النشأة الأوروبية والتي شعوب المناطق الاستوائية خاضعة لها أكثر منا، وليس إلى أمراض المناطق المدارية الحارة المُخيفة لذاتها.

فإلى متى ستستمر تحافظ حضرموت على حضارتها، هذا ما لا نعرفه، فلا يزال ساكنو منطقة جنوب جزيرة العرب آمنين من هذا بشكلٍ مؤقتٍ، فنأمل أن يظل أحد أقدم الأقاليم القليلة الأصلية على كوكبنا الأرضي بالنسبة لنا كما هو.

في وادي دوعن

لقد خصص لنا سلطان شبام حمارين وجملًا ناقلًا، وكذا جنديين من طرازٍ فريدٍ من أفراد عائلة المرفدي، وهما مبروك وناصر من أجل مواصلة السفر إلى حُريضة[1] وقد استمتعنا معهما كثيرًا، فلم يكن كلاهما على قدرٍ كبيرٍ من الذكاء، لذا فقد تورطا أكثر من مرة في صفقاتٍ مُشينةٍ مع خادمنا سيد، والتي دومًا ما خرجا منها صفر اليدين، ثم كان بين رجالنا ضجيج والذي قد يستغرق الأيام والليالي، غير أن جنودنا كانوا مُريحين لدرجة أنه لم يتجاوز الأمر الشجار بالكلام هذا حسب ما رأينا.

لا يعرف الفكر التجاري لخادمنا سعد حدودًا فها نصل الآن إلى مدينة هينن، وهي عبارة عن مدينة صغيرة تقع على مخرج وادي حضرموت، ونقضي ليلتنا هناك حيث نزلنا ضيوفًا لدى عائلة ابن مارتع، والتي تشبه عائلة الكاف، حيث يجمعها علاقات وطيدة بكل من جاوا[2] وسنغافورة، ووصلت إلى ثراء كبير، وفي المقابل يقدم لهم وطنهم حضرموت القليل، لأن هذا الجزء من الوادي متصحر وقليل المياه، وما إن أردنا مواصلة السفر في الصباح التالي حتى فوجئنا باختفاء الحمير والجمل. ما الذي حدث؟ لقد أرسل خادمنا (سعد) الطيب على مسئوليته الشخصية الحيوانات وكذا سائق الجمل المخصص لسلطان شبام إلى بيت السائق، والذي كان بدوره سعيدًا لتجنبه عناء هذه الرحلة الطويلة إلى حُوريدا لذا فقد أعطى خادمنا بعض وحدات العملة من أجل سماحته وكرمه.

---

(١) اسم منطقة بوادي عدن في حضرموت. (المترجم).

(٢) اسم مدينة تجارية بإندونيسيا. (المترجم).

أما نحن فقد حُبسنا ولم نستطع مواصلة السفر إلا في اليوم التالي، وذلك بعد حصولنا بشق الأنفس على حمار كسيح وجمل يسوقه أحد البدو، هذه كانت قافلتنا الموقرة والتي كان علينا الولوج بها إلى مدينة حُريضة، عاصمة لمنطقة تحكمها أقلية تابعة لعائلة السيد العطاس، فمملكة السيد العطاس والتي يربطها أيضًا علاقات وثيقة بجاوة وسنغافورة، يمتد نفوذها إلى المدن والقرى في وادي عمد ووادي الكسر، والتي سكنها بدو من قبائل الجعدة والنهدي والصيعر وسيبان والنواحي والبرازي[1] بتشعباتها وتفريعاتها المختلفة.

مدينة حُريضة والتي تقع على مصب وادي الكسر في وادي عمد تستند على جدار صخري شديد الانحدار، فسلسلة الجبال المقابلة لها (والتي تسمى جوندام) وكذا المدينة نفسها غنية بآثار ترجع إلى عصر مملكة سبأ، فقد تمكنت بنفسي من تصوير العديد من المخطوطات كان يوجد بعض منها على أرضية مسجد قديم متهدم، والبعض الآخر على عتبة اصطبل للحمير وقد أحضر لي أحد البدو كأسًا صغيرًا به دهان مصنوع من المرمر يرجع إلى عصر مملكة سبأ، وكذلك بعض العملات المعدنية التي ترجع إلى العصر الروماني، والتي وجدت هنا وتشهد على ضرورة قيام علاقة بين هذه الدول والإمبراطورية الرومانية القديمة، فتحمل هذه العملات المعدنية اسم القيصر أنطونيوس بيوس من عام (٢٠٠م) وعلامة العملة المصرية القديمة.

وتُصبح الأودية من الآن فصاعدًا أكثر ضيقًا إلا أنها مُكتظة بالسكان، فتتاخم المدينة الأخرى والقرية الأخرى وقد استطعنا من أن نطأ الكثير من هذه المدن كأول أوروبيين على الإطلاق، والعلة في ذلك أننا كنا نسلك أحيانًا طريقًا غير الذي

(١) أسماء لقبائل بحضرموت ولا يقتصر وجودها في حضرموت وإنما تنتشر في معظم قطاعات الجزيرة العربية. (المترجم).

سلكه فيسمان وفان دير مويلن واللذان زارَا مدينة حُريضة كأول أوروبيين بينما كُنَّا نحن ثاني الزائرين الأجانب لهذه المدينة.

وتبدو التربة الطينية هنا خصبة جدًّا حيث يجد المرء في كل مكان مزارع الحبوب المتنوعة، وبصفة خاصة الذرة ونوعًا من الشعير، كما يسير المرء لساعات طوال عبر مزارع النخيل الرائعة، وللعيش هنا لا يحتاج هؤلاء الناس الكثير، فتقريبًا كل ما يحتاجونه متوفر لديهم في الأرض (اليابسة) فيستأنس البدو قطعانًا كبيرة من الماعز والأغنام، والذين لا يعتنون لتغذيتهم حيث إن هذه الحيوانات تجد في كل مكان ما بين الصخور والأحجار الأعشاب والحشائش التي يمكنها التغذي عليها.

إلا أنهم يمدون الناس من خلال مساومة ممكنة ولاسيما الذين يقطنون المناطق السياحية بالأعلى بتمور النخيل، وبالمقابل فإنهم يحصلون على سمكة القرش المجففة وأسماك السردين الصغيرة، وكذا الأرز المستورد من الهند فإنه يصل إلى الداخل بنفس الطريقة كما يُصدر الحضرميون الفراء والتي يستحوذ عليها تجارالفراء الكبار في عدن.

في وادي دهوان والذي يُمثل امتدادًا لوادي العين، والذي وصلنا إليه بعد أن انطلقنا من حُريضة ومررنا بكل من فودة ومشهد علي، تقع هجرين والتي تستحوذ عليها مجددًا الكُويت فالأهمية التي أكسبت هذا المكان موقعًا في مصاف الطرق الكبيرة يكمن ابتداءً في تقاطع العلاقات المتبادلة ما بين الساحل وحضرموت فيه، فهجران عبارة عن مدينة يقطنها ما بين ألفين إلى ثلاثة آلاف نسمة، وبها مساكن طينية لا يُستهان بها، تقع على حافة صخرةٍ منحدرةٍ بشكلٍ رأسيٍّ والتي تتوغل في هذا الوادي الفسيح حيث تلتقي هناك العديد من الأوديةٍ الجانبية الصغيرة مع وادي دوعن.

قد أصاب صديقي ضربةُ شمسٍ خطيرةٌ، لدرجة أننا كنا مجبرين على الإقامة في

هجرين لبعض الوقت، في الحصن القديم الذي يسير سوره الخارجي في خط مواز مع الجدار الصخري المنهار وقد أقمنا في حجراته المُظلمة الضيقة مع البدو والجنود.

لقد تم استئجار خادمنا سعد في حُريضة من قبل أحد العرب، إلا أنه أراد مرافقتنا إلى أُورى آخر محطة لنا في وادي دهوان، وقد وافقنا على هذا الاتفاق المستقل لخادمنا الزنجي لأنه أنجز لنا أكثر مما كنا نتوقعه منه من مساعدة حقيقية، والسبب الرئيسي لهذا القرار من ناحيته كان يكمن في خوفه من عودته معنا إلى مكلا لأنه كانت تنتظره هناك عقوبةٌ مستحقة حقًّا.

لقد انتابه في هجرين نوبة غضب أخرى لذا فقد دخل معنا ولسببٍ غامضٍ في شجارٍ كلاميٍ وأخذ يُزمجر كحيوانٍ مفترسٍ ويُلقي بالأشياء من حوله فلا يسمع إلا دويها، وفجأة خطر بباله أنه لا يزال بحوزته في الحقيبة بعض خطابات التوصية للمدن التالية التي ينبغي علينا زيارتها وقد اعتدنا إعطاءه إياها ليسبقنا بعض الشيء من أجل تسجيل وصولنا، ولقد أخرج هذه الخطابات من الحقيبة في سرعةٍ خاطفةٍ ولوح بها في الهواء وبصوتٍ عالٍ كالمجنون هدد بحرقها، لذا كان لزامًا على بعض البدو والجنود أن يهدوا هذا الشيطان الصغير بالقوة، وبذلك انتهت صداقتنا إلى الأبد، ولأنه من هذه اللحظة فصاعدًا كنا قد استغنينا عن الخادم.

لقد سافرنا عبر الكثير من القرى والمدن وذكرها جميعًا سيأخذنا بعيدًا، فقد سافرنا عبر وديانٍ صخريةٍ ضيقةٍ، وبساتين النخيل التي لا نهاية لها، وكذا عبر المناظر الطبيعية الخلابة والتي فيها تنمو الأشجار الشوكية بجانب الشجيرات الخضراء الرطبة، وشجيرات البخور بجانب شجرة النبق[1] فلا ينقص في هذا العالم الجبلي المداري الرائع إلا وفرة الحيوانات كما يجدها المرء تحت خطوط العرض

(١) لها مسمى آخر وهو شجرة السدر وتنتشر في بلدان كثيرة من الوطن العربي. (المترجم).

المشابه في البلدان المدارية الأخرى، فلا يُوجد في تلك البرية الكبيرة إلا الغزلان والظباء وهي نادرة الوجود أيضًا حيث إنها تقيم في مستويات مرتفعة من الهضاب، كذلك يوجد ابن آوي[١] والوبر[٢] وهي حيوانات ليست بالكبيرة نسبيًّا، فالوبر له أنياب طويلة رقيقة ويقوم البدو بتثبيت أسنان الحيوانات المقتولة كغنيمة على مكبس بنادقهم، وكذا الحال تمامًا بالنسبة لفرو الظباء المقتولة فإنهم يثبتونها على مكابس أسلحتهم، أما الفهود والرباح[٣] فلا توجد إلا في اليمن العليا وبالمقابل يجد المرء في أودية حضرموت عددًا كبيرًا من السحالي والثعابين وهذه الأخيرة ليست خطيرة بشكل كبير هنا.

فنصل إلى صِيف، إلى بودا والمرء مسرور أننا قد تجاوزنا صعوبات ومخاطر هذه الرحلة الطويلة، فالمرء يمتن لنا أننا لم نخجل من زيارة هؤلاء الناس المنعزلين فنتوغل في وادي دوعن ذلكم الوادي الفريد من نوعه، والذي به قرابة الثلاثة وخمسين ألف نسمة، فنصل إلى يُوبل، مطارح، قيدون، القُويرة، وإلى عاصمة وادي دوعن إلى الخُريبة والتي بها مقر السلطان في حورا ففي كل مكان تُلاصق القرى والمدن الجدران الصخرية المنحدرة كأعشاش السنونو[٤] فبإمكان المرء أن يفهم أن أدولف فون فريد[٥] والذي كان في هذا الموضع قبل مائة عام باعتباره

(١) له مسميات عده منها الشغبر أو الديب النمساوي أو ديب القصب. (المترجم).

(٢) حيوانات صغيرة بحجم الأرنب وهي من فصيلة السناجب. (المترجم).

(٣) له مسميات عدة منها البابون وهو نوع من فصيلة القرود (رباح أصفر - رباح شاكما - رباح مقدس - رباح زيتوني). (المترجم).

(٤) السنونو أو الخطاف يتبع فصيلة العصفوريات ويبني عشه في أسقف الأماكن العالية ويتواجد عادة كزوجين. (المترجم).

(٥) رحالة ألماني زار اليمن في عام ١٨٤٣ وارتاد صحراء الأحقاف شمال حضرموت. (المترجم).

أول أوروبي وطأ المكان كان مبهورًا بجمال وعجائب هذه المنطقة إلا أنه هنا في خُريبة قد آلت رحلته إلى نهاية غير متوقعة؛ حيث انقض عليه أحد البدو وأنزله من على الجمل وبسوء معاملة قام بتقييد يديه خلف ظهره واقتاده إلى السلطان الحاكم هناك، فقد ظن المرء أنه جاسوس للأوروبيين وناشد الأمر بإعدامه فما كان لإطلاق سراحه أن يحدث لولا اعتراض صديقين عربيين لفريد مع فقده بلا شك لكل أمتعته وتدويناته.

لقد كان لدينا الانطباع على أية حال أنه لا يزال وضع الأوربي الذي يُرى في خُريبة موضع انتقاد حتى يومنا هذا، فقد أحاط بنا مجموعة لا حصر لها من الناس واقتادونا إلى الأزقة الضيقة، رافقونا وهم يرددون نداءاتٍ ساخرةٍ فقد كان الوقت الذي مكثناه في خُريبة الأسوأ في رحلتنا، فليست هناك متعة مع جمعٍ متذمرٍ من الناس ليظهر النُبل وحسن الخلق.

تحت وطأة اللصوص البدو

وها قد سقطنا الآن في قبضة قبيلةٍ بدويةٍ مبتزة والتي تسمى سيبان نسبة إلى سلسلة جبال كور سيبان، وبالفعل حدثتنا أنفسنا في حورا الواقعة بوادي دوعن أن الأمر لن يسير بشكل جيد، ولدى الاستقبال أهدى إلينا السلطان عمر بن أهود باسورا البالغ من العمر تسعين عامًا والمُصاب بالعمى بشكلٍ كليٍّ، أهدى إلينا ضئنًا حيًّا بأكمله، والذي توجب عليه قبل نهايته المحتومة السير إلى حجرتنا بالطابق الرابع حتى يُقدم لنا نفسه ولنراه حيًّا مرة أخرى على الأقل، ولأن نرى حيوانًا مذبوحًا فهذا ليس بكثير بالنسبة لنا، فهو يتجول الآن في بطون الخدم والجنود، الذين أرادوا أن يتركونا هنا واعتبروا الوجبة إن جاز التعبير وليمة الوداع.

ولكن هذا الرجل أعني السلطان والذي هو مستقل عن المُكَلَّا كان خاضعًا لتأثير وزيره الشحيح المحطم الذي يكره الأوروبين ويحقرهم برغم أنه لم يرَ منهم إلا اثنين طيلة حياته.

وقد أدركنا أنه علينا مرافقة اثنين من جنود السلطان لنا، لهذه الرحلة التي تستغرق عشرة أيام إلى مكلا، كما كان الحال دائمًا، فالوزير الذي أراد أن ينظم لنا كل شيء، قصد أولئك البدو الخمس الذين استأجرناهم مع خمسة حمير، قائلًا بأنهم جيدون ولستم بحاجة تمامًا إلى جنود (وقد لاحظ المرء مصادفةً تشاجر اثنين منهم بالفعل أثناء المفاوضات في حجرتنا، والتي كان بها ما يربو عن عشرين شخصًا مُستلين خناجرهم، وقد تم الفصل بينهم بقوة).

وقد اتفقنا أخيرًا على كل شيء، وتحت تأثير الضجيج العالي تم دفع الأجر المقدر بخمسين وحدة من العملة القديمة المنقوش عليها السيدة ماريا تريزا، ووقع البدو الخمسة كلهم على العقد والذي جاء فيه أن لكل واحد منَّا حمارًا يمتطيه.

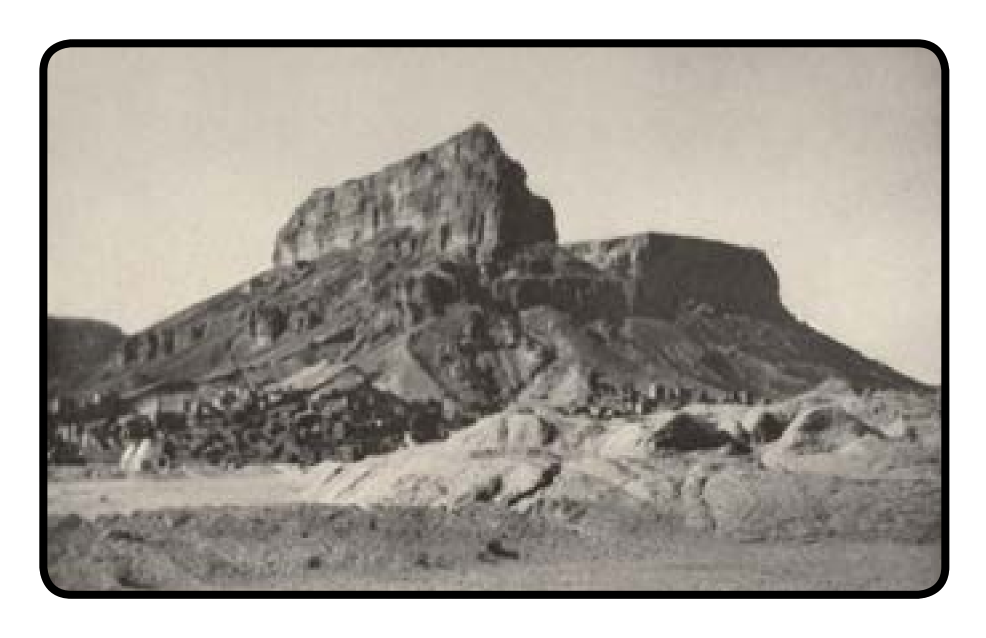
وقد سار كل شيءٍ على ما يرام حتى الآن، ولكن حتمًا ستظهر مشاكل.

إن العقود جميلة حقًّا، ولكنه غالبًا لا يمتثل المرء بها وبخاصةً في جزيرة العرب.

وهكذا ابتدأ الأمر، فإن مرافقينا من البدو، والذين يبدو للمرء بسبب لون بشرتهم الداكنة وشعرهم الأشعث الطويل أنهم ليسوا مُتوحشين بالقدر الكافي، ففي أُورى قد حملوا كل الحمير بأمتعتنا وبأكياس الأعلاف لدرجة أنه لم يعد يتبقى لنا مكان.



في وادي دوعن



حُريضة



في وادي دوعن



وادي حضرموت بحضاراته



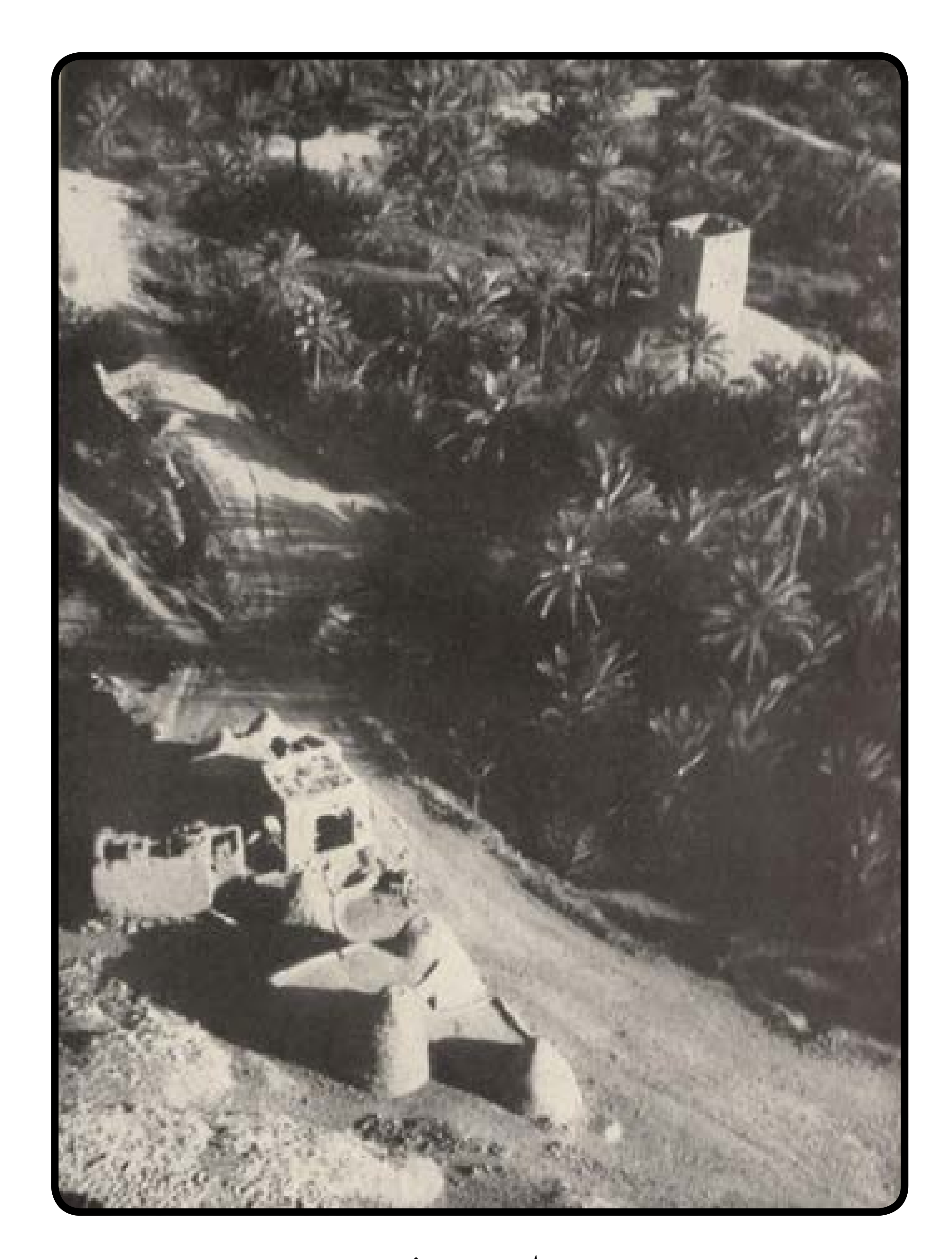
وادي هجرين



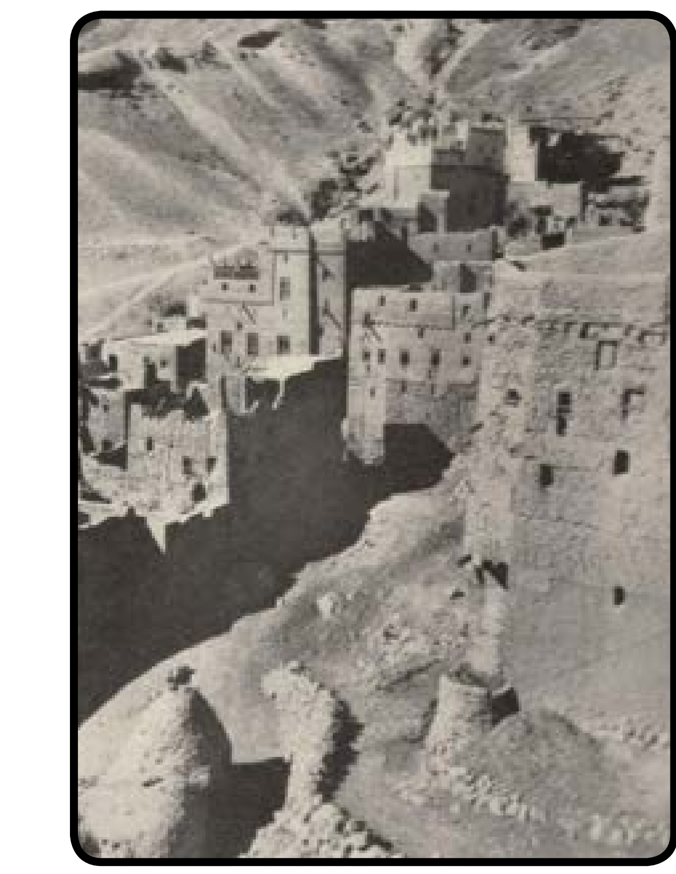
وادي دوعن

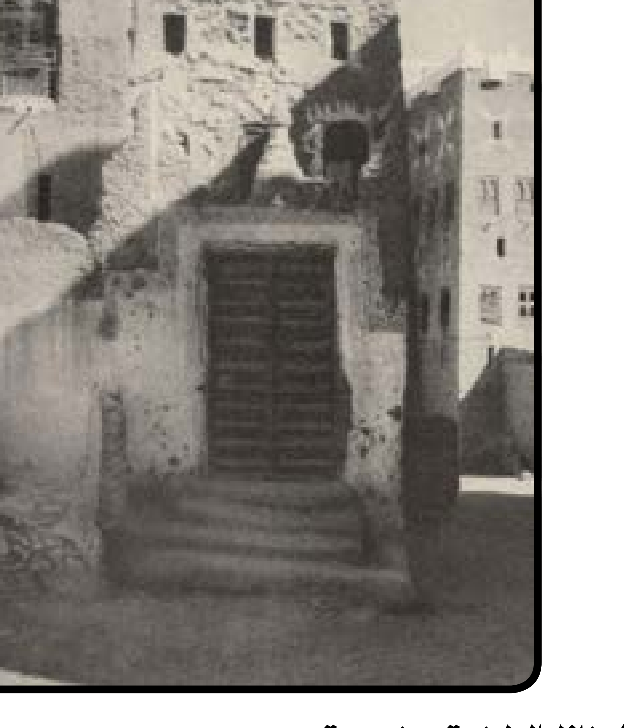


(حُورا) بوادي دوعن



وادي هجرين

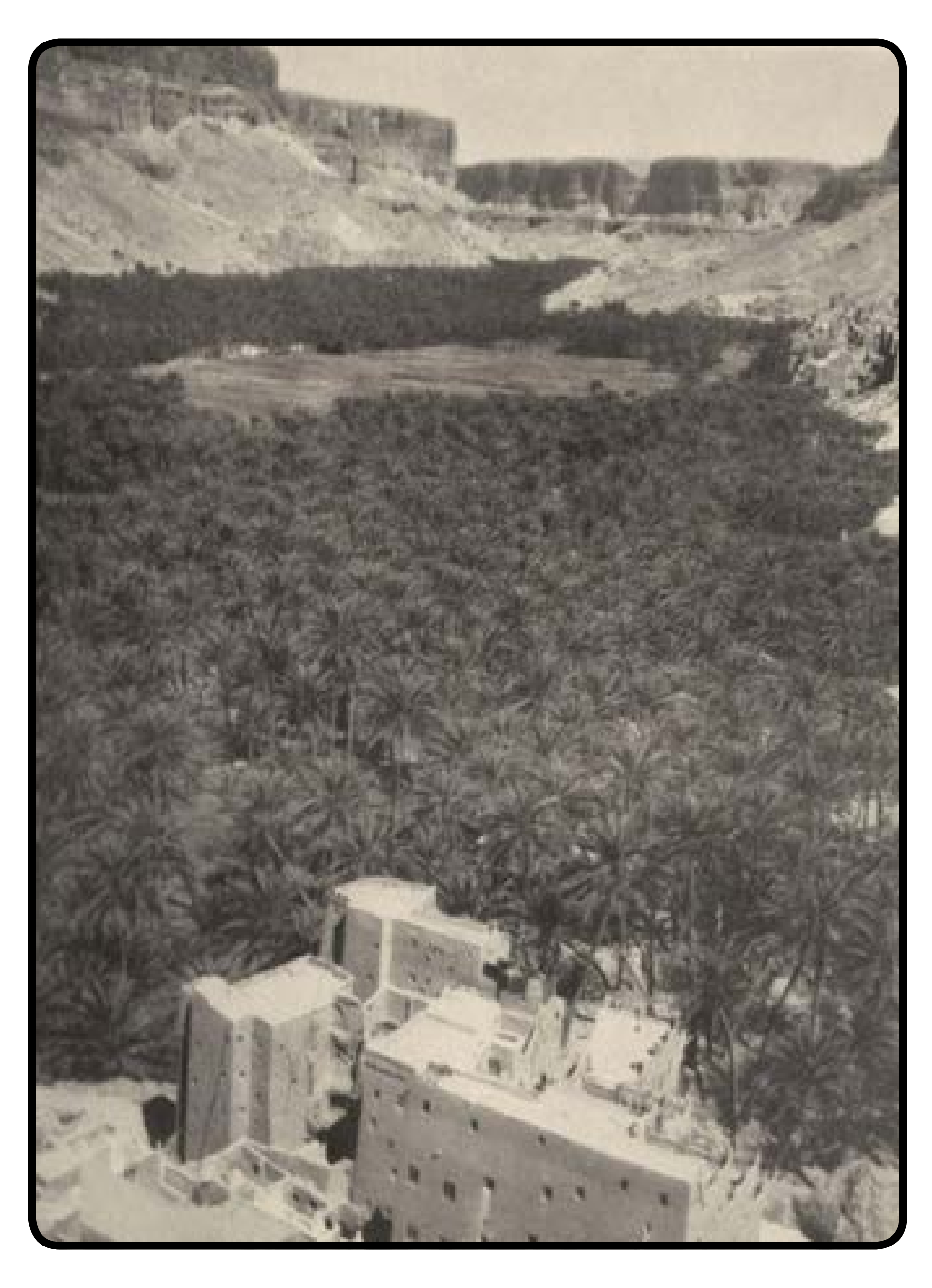




فن العمارة النموذجي للمنازل الطينية حضرموت



(بُضَهْ) بوادي دوعن



نظرة على وادي دوعن من قصر السلطان ب(حُورا)

وسُرعان ما توجب علينا تسلق الجبل الصعب الأول في أربع ساعاتٍ، وما إن وصلنا على الهضبة العليا حتى توجب علينا مواصلة السير على الأقدام حتى المساء، فقد لزم الحمير أن تلتهم العلف الذي تحمله على ظهرها.

في اليوم الثاني سار كل شيء على ما يرام، فتمكنا من امتطاء راحلتنا والتقدم بسرعة إلى الأمام واشترينا ضئنًا من نساء البدو وكان المرافقون لنا في حالة مزاجية جيدة، ثم أتى جبل آخر، فنزلنا من على الراحلة وسار بنا أحد البدو في الطريق التالي وبشكلٍ مستقيمٍ حتى وصلنا سفح الجبل، بينما كانت تبتعد عنا الحمير في الطريق المتعرج، لدرجة أنها غابت عن أنظارنا ولم نتقابل معهم في الأعلى، فأصبح الأمرشاقًّا بالنسبة لنا، فتسلق الجبال المدارية تحت أشعة الشمس المتوهجة لساعات كل يوم ليس ممتعًا بحق لذا فقد أضربنا.

وهنا صحت في وجه أحد البدو والذي ظل معنا، بكل ما أُوتيت من قوةٍ مجددًا قائلًا: فلتحضر لنا الحمير! ولم أدع له مجالًا للتحدث على الإطلاق، فجلست على حجرٍ أنتظر أي شيء قد يأتي، فلم يعتقد هذا البدوي، أننا أناس نشطاء إلى هذا الحد لأننا لم نخش بدويًا من قبيلة سيبان ولو لمرة واحدة، وهنا نظر إلى رفقائه طالبًا المساعدة إلا أنهم بالفعل قد ابتعدوا كثيرًا بالحمير وهكذا اختفى هو الآخر.

وتمضي ربع الساعة، فنصف الساعة، ويلوح بالأفق شخصان فيصرخان ويلوحان ويطلقان النار في الهواء الطلق من بندقيتهما (سلاحيهما)، وهنا تصرفنا كأن لم نلحظهما على الإطلاق، فجلسنا وانتظرنا وما إن دنا منا حتى صحت فيهما مجددًا: (هات حمار، هات حمار!) مما أخافهما حقًّا فارتدا عائدين سيرًا على الأقدام إلى تلة حيث كانا يخفيان الحمير خلفها وأحضراها لنا، وما إن وصلت قافلتنا حتى أُمطرنا بوابل من اللعنة والشتائم كأنه الجحيم حقًّا.

فقد كانوا يصيحون بلا انقطاع: هات فلوس – هات فلوس! وإلا فلن ندعكما تركبان طيلة الطريق إلى المكلا وتذهبان إليها سيرًا على الأقدام، وهنا كان علينا أن نعطيهم عشرين وحدة من العملة لنتمكن من امتطاء راحلتنا مجددًا (ويؤسفني اليوم أن ندفع لهم الأجر مقدمًا مرة أخرى) وسُرعان ما يحل المساء فنجد دارًا للبلدية تشبه جحرًا لا منفذ له ككوخ حجري يسكنه الفئران والجرزان والتي تسير علينا ليلًا بمنتهى الأريحية، وهناك شيء غير لائق أبعد من هذا وهو عذاب النار التي كان يُوقدها البدو في الحجرات الضيقة طيلة الليل، عذاب كنا فيه معصوبي العينين تقريبًا دونما أن يمثل ذلك للبدو شيئًا على الإطلاق.

بركلةٍ واحدةٍ تم إيقاظنا في الصباح، لم أقصد بهذا شيئًا سيِّئًا، وإنما طرق التعامل هنا أكثر فظاظةً عما لدينا، وما إن هممنا بالجلوس على الراحلة حتى سمعنا أحدهم يقول: امش قليلا قليلا! فبعدما تسيرون ببطء يمكنكم امتطاء الراحلة، هكذا يمضي اليوم كله، عند كل مرتفعٍ بسيطٍ يقول لنا مجددًا: امش قليلا قليلا! حتى نفذ صبرنا حقًّا ولاسيما لأن البدو كانوا دومًا ما يلوموننا فلم يكن بمقدورنا الامتطاء لو لم نعطهم نقودًا.

قرب المساء والسماء تُزينها ألوانٌ رائعةٌ، لا يمكن للمرء أن يعايشها إلا في المناطق المدارية الحارة للجبال الشاهقة، وما إن كادت تختفي الشمس في الأفق حتى صبغ الشرق بلون بنفسجي كالمعدن شريطٌ رقيقٌ، والذي تحول من اللون الأصفر اللطيف إلى اللون البنفسجي، فهذه الدراما التي لا يمكن وصفها لم تدم طويلًا ثم جن الليل.

لقد توجب علينا السير على الأقدام طيلة النهار فلم نستطع الامتطاء إلا لمسافةٍ قصيرةٍ، لذا كنا مُنهكين بالطبع وها نحن الآن نتواجد في مدخل وادٍ ضيقٍ تابع لمنطقة

مولى مطر[1] القريبة جدًّا من كُور سيبان، ويبلغ ارتفاع هذا الوادي ألفين مترًا تقريبًا، ولأن الطريق مُنحدر لذا فقد طلب البدو منا أن نترجل.

هذا الأسلوب البدوي والذي نعرفه بالقدر الكافي جعلنا نجلس هادئين غير مُكترثين، وبصياح رهيب، حاول اثنان من البدو أن يطرحانا أرضًا من على الحمير، إلا أننا رددنا عليهما لكمتيهما، مما أسقطهما على الأرض، لذا استشاط غضبهما، فقفز الأول واستل خنجره (جنبية)، ووثب عليَّ، وشد الآخر سلاحه وحشاه بطلقة مزيفة بالطبع ووضعه صوب صدر مرافقي.

برغم أننا مقتنعون أنهم لا يريدون حقًّا قتلنا، إلا أنه إحساس غير مقبول بالتأكيد أن تشعر بوجود سكينة حادة حول عنقك أو بتوجيه سلاح صوب صدرك، وذلك لعدم الاكتراث الذي يتعامل به البدو مع أسلحتهم قد يفرغ السلاح ما فيه بسهولة، ولحُسن الحظ أتى بعض نساء البدو المارين بهذا الطريق، واللاتي شرعن في الضحك بشكلٍ بشعٍ على هذا المشهد.

في هذا الموقف لم يتبق لنا مما لا شك فيه، إلا أن نلتزم السكون والهدوء التام، لأنه إذا ما استعملنا من أسلحتنا التي أهديت إلينا ولو طلقة واحدة لانقضَّت علينا العصابة بأكملها وقتلونا، ولاسيما أننا كنا بالقرب من تجمعٍ بدويٍّ كبيرٍ والذي لم نعرف به قبل الواقعة بكل تأكيدٍ.

ما زلنا نمتطي حميرنا ونتوقع في أي لحظةٍ سماع دوي طلقةٍ على الأقل، إلا أنه لم يحدث من ذلك كله شيء، بل إن الآخرين قد قدموا إلينا وهم يضحكون فنزلنا عن راحلتينا وتحدثوا إلينا بكلماتٍ طيبةٍ، ولن يفعل معنا شيء سيء كهذا ثانية إذا ما دفعنا لهم بانتظام، وهذا ما نتجاهله كلية بالطبع.

(١) اسم موقع ولي في حضرموت وهو مزار للبدو. (المترجم).

فقد قيل لنا: «أننا أناس طيبون» فسُرعان ما طُلب لنا قهوة كرمز للتصالح وسار كل شيء مجددًا في مساره الصحيح كأن لم يحدث شيءٌ قط .

بعد مرور نصف ساعة في الطريق الذي قادنا إلى أسفل وبعمق إلى وادي مولى مطر، سمعنا وبشكل مفاجئ أزيزًا (دندنة) قويًّا كما أنه بعيدٌ عنا بكثير سمعنا دوي بعض طلقات فاعتقدنا أننا قد وقعنا ثانيةً في حرب بدوية، كما حدث معنا كثيرًا في رحلتنا، ويحدث هذا في واد ضيق للغاية لا يمكن الفرار منه.

يمكننا الآن تمييز الأصوات حيث نسمع الطنين المُتفرق للمزمار والناي البدوي والأغاني، وعندما أصبح الجو مُظلمًا بشكل تام، نرى نار المعسكر بالأسفل منا، فأخذت أعدها: واحدة، اثنان، ثلاثة، وتتزايد، أربعة، خمسة، ثمانية، عشرة، خمسة عشر، ستة عشر، فتظهر على جميع الجدران الصخرية، في المغارات والنتوءات وصولًا إلى أعلى جدران صخري فكان الوادي كُله مُضاء.

ويُعسكر في هذا الوادي ثماني مئة بدوي من قبيلة سيبان، إنهم يعقدون اجتماعًا قبليًّا، فنرى رقصات من الرجال والنساء ويتم ذبح ضئنٍ تلو الآخرعلى حجر بعينه له قداسته، عشر، اثني عشر، لا أستطيع مواصلة العد، لأنني كنت مُحاطا فعلًا بأولئك الأشخاص ذوي البشرة السوداء النتيئين نتاءة الزيت، وقد توجب علي السلام باليد على الجميع، وذلك لأن البدو كجميع العرب يراعون كثيرًا التحيات ولا يتوانى أحد في ذلك، إلا أنهم غالبًا ما ينصرفون دون وداع، كما أنهم أيضًا مما لا شك فيه الشعب الأكثر فضولًا وثرثرة على وجه الأرض، ويريدون أن يحكى لهم المرءُ كل شيء مرتين أو ثلاثة على الأقل، فجميع من حولنا لم يروا قط شخصًا أبيضَ، وينتاب الخوف بعضًا من أطفالهم، ويلمس البعض الآخر منهم جلدنا بحذر، لأنهم يتصورون أن الأبيض يبهت.

وبعدما سألنا ثالثٌ أو رابعٌ مجددًا عن نفس الشيء وجب علينا البدء من جديد، كذلك الحدث الأخير في الجبال أي الشجار قد علموا به مُتغيظين، فقد أكد لهم مرافقونا الخمسة أننا لم ينتابنا الخوف ولو لمرة واحدة من سلاحهم فهذا له أثره على هذا الشعب البدائي، ومما لا شك فيه أنه على المرء أن يكترث من التعدي على بدو جنوب العرب، فهم يعرفون أيضًا نوعًا من الأعراف المتوارثة جيلًا بعد جيل ويتحتم على المرء مراعاتها؛ فعلى سبيل المثال إذا ما صفعتُ بدويًّا على وجهه بدلًا من ضربه على أحد ضلوعه، كان هذا ضربًا من الإهانة التي لا يُكفرها إلا الدم، ولن تهدأ القبيلة بأثرها حتى يتم قتلي، هكذا يُوجب عرفهم على أية حال.

حتى وإن كان جميع هؤلاء البدو لُصوصًا ويجدون لذتهم في السلب والنهب، فإننا في حماية مرافقين من البدو الذين يجب عليهم ضمان الحياة لنا، فإذا ما سُرقنا أو قُتلنا فلا يُسئل عن هذا إلا المرافقون الخمسة من البدو، فقد يُعاقبون بالطرد من القبيلة في أحسن الظروف، فهذه عقوبة قاسية جدًّا وفقًا لمبدأ الطرد من الكنيسة الذي كان موجودًا في العصر الوسيط، ولا يتم استقبال المنفي (المطرود) من أي قبيلة أخرى وتُؤخذ منه جميع ممتلكاته كما يُمنح مدة ثلاثة أيام للهرب، فإذا ما انقضت صار خارجًا عن القانون فيُباح قتله من الجميع، وغالبًا ما ينضم أمثال هؤلاء الأشقياء إلى العصابات التي تعيثُ في الأرض فسادًا، ولاسيما في المنطقة ما بين شبام وصنعاء ويشتد خطرهم على القوافل، لأنهم لا يكترثون لأي قانون.

في هذه الليلة لم ينم البدو وكذلك نحن، ثم واصل البدو عرسهم، وقد توقف جميع من في الوادي عن طربهم وصخبهم فأصبح الجو أكثر سكونًا، ولم يسمع المرء إلا طنينًا رخوًا غير معقول للمزمار، ولا نجرؤ على النوم لأنه دومًا ما أتى

بعض منهم مُسرعًا وقد زحفوا إلينا لكي يروا مما لاشك فيه ما في أمتعتنا، متى ينام هؤلاء البدو، أنا لا أعرف حتى اليوم؟!

وما كاد أن يبزغ الفجرحتى هُدم المخيم ووصل السير لساعات طوال عبر ذات الوادي برفقة المئات من البدو، والذين كانوا يسلكون الطريق بشكل مُؤقت وقد أعادوا نفس الأسئلة التي طرحوها علينا بالأمس، أحيانًا يتم إطلاق النار مُجدَّدًا في الهواء على سبيل المتعة فوق رؤوس الآخرين، فمن الجميل سماع صوت الطلقات فهذا يسبب متعة!

وما كدنا نفترق عن آخر واحد من قبيلة سيبان حتى بدأت الرحلة مجددًا، وكان علينا أن نسير على الأقدام برغم أن الطريق كان جيدًا، ولكننا لم نرد أن ندخل معهم في شجار مُجددًا، فنزلنا عن راحلتنا وجلسنا ببساطة على الأحجار وواصلت الحمير مسيرها وواصل البدو سيرهم.

وتمضي ربع الساعة فنصف الساعة ثم يظهر أخيرًا وبعد مرور ساعة اثنان من الرفقاء يلوحون ويصرخون، لذا كان علينا أن نأتي، وهنا حدثنا أنفسنا بأمر آخر، فقد تصورنا أن السلطان كان ينتظرنا في المكلا وعنده خبر بما حدث في دوعن، ولما لم نصل إليه في الوقت المناسب، أرسل إلينا عسكره (جنوده) ليحضرونا وما هم منوطون به فحقًّا معروف، «في الحبس» إلى السجن، هيا فلتسرعوا بحميركم!

هم خائفون للغاية، فوضعهم هذه المرة ليس كسابقتها، مجددًا يحاول الآخرون فعل شيء حيال ذلك فيطلبون منا المشي ببطء «امش قليلا – قليلا» ثم تستطيعون الامتطاء مجددًا، إذا ما دفعتم إليهم خمس وحدات من العملة، إلا أنهم لم ينالوا شيئًا منا، فانتظرنا مُجددًا قرابة نصف الساعة وهنا أتى الآخرون، ولكن دون حمير، ثم جلسوا معنا وقد حاولوا من خلال الكلام الطيب أن ينزلوا بالمبلغ المطلوب، إلا أننا قد ارتيأينا ألا نتحرك من موضعنا آملين أن يضع البدو لطول الانتظارهذا حدًّا.

وها قد بدأ الشجار مجددًا؛ فقد طلب منا قائدهم دفع عشرين أُوقية من المعدن مرة واحدة مُتوعدًا إيانا، بالطبع لن يحصل على قهوة بالبن منا (لن ينال مراده) لذا حاولوا الصدام معنا، إلا أننا تمالكنا أنفسنا، فما الذي بإمكاننا فعله حقًّا حيال خمسة لصوص، ثم واصلنا السير لساعات طوال على الأقدام إلى أن قابلنا مُصادفة أحد المشايخ والذي يُدعى السيد العطاس قائد حرس سلطان المكلا الذي كان في رحلة داخلية، فكان يجلس الرجل المسن ذو اللحية الرمادية الطويلة (الكثة) على سجادة وأمامه الشيشة البدوية التي لا يمكن مفارقتها، فيأتي إليه البدو وينصرفون واضعين على رؤوسهم الأعشاب الجبلية الفواحة يطلبون منه السلام، فتُكتب الخطابات ويُرسل بها الرسل كما يُسمع باستمرار دوي طلقات الترحاب.

سنمثل بين يديه ونرجوه أن ينظر في أمرنا، وهنا يتم استدعاء زعيم البدو والذي سيُنكر بدوره هذا كله مُدعيًا أنهم ما أرادوا إلا مزاحنا، كما سيتم رفض طلبنا حول الجنود من قبل الشيخ مُعللًا أنه لا يمكن له الاستغناء عن أحدهم، كما كان حريًّا بنا أن ندفع للبدو الأوقيات الخمسة من العملة بهدوء بذلك يمكننا الوصول بخير وأمان إلى مكلا، وقد اتفقنا أخيرًا على ألا ندفع للبدو تلك الأوقيات الخمس من العملة الآن، ولكن فقط حال وصولنا إلى مكلا، ويُدون هذا في كتاب ويُلتزم به.

من الآن فصاعدًا سارت الرحلة مما شك فيه بسرعة، فلا يزال أمامنا مسيرة يومين سفر، ولكننا استطعنا الوصول بسلام إلى المكلا ممتطين راحلتينا حتى النهاية على الأقل، وكنا نبدو كاللصوص.

لم يتبقَ في القصة إلا مشهد أخير:

لقد حُكم على اثنين من الرجال الطيبين بالسجن لمدة عام يقضونها في سجن مكلا، ومن حين لآخر كان يُوذن لهم بالخروج ليشتروا سمكًا لأنفسهم وبعد ذلك بقليل يتم العفو عنهم فلا تُؤخذ الحياة هنا بجدية.

وقد ظهر مُجددًا محمدٌ الذي هو خادم لسلطان المكلا، وهو يعمل بجد لما في مصلحتنا ومصلحته فهو يهتم بلا كلل أو ملل بتجهيز دار ضيافة السلطان والتي لم يتم استعمالها قبل وصولنا إلى المكلا لاستقبالنا، فهذا يعني مُجددًا الانتظار ثم الانتظار حتى يتم تسييرالباخرة وهذا الأمر قد يستغرق طويلًا وذلك لأن جدول المواعيد غير مُحدد للغاية.

فالهواء الدافئ والرطب لمدينة مكلا والتي تهب عليها رياح غربية قد تسبب الآن في نشر هذه الرائحة الكريهة المنبثقة من المزارع السمكية في جميع أرجاء المدينة، والتي تتعارض بشدة مع المنظر الرائع للمدينة، ولكن لا حيلة للناس في مواجهة تلك الأشياء، كذلك الروائح الخاصة بالشرق والتي ليست بجميلة، فيمكن أن يتعود المرء عليها لدرجة أنه لا يمكنه الاستغناء عنها.

والآن هناك شيء يسبب لنا القلاقل؛ إنها الفئران والتي توجد بقدر كاف في مكلا، ويتم مُرعاتها بوجه عام بشكل ضئيل، حيث إنه ليس من المحبب رؤيتها، فهناك ودون بذل أي مجهود يُذكر يتم قتلها، ولكن فقط عندما يكون المرء متهيأ لذلك، ويتحول صيد أمثال هذه الأشياء (القوارض) إلى مسرحية مُسلية.

إنه لمن المؤسف جدًّا لنا ولمحمد أن القصر القديم التابع للسلطان والذي نتخذ منه مقرًّا لإقامتنا في هذه اللحظة تقبع فيه الفئران بأعداد كبيرة، فقد كانوا بحق أسياد هذا القصرالقديم، وفي أثناء فترة إقامتنا الأولى في مكلا كان قد نشأ تعارفٌ بيننا، إلا إنهم كانوا متحفظين بعض الشيء حينذاك، أما الآن فهم على النقيض من هذا فقد أصبحوا وقحاء وحمقى.

فحجرات منزلنا والمزودة بالأثاث الأوروبي بعض الشيء بها كورنيش تحت سقفها الكثيف، وتستخدم الفئران هذه الأثاثات قليلة الفائدة كمضمار، وما إن جن

الليل حتى بدأ بالأعلى تحت السقف صخبٌ وضجيجٌ بشراسة كما يبدأ حفل صفيرٍ وصرير إنها الفئران في مادتها.

وفجأة يقفز فأرٌ من أعلى إلى أسفل في وسط الحجرة مُحدثًا ضجيجًا عاليًا، ويركض منها، وهنا ينتاب محمداً خوفٌ شديدٌ لأنه يعتقد أن الشيطان في شخصه قد نزل من أعلى إلى أسفل، وليس بإمكان محمد الطيب أن يفعله على وجه السرعة إلا أن يلف نفسه في مفرشه من الرأس إلى القدم بذلك لن يزعجه أي فأر مجددًا، لأنه لن يراها بالفعل، وقد حاولت تبني هذه الفكرة العاقلة للغاية ولكن بلا جدوى، حتى تشكك المرء أننا في شهر ديسمبر الآن ولأن الحرارة تحت الغطاء كانت قاسية لدرجة أنني اضطررت أن أزحف خارجًا ولا أبالي بأمر الفئران مجددًا.

وما كدت أستغرق في النوم حتي أيقظتني مجددًا تلك القوارض اللطيفة، فقد سقط اثنان منها على سريري النقال، وقد أرادا على ما يبدو أن يتخذا مما بين قدمي مكانًا للعبهما، وهنا أصبح الأمر لا يُطاق بالنسبة لي، فأخذت سريري النقال، وتوجهت إلى سطح المسكن، لأُعد مكانًا للراحة مُعتقدًا أني سأجد الهدوء أخيرًا هنا، إلا أن هذا كان خطأً، فلقد ازدادت تلك القوارض وقاحةً.

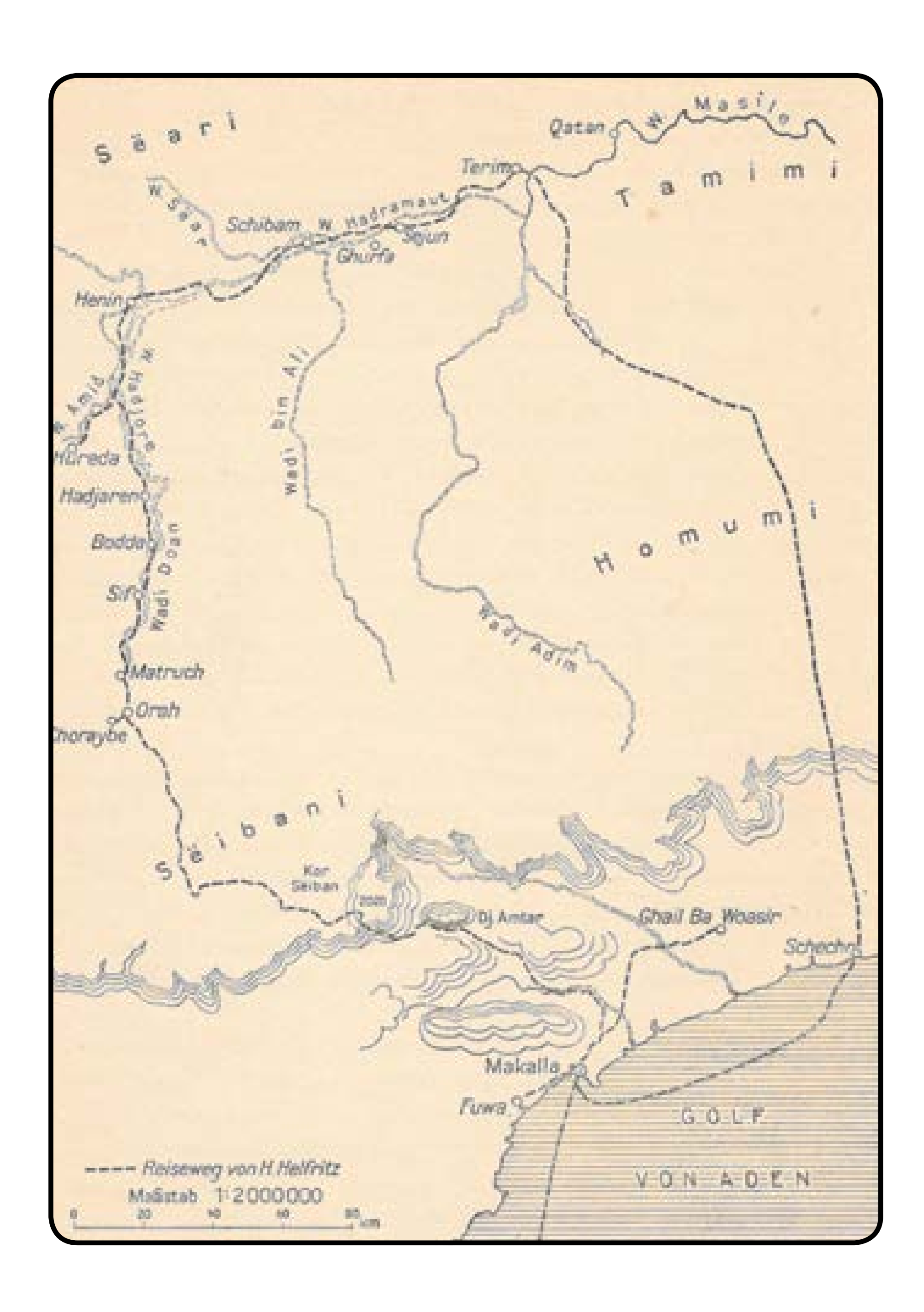
لقد سار كل شيءٍ في هدوء لوقت قصير، فأنا الآن مستغرق في النوم، وفجأة شعرت بوخذةٍ خفيفة في يدي، فأعتدلت عندئذٍ، وتمكنت في ضوء القمر الساطع من أن أعرف كيف أن فأرًا سمينًا أسودَ قد قفز من سريري إلى أسفل وركض بسرعة، ولم أعرف إلا الآن سبيل الإنقاذ، إنها شبكة الحماية من الناموس، والتي كانت محاولة وكُللت بالنجاح، وبجهد كبيرٍ ودون مساعدةِ محمدٍ، والذي ينام الآن بثباتٍ ولا يحلم بالفئران مؤكدًا، قد ثبت الشبكة.

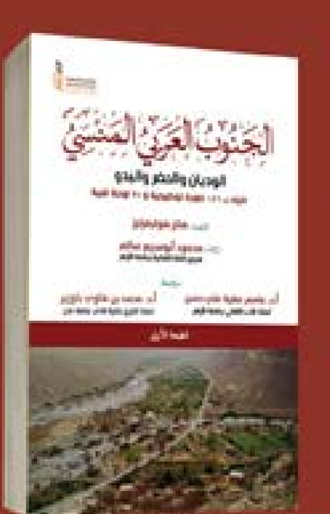
فالشبكة والتي هي مُعدة خصيصًا للحشرات الصغيرة، فإنها الآن لصيد الفئران، وقد أدت عملها بنجاح، فمن حينها قد لازمني الهدوء، فكنت أنام في رضى تحت شبكتي، وقد أوقعت الفئران فيها، فلن يجرؤوا الآن ولو لمرة واحدة على أن يتغلبوا على الشبكة، كما أنهم بحثوا عن مكان آخر في قصر السلطان من أجل ألعابهم الجميلة.

دائمًا ما كنا ننظر مرارًا وتكرارًا إلى السفينة، والتي حتما ما ستأتي يومًا، إلا أنه توجب علينا الانتظار في المكلا لمدة أربعة عشر يومًا، حتى ذات صباح وبعد أن استيقظنا كانت تقف الفيلو الصغيرة على المرسى أمام المكلا.

وقد تجمع جمعٌ غفيرٌ رسمي، ليشهدوا تحركنا فكانت أهم شخصية لدى الاستعدادات التي اُتخذت للسفر هو محمد بكل تأكيد، والذي بدا كسلطان صغير، يصدر تعليماته بفخر ووقار، فلا يمس شيئًا بإصبعه ما لم يكن وفق رأيه ضروريًّا، لأنه على أية حال خادم سلطان مكلا، إلا أن رغبته المنشودة أن يتم اصطحابه إلى أوروبا لم تتحقق للأسف، لذا فقد ودعنا بحزن واختفى بين الجموع الغفيرة.

ثم تُغادر الفيلو المرسى، وتقع المكلا في لونها الأبيض الوضاء متوارية في صخورها المنحدرة أمامنا فتصغر ملامحها، حتى تكاد تبدو كشُعاع أبيض، فتقاطع طريقنا بعض المراكب الشراعية العربية، وكذلك سرب كبير من أسماك الدلفين، التي تطفو فوق سطح البحر، إنه طريق العودة إلى عدن.


Säari
Qatan
W. Masila
Terim
Tamimi
W. Säar
Schibam
W. Hadramaut
Sejun
Ghurfa
Henin
Hureda
Hadjaren
Sif
Wadi Doan
Matruch
Orah
Wadi bin Ali
Homumi
Wadi Adim
Säibani
Kor Seiban
Dj. Amtar
Ghail Ba Woasir
Schechr
Makalla
Fuwa
GOLF
VON ADEN
Reiseweg von H. Helfritz
Maßstab 1:2000000
0 20 40 60 80 km



في مطلع عام 1932م عُدت إلى ألمانيا من رحلتي الأولى في بلاد الجنوب العربي، وكنت قد أحضرت كتابًا أطلقت عليه اسم "شيكاغو الصحراء". وهذا العمل الذي هو بين أيدينا، هو نتاج رحلتي الأولى إلى إقليم حضرموت. وفي هذا الوقت لم تكن الأوضاع مستقرة في الجزيرة العربية، والتي جلبت معها بعض التغيرات إلى البلدان الجنوبية لشبه الجزيرة العربية، فلا يفكر المرء إلا في تلك الحرب الأخيرة التي كانت بين بن سعود والإمام يحيى ملك اليمن. وأثناء ذلك أتيحت لي الفرصة لزيارة بلاد الجنوب العربي مرتين، واستطعت تعميق كثير من الانطباعات لزيارتي الأولى، ممَّا حملني على معالجة هذا النص، ومكّنني هذا إلى حد كبير في أن أتوسع بشكل ملحوظ في الجزء المتعلق بالصور التي تم توثيقها من قبل شركة لايتز فيتزلر، وهي التي تقودنا إلى أي بلد أفضل من سرد الكلمات، والذي ينظر إليه الكثير منا وبحق على أنه يقع بعيدًا، وأنه بلد يختلف بشكل جوهري في طبيعته وناسه ومساكنهم عن البلدان الأخرى الواقعة شمال شبه الجزيرة العربية.

برلين - سبتمبر ١٩٣٦   هانز هلفرتز





دار الوفاق الحديثة للنشر والتوزيع
واتس آب: 2001008170225+